

ريتانّا أرْميني

ترجمة: د. أسماء غريب

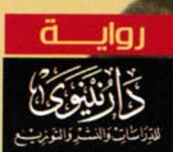
مكتبة | 156

عشقٌ سرّي

حكاية إينيسّا ولينين



رواية



عِشقٌ سرّي

حكَاية إينيسّا وَلينين

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عنوان الكتاب: عشقٌ سرّي - حكاية إينيسا ولينين
اسم المؤلف: اريتانّا أرميني
اسم المترجم: د. أسماء غريب
الموضوع: رواية
عدد الصفحات: 312 ص
القياس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2017 م - 1438 هـ
ISBN: 978-9933-536-44-2

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ريتانّا أرْميني

عِشقٌ سرّي

حكَاية إينيسّا وَلينين

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

ترجمة وتقديم

د. أسماء غريب

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

Ritanna armine

DI QUESTO AMORE NON SI DEVE SAPERE

La Storia di Inessa e Lenin

PONTE ALLE GRAZIE
© 2015 Adriano Salani Editore s.u.r.l Milano

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المحتويات

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

إلى سِيرْدْجُو العاشق

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تشرين الأول

أَأَنْضَمُّ أمْ لا؟

ما هنا يكمنُ الإشكالُ.

إنّها ثورتي.

فلادمير ماياكوفسكي

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تقديم

د. أسماء غريب

(١) ثُقْبُ الإبرة وأذُنَا الفيل

حينما طرق الناشر والأديب الفاضل أيمن الغزالي باب نوني وقلمي وبين يديه جديد ما ألّفته الكاتبة الإيطالية ريتانا أرميني[1] مقترحا نقل صفحاته إلى اللغة العربية، قلت في نفسي لا بدّ قبل الخوض في أيّ شيء من قراءة أولى وثانية وثالثة للكتاب حتى أعرف من أيّ طرف سأمسك بتفاصيل هذه الحكاية الجديدة، وأقيّم بالتالي مدى أهمّية رفد المكتبات العربية بها أم لا. وقرأتُه فعلا من الغلاف إلى الغلاف، ووافقت شكلا ومضمونا على ترجمته. ثمّ تركتُهُ لبعض الوقت في انتظار أن يختمر فعل الترجمة الإبداعي بداخلي، وحينما لمست اكتمال استعدادي الفكري والروحي، عدتُ إليه، وبدأتُ رحلتي الطويلة معه غائصة بين صفحاته أياما وليالي طوال قضيتها وأنا أدقق النظر بين حروفه وكلماته وأحاور فقراته الواحدة تلو الأخرى، إلى أن أصبح الكتاب على ماهو عليه اليوم.

وأذكر أنني كنتُ آنذاك كلّما مضيتُ قُدما في صحراء القراءة المتجددة على الدوام، ظهرت لي طبقات وتلال من المعاني يختلف أولاها عن ثانيها، وثالثها عن رابعها، حجما ولونا وشكلا ولغة، وكلّما اختلف المعنى ازدحمت أمام عينيّ الأسماء والأماكن، وظهر الكتاب بأكثر من لباس وصورة، فهو

---

1 - انظر السيرة الذاتية لريتانّا أرميني في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تارة يبدو كأنه رواية، وتارة أخرى يظهر كأنـه عمـل سردي ذاتيّ بيـوغرافي، وتارة ثالثة تجده وقد تحـوّل إلى كـرّاس تـاريخي وسـياسي وصـحفيّ في الآن ذاته، وتراه مرّة رابعة وقد اجتمع فيـه كـلّ هـذا وذاك مـشكّلا جنـسا أدبيـا جديدا يصعب تصنيفه أو تعميده باسم خاصّ ومعـين، مما جعلنـي أشـعر وكأنني في دارة الركض وراء سراب تمسكه ولا تمسكه، وتشرب من مائه ثم تعطش من جديد، لأنك تكتشف أن ما شربته لم يكن ماء عـذبا وإنـما ملحـا أجاجا، فتقف طالبا الغوث وباحثا عن خيط متـين تجمـع بـه بدايـة فـصول الكتاب في لغته الأم، وتخيط به في الختام كتابا آخر بلغة جديدة حتـى يـصبح متاحا بين يدي كلّ من يعرف لغة الضاد في كل منطقة من مناطق العالم.

لكن من أين لي بهذا الخيط السّحريّ العجيب، بل من أين لي بالإبرة التي سأدخل فيها هذا الخيط لأحيك به أطراف ما أقرأه وأترجمه في الوقت نفسه؟ وأنّى لي أن أحقق كلّ هذا والكتاب قد تحوّل بين يدي إلى أذنـين عريـضتين، هُما أذنيْ فيل ضخم ما إن أمسكتهما حتى تحولتا إلى مـروحتين كبيرتـين مـن الأوراق حملتـاني إلى عـالم واسـع مـن الكتـب المختلفـة التخصـصات والتوجهات، ذلك أنني كنت كلـما قـرأت كلـمات ريتانّـا وجـدتني أغـادر الكتاب من أجل البحث في كُتُـب أخـرى عمّـن تكـون مـثلا إينيسّا بطلـة الأحداث الرئيـسة، أو ناديـا كروبـسكايا وأليكـساندرا كولونتـاي، وعـن المصادر والمراجع التي استقت منها الكاتبة معلوماتها التاريخيـة والـسياسية، وكذا عن المؤرخين الذين بحثت في كتبهم وقراءاتهم عن المادة الخام التي بها شكلت مؤلفها الجديد هـذا[1]، كـما وجـدتني أيـضا أبحـث عـن الأمـاكن

1 - Ritanna Armeni, *Di questo amore non si deve sapere*, Ponte alle grazie, Milano, 2015.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وأسمائها، وعن البلدان والمدن والمقاهي والحدائق، والقطارات، والمدارس والمنافي، إلى درجة أنني كنت في كثير من الأحيان أشعر أنني أصبحت شخصية من شخصيات هذه "الرواية" البيوغرافية، أركض في الطرقات وأعيش مع الأبطال أحداثهم المشوقة ومغامراتهم المحفوفة بالأخطار. نعم، لقد كنتُ أركض وأنا امتطي ظهر كتاب هو فيل أمسك بأذنيه المروحيتي الشكل، دون أن أعرف كيف تحوّل فجأة إلى صقر ذهبيّ أخذني على بساط الترجمة من سورية إلى إيطاليا، ومنهما إلى روسيا، ومن هذه الأخيرة إلى فرنسا وسويسرا والسويد وألمانيا وكراكوف، بل إلى كل مكان كانت فيه إينيسا مع حبيبها لينين.

(٢) سارة ومحراب الترجمة

وإذ أصبحتُ على ظهر هذا الصقر المحلّق في سماوات الزّخ والبوح الناريْنِ، ممسكة بالقلم المتوهّج، وغامسة إياه في مدواة النون لأغرف منها حرف الترجمة، سمعتُ الطّائرَ الذهبيّ يقول: أنت الآن تجلٍّ من تجليّات سارة، ودار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع هي صورة جديدة لإبراهيم الذي نظر نظرة في النجوم وقال إني سقيم، فانظري ما أنت فاعلة بهذا الكتاب في مهمتك الجديدة هذه. حينئذ تذكرتُ نصّا من نصوصي الشعرية الذي كنت قد كتبته عام ٢٠٠٣ ضمن قصائد ديوان (مقام الخمس عشرة سجدة) وعنونته بـ (مقام إبراهيم)[1]، وهو مقام يقين وثبات على رسالة الحرف، وقلت في نفسي؛ عجيب أمر هذا الكتاب، إنه يخاطبني كما كولن

---

1 - د. أسماء غريب، مقام الخمس عشرة سجدة، ط١، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١٣. ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ولسن بلسان اللامنتمي[1]، ويطالبني في الوقت ذاته بالانتهاء، وأقول اللّامنتمي، لأنه حينما طرقت بابي دار نينوى فعلتُ بالضبط كما فعلت سارة، ضحكتُ وقلت: أيعقل هذا وأنا التي لا أنتمي إلى أيّ حزب سياسي، ولا إلى أية إيديولوجية معينة، ولستُ من أهل اليمين، ولا من أهل اليسار، فكيف يطلب التواصل معي كلّ من ريتانا وصاحبتها إينيسّا، ولينين برفقتهما، إنّ هذا والله لأمر عجاب! وكيف عليّ إذن أن أستقبلهم ونحن على عتبة زمن شاخ فيه الجميع، وبات الكلّ ينتظر ريحا تغيّر مجرى الأحداث، وتحمل البشارة والأمل في غد أفضل؟ ما من شكٍّ أنّ خير ما سأقوم به هو ما قامت به سارة حينما وقف الأغراب أمام خيمة إبراهيم؛ إنها لم تسألهم عن هويتهم، ولا عمّا يريدونه من زوجها؛ لقد ابتسمت وشمّرت عن ساعد الجدّ وفتحت بيتها، وأشعلت الحطب، وجلبت الماء والقمح والزيت، وطهت الخبز الطازج، ولحم العجل الحنيذ وقدّمتهُ للضيوف، وهذا كله يعني أنها لم تكتف بالقيام بواجبها كزوجة لنبيّ، بل بواجب الاستقبال والاحتضان والترحيب، وهكذا عليّ أن أقوم أيضا، وأنا في بيت الضيافة هذا، الذي هو هنا بيت الترجمة، لأنّ هذا هو دور المُترجم الحقّ؛ عليّ أن أفتح قلبي وأستقبل الكتاب وأرحّبَ بشخصياته أحسن ما يكون الاستقبال والترحيب، وأقدّم لهم أفضل ما عندي: تقصّي المعنى والأمانة عند نقله من لغة الانطلاق إلى لغة الوصول، وإثرائه بقراءات أخرى تصبُّ في الكتاب ذاته، ثم البحث عن الأديبة ريتانّا أرميني من أجل فتح قناة للحوار معها، وإشراكها في عملية الإطلال على الضفة الأخرى؛ ضفة

---

1 - كولن ولسون، اللّامنتمي، ترجمة أنيس زكي حسن، دار الآداب، ط٥، لبنان، ٢٠٠٤، (الفصل الثامن)، ص٢٤٢.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحرف العربي المبين. وهذا ما حدث بالفعل، لقد اتصلتُ بها، وتعرفتُ عليها، وجمعتني وإياها مراسلات قيّمة، تحدثنا فيها عن الكتاب، وصوّبنا معا بعضا مما كان فيه من السّهو، ووجدتها هي الأخرى سارة من نوع جديد، تُحسن الإنصات والإصغاء، وتهتمُّ بقضايا المرأة بغض النظر عن انتماءاتها العقائدية أو الجغرافية والسياسية، وتؤمن بما في التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان من سحر، وقوة قادرة على تغيير مسار التاريخ وصنع أحداث جديدة[1]. نعم، هو صنع الحدث الذي سيكون هدية ضيوف بيت الترجمة لنا جميعا، بالضبط كما تلك الهدية التي بشّر بها ضيوف إبراهيم سارة، حينما أخبروها بقرب قدوم الابن الذي طالما انتظرت وحلمت بإنجابه، ذاك كان هو ثمن صبرها وكدّها ولطفها وحسن ضيافتها، والابن هنا بالنسبة لي ولريتانّا أرميني كما كان لسارة أيضا، هو أن نحمل على عاتقينا مسؤولية تجديد الحرف، الذي هو قبل كل شيء حرف التحضّر والتمدّن والتقدّم العلمي، ذلك أن الحضارات لا يمكنها أن تُبنى إلّا من خلال غربلة الماضي وأحداثه، والإفادة من أخطائه، من أجل المضي قدما نحو غد أكثر عدالة وإشراقا ممّا مضى.

(٣) ريتانّا واينيسّا

حينما تحدثتُ كتابةً إلى ريتانّا أرميني، وقرأت معظم مُؤلّفاتها[2] واطّلعتُ على العديد من حواراتها الصحفية المقروءة والمسموعة والمرئية، وأصغيتُ لها وهي تتحدث عن الكثير من القضايا الحساسة، وتأملتُ مسارها

---

1 - Ritanna Armeni - Laura Mulayka Enriello - Gadi Luzzatto Voghera - Claudio Monge, *L'ospitalità di Abramo*, traduzione in arabo a cura dei frati minori conventuali del Libano, Edizioni Messaggero di Sant'Antonio, Padova, 2016.

2 - انظر عناوين الكتب المذكورة في السيرة الذاتية الخاصّة بريتانّا أرميني.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الصحفي والسياسي العميق، تأكد لي أنّها امرأة ذات رسالة، إنها تبحثُ عن المخبوء في التاريخ لتظهره إلى العالم، وكونها بحثت عن إينيسّا في أرشيفات تاريخ الثورة البلشفية المسكوت عنها، فهي لم تفعل هذا من أجل أن تقول للعالم فقط إن لينين كانت له عشيقة سرّية هي إينيسّا أرماند، بل على العكس من ذلك، لأنّ الباحث الرصين الحق، لن يهمّه ما كانته إينيسّا في حياة لينين الخاصّة، لا سيما وأن مجرد عملية تنقيب بسيطة سوف تظهر له أنها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته، - ربّما كانت أهمهنّ ولكنها لم تكن الوحيدة -[1]، فالذي يهمُّ حقيقة هو كيف كان لينين يتعامل كرجل سلطة مع المرأة، لأن هذا سيساعد الدارس على إجراء مقاربة تقابلية بين الماضي والحاضر عبر طرح مجموعة من الأسئلة التي ترمي إلى تحديد موقع المرأة من السياسة سواء في روسيا أو في غيرها من مناطق العالم بما فيها إيطاليا والبلدان العربية. ومن هنا ينبع سرّ اهتمامنا بطرح هذا الكتاب وعرضه في المكتبات العربية.

قد لا تكون ريتانّا تعرف أنني من مواليد الثامن من آذار، ولكنني على يقين أنها إذا علمت بهذا الأمر فإن اهتمامي بترجمة كتابها هذا سوف يعني لها الكثير[2]، لا سيما أنني أعرف جيدا أنها تهتم بالسيميائيات التاريخية ودلالات

---

1 - Tamás Krausz, *Reconstructing Lenin: An Intellectual Biography*, Translated by Balint Bethlenfalvy with Mario Fenyo, Monthly Review Press, NewYork, 2015 / André Beucler et G. Alexinsky, *Les amours secrètes de Lénine: d'après les mémoires de Lise de K*; Baudinière, Paris, 1937.

2 - د. أسماء غريب، *إينيسّا أرماند*، قصيدة من ديوان (ما لمْ تَبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليه متون سيّدة)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦، ص ٤٩: هذه القصيدة كتبتُها في الثامن من آذار ٢٠١٦، وهو اليوم الذي أعلنتُ فيه لدار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع عن موافقتي على ترجمة هذا العمل الإبداعي الجديد لصاحبته ريتانّا أرميني.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأرقام والسنوات[1]، ولا يخفى على أحد أن الثامن من آذار هو اليوم الذي اعتمدته كل الحركات النسوية في العالم ليمثل المرأة التي تناضل من أجل حياة كريمة بعيدة عن الحيف والظلم والغبن الذي يمارس عليها في شتى مجالات الحياة وخاصة منها السياسية، وليس من قبيل الصدفة بتاتا أن تكون إينيسّا هي من النساء الأوائل اللائي سعين من أجل أن يكون هذا اليوم هو يوم المرأة بامتياز، واليوم الذي أصدرت فيه أيضا جريدة (رابوتنيكا)[2]. لقد كانت إينيسا تجسد البذرة التي تبرعم منها ما يسمى اليوم بالفكر النسوي، وفكر الجندر وما إليه من قضايا أخرى من قبيل أزمة الهوية في النظرية النسوية، والمطالبة بصوت المرأة، ونظرية السياسة الجنسية[3]. ولأنها عانت من تهميش التاريخ الرسمي والسلطوي لها، فإن ريتانا أرميني تحاول بكتابها هذا ردّ الاعتبار إليها، وكيف لا تفعل ذلك وهي التي ألفت كتابا آخر أسمته (النساء الأوائل: لماذا يُحرم الجنس الثاني من العمل السياسي)[4] لتندد بالظلم الذي يمارس على المرأة في عملها السياسي والضغوطات التي تعاني منها بسبب تجني وتسلط الرجل الذي يسعى ما أمكن إلى إقصائها من الحياة السياسية وسجنها في أدوارها المنزلية التقليدية، وهو الكتاب الذي تطرقت

---

1 - انظر في الخاتمة الجزء الذي تتحدث فيه ريتانّا أرميني عن تفاصيل صياغتها لهذا الكتاب ورحلتها الطويلة بحثا عن إينيسّا وكلّ ما يقود إليها من مصادر وأرشيفات وأحداث وأماكن سواء في إيطاليا، أو روسيا.

2 - يرجى الإطّلاع على الفصل السادس عشر: (امرأة متعددة المهام)، وخاصة الجزء المتعلّق بحدث إصدار مجلة (رابوتنيكا) وما تلاه من اعتقالات في صفوف العاملات بها.

3 - انظر في هذا الصدد الفصلين (عطلة «خفيفة وترفيهية») و(حبّ بورجوازي أم بروليتاري؟).

4 - Ritanna Armeni, Prime donne. Perché nella politica non c'è spazio per il secondo sesso, Ponte alle Grazie, Milano 2008.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فيه أيضا إلى قضية السياسية والقيادية الفرنسية ماري سيجولين رويال؛ رئيسة المجلس الإقليمي لبواتو شارانت وعضو سابق في الجمعية الوطنية، ومرشحة الحزب الاشتراكي الفرنسي للانتخابات الرئاسية الفرنسية لسنة ٢٠٠٧، وكانت ستصبحُ في حال نجاحها أول امرأة تتولى هذا المنصب في فرنسا، ولكنها خسرت الانتخابات أمام مرشح يمين الوسط نيكولا ساركوزي بعد أن حصدت ٤٦.٨٪ من الأصوات.

إينيسّا هنا ماهي سوى رمز لنساء قياديات عديدات امتهنّ العمل السياسي، وكرّسن حياتهن لقضاياه الحساسة دون أن يحظين بالتقدير الكافي لعملهن، ولا بالاعتراف بمدى أهميّته، ولعلّ الكاتبة ريتانّا تريد من خلال طرح حكاية هذه المرأة مع لينين، التساؤل عن كم من إينيسّا مازالت حاضرة بيننا، وإن كان يفصلنا عن زمن الثورة البلشفية العديد من السنوات، وكأنّ شيئا لم يتغير، وكأنّ الزمن مازال واقفا هناك، فمن يدري، لربّما الأزمة الحقيقية للمجتمعات المعاصرة تكمن هنا: الإنسان لليوم لم يعرف كيف يتعامل مع تاء التأنيث، والرّجلُ مازال لم يفكّ بعد أسرار حواء وطاقاتها الكامنة، ربّما لو حاول ذلك لتغيّر كل هذا الجحيم الذي يعيشه الإنسان المعاصر، إلى ماهو أفضل وأعمق وأقيم، من أجل حياة إنسانية كريمة وعادلة.

(٤) لينين عاشقاً

كثيرون هم أولئك الذين انتقدوا لينين، وكتبوا عنه العديد من الأشياء غير المحمودة بين قائل إنه حكم في البداية بطريقة ديكتاتورية حزبَه البلشفي، وبعد ذلك الدولةَ التي أُنشِأت في ظلّ الثورة، وقائل إنه كان

المسؤول الرئيس عن موت الآلاف من الأشخاص الأبرياء، والمؤسس الأول هو ورفيقه تروتسكي لدولة بوليسية شمولية لا تعمل إلا من أجل تنفيذ مصالحهما معا. ولقد انتقده حتى اليساريون، لا سيما بعد معارضته للحركة الأناركية المستقلة في أوكرانيا، وتدمير اللجان العمالية التي تكوّنت في المصانع بعد الثورة، ولم يسلم حتى من انتقاد نساء الحزب البلشفي له، لكنّه بالمقابل كان له أيضا العديد من المؤيّدين والأنصار، والمدهش في كلّ هذا أنه مازال لليوم حيّا في ذاكرة العديد من المهتمين بالفكر السياسي الروسي، وكثيرة هي الكتب التي تتحدث عن عمله العسكري المسلح، لا كمظهر من مظاهر الإرهاب الدمويّ، ولكن كصياغة جديدة ضرورية من أجل إحراز النصر في معركة الدفاع عن الوطن الاشتراكي بقوّة السلاح، وإرساء أسس العلم العسكري السوفييتي، خاصّة وأن الماركسية اللينينية ترى أن هذا الأمر هو حتمية تاريخية في مسار الصراع من أجل تأسيس ودعم المجتمع. وريتانّا أرميني تحدثت عن هذه النقطة بالذات في البعض من صفحات كتابها هذا[1]، ولكنّها لم تكتف فقط بالحديث عن الجانب الثوري والعسكري والسياسي في شخصية لينين، وإنما حرصت بشكل أكبر أن تقدّم للقارئ صورة جديدة عنه ولا يعرفها أحد سوى المقربين منه، وهي صورة لينين العاشق الذي ذرف الدموع الحارّة بعد وفاة حبيبته إينيسّا، هذه المرأة التي استطاعت أن تحفر بيديها الناعمتين في قلبه، وتخلق بداخله نهرا جاريا من المشاعر الدافئة والحنونة وسط تلك الجدران التي كان كثيرا ما يلجأ إليها من أجل إخفاء الجانب العاطفي والإنساني من حياته الخاصّة،

1 - انظر فصل (في مؤتمر قمّة المرأة العالمي).

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وإينيسا كان يعتبرها جزءا حميميا من خصوصيته هذه، لذا لم يكن يود أن يعلم أحد أيّ شيء عن ما كان يكنه لها من مشاعر الحبّ والعشق الدفين، ليس فقط لأنه كان يخشى من أن يؤثر ذلك على حياته السياسية، ولكن لأنه كان يخاف عليها من أفكارها، لا سيما تلك المتعلقة بالحرية الجنسية النسوية، التي كان يظنُّ من وجهة نظره أنها قد تتسبب في سوء فهم الآخرين لها، أو التنقيص من قيمتها، وهي المرأة التي لا يعرف معدنها الحقيقي الأصيل سواه، لأنه اقترب منها بشكل أكبر، وعمل وقضى إلى جانبها أجمل سنين حياته. هذا هو لينين هنا، بطل قصة مجهولة في التاريخ البلشفي، رجل بروليتاري، أحبّ امرأة بورجوازية، وريتانّا أرميني روت لنا حكايتهما بطريقة بوشكينية بديعة.

(١)
دموع لينين

إنّه التاسعُ من تشرين الأول لسنة ١٩٢٠، والساعةُ تشير إلى الثامنة صباحا. ليالي الخريف في موسكو طويلة، وضوءُ النهار لم ينتشر بعْدُ في الطرقات. وداخل محطّة كازانسكي ثمّةَ رجل يجوب الرصيف بحركة قلقة ذهابا وإيابا، ويرفعُ بين الفينة والأخرى عينيْهِ لينظر من حوله ثـمَّ يخفضهما مرّة ثانية، ويعودُ إلى مشيه المضطرب. وعلى مسافة قريبة منه يوجدُ حشد من الناس، يتتبّعون خطواته بنظراتٍ خاشعة، ويراقبونَ في الوقت ذاته عينيه الضيّقتيْن الحمراوين، ويديْهِ المُتوتّرتيْن وحركتهما اللّاإراديتيْنِ حول عُنقه من حين لآخر.

وهاهو القطارُ القادمُ من القوقاز يدخلُ ببطءٍ شديدٍ إلى المحطّة، كما لو أنّ الأمرَ فيهِ علامة احترام منهُ للصّمتِ المُخيّم عليها وفيها. والجميعُ ممّنْ ينتظرُهُ هُنا بمَن فيهم الرّجل القلق، كانَ يعلمُ أنّ مدّة سفر هذا القطارِ قدِ استغرقتْ ثمانية أيّام قبلَ أن يصلَ إلى موسكو، وأنْ لا أحدَ سينزلُ منه، إذ لا مسافرُونَ أحياء يوجدونَ داخل مقطوراته!

فوق عربةٍ مغطّاة بثوبٍ أسود وأحمر، يُسافرُ تابوت يوجدُ بداخلهِ جسد امرأةٍ اِسمها إينيسّا؛ إينيسّا أرماند. إنّها المرأة التي ينتظرُها الرّجل وحشده الصغير من الناس، والتي ما إن وُضعَ تابوتُها في سيارة سوداء مزخرفة بعددٍ كبير منَ الزّهور، حتّى تكوّن الموكبُ الجنائزي بسرعة فائقة، وبدأ بعبور ساحة كلانتشيفسكايا أوّلا، ثمّ دخلَ إلى شارع مياسنيكايا، واتّجهَ بعد ذلك

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى قصرٍ مصبوغ باللونين الأخضر والأبيض، كانَ قبل الثورة ناديا خاصّا بنبلاء موسكو، أمّا اليوم فهُو مقرّ اتحاد نقابات العُمّال.

لمْ تكنِ المسافة قصيرة، وقد اقترحَ أحدُهم على الرّجل أن يركبَ سيارةً جُلبت خصّيصا لهذا الغرض، لكنهّ رفض بإشارة من رأسه وفضّلَ أن يتبع النعش مشيا على قدميه. نظرتُه الغارقة وسط معطفه، وقبّعتُه التي كانتْ تغطي كلّ رأسه وجزءا كبيرا من جبهته، وقسماتُ وجهه المُتقلّص من شدّة الألم، كلّ هذه الأشياء كانتْ تجعلُ من الصّعب أنْ يتعرّف عليهِ أحدٌ وهو يمشي خلف النعش. إلّا أنّ طرقات موسكو الآنَ قد امتلأت بالنساء والرجال الذين بدأوا يومهم، وأصبحَ من المستحيل ألّا ينتبِه للأمرِ أحد، حتّى أنّ شخصاً منَ المارّين حينما دقّق النظر في الرّجل بشكل مُلحّ، صاحَ مندهشاً: «إنّه لينين!». توقّف البعض من الناس، والبعض الآخر انضمّ إلى الموكب، فالرّجل الذي كان يُغالبُ دموعه ويترنّح من شدّة الحزن هو حقيقة فلاديمير إيليتش أوليانوف؛ زعيم البلاشفة ورئيس الاتحاد السوفييتي.

في المكتبةِ السّمعية البصرية الخاصّة بمؤسسة الإذاعة والتلفزيون الإيطاليّيْن، يوجدُ محفوظاً فيلم قصير ولكنه مؤثر جدّاً، يُوثّقُ لهذه الجنازة التاريخية، فضلا عن بعضٍ من الأشرطة التصويرية المتآكلة، وصور أخرى، وإن كانت تبدو بالية جدّا ومضبّبة، إلا أنّها مازالت تختزنُ كلّ شيء عن لينين ووجعه الدفين، وقلقه الذي لم يكنْ يعنيهِ أبداً إخفاءَه عن العيون المُصوَّبة نحوه من كل جانب. فكلّ شيء عنْ شخصيّته المهيبة اختفى آنذاك في تلك الثواني الخاطفة: وقارُهُ كزعيم فوق المنصّة، سبابتُه التي كان يرفعها أثناء إلقائه لخطبه الرّسمية المجيدة أمام الجماهير الغفيرة، وفخامتُهُ كرجلٍ

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

دولة يجلس إلى مكتبه داخل مبنى الكرملين في موسكو. انمَحقَ كلّ شيء، ولمْ يتبقّ من الزعيم في تلك اللحظات الموجعة سوى صورة رجل ضائع شارد، بوجه شاحب حفر الدّمعُ فوق صفحته تجاعيد وأخاديد عميقة من الحزن والكمد.

هاهو لينين يستلمُ التّابوت الأبيض، ويبدأ في المشيء بمحاذاته ملقياً عليه نظرات شاردة، ومن حين لآخر كان يلمسُهُ أو يتكأ عليه ليسند به جسده المتهالك. وحينما وصل أخيراً إلى الكرملين اقترب من الرجال الذين كانوا يحملون الجثمان وبدأ يساعدهم في دفنه، وإلى جانبه كان يقف أبناء إينيسّا؛ أندريه، فارفارا، وإينّا. ابتسم لهم ابتسامة حزينة ومفعمة بالمحبّة والحنان.

لقد كان حزن لينين عظيماً، ولمْ يتمكّنِ الكثيرُ من الناس -وإن بدافع من الحياء والتحفظ- التغاضي عنه أو عدم اللإشارة إليه. فمثلا ألِيكساندرا كولونتاي وهي واحدة من أبرز نساء البلاشفة قالتْ بعد مُضيّ سنة على وفاة إينيسّا: «في ذاك الموكب الجنائزي، لم يكن باستطاعة أحد أن يتعرف على لينين؛ لقد كان يمشي بعينيْن مغمضتيْن، لدرجة أنهُ كان يُخَيّلُ لنا أنه سيقع صريعاً على الأرض بين الخطوة والأخرى!». أمّا أنجيلكا بالابانوف، وهي شخصية تاريخية معروفة لدى الحركة العمالية الروسية والإيطالية على حدّ سواء، فقالتْ: «لم يكن وجههُ وحدَهُ يتألّمُ بشدّة، بل كلّ كيانه، ولا أحدَ كان يجرؤ على تحيّتِهِ ولو بمجرّد إشارةٍ خفيفة من رأسه. لقد كانَ يظهر جلياً للجميع أن لينين يريد أن يبقى مختليا لوحده مع مأساته. وكان يبدو كما لو أنّه تقلّصَ فغطّتْ قبّعتهُ وجهَهُ بينما اخضلَّت عيناهُ بالدموع التي طالما حاولَ عبثاً أن يحبسَها في المآقي. وفي كلّ مرّة من تلكَ اللحظاتِ التي كانَ فيها موجُ

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حشدِ الناس المُتدافعين يُحرّك مجموعتَنا، كان لينين يستسلمُ لهدهدتـهِ، بـدون أدنى مقاومة منهُ، ومَنْ يدري لعلّ الرّجلَ كان يجدُ في الأمر سـلواناً لُمعاناتـه، مادامتْ هذه الحركات ستقرّبه أكثر فأكثر من جثمان إينيسّا».

كانَ فلاديمير إيليتش أوليانوف كلّما ألقـى نظـرة عـلى التـابوت المغطّـى بالزهور، شعرَ بوخزٍ في قلبهِ، لقد كانَ النّدمُ والحسرةُ يأكلانـهِ بـلا هـوادة، فإينيسّا لمْ تكن ترغبُ في الابتعادِ عـن موسـكو، لكنـه ألـحّ عليهـا وأقنعهـا بالذهاب لقضاء عطلتها في القوقاز، هناك حيث أصيبتْ بمرض الكـوليرا. وليس هذا فحسب، فآلامه المتواصلة كانت تأخذه إلى لحظـات أخـرى مـن الماضي، كان يحسبها غير ذات أهمية: إنه الآن يتذكّرُ إينيـسّا وهـي وحيـدة في عمق شتاء موسكو القاسي، وليسَ ببيتها خشب تضعه في المدفأة، ولا تملـك جراميق تلبسها وهي تتأهّب كل يوم لقطع مسافات طويلة من طرق المدينة. كلُّ هذا كان قد اكتشفه لينين على سبيل الصدفة، فأرسلَ لها كمية قليلة مـن الخشب ووعدَها بأن يتدبّر أمر الجراميق أيضا.

عديدة هي الأسئلة التي كانت تلاحق ذاكرته: مانوع تلك المشاعر التـي كانت تطفـو فـوق أديـمِ عينَـي إينيـسّا حيـنما أرغمهـا عـلى تـرك موسـكو والذهاب إلى القوقاز؟ هل هي مزيج من الاستسلام والاقتناع؟ أو هي نـوع من الاستكانة والارتياح؟ لكن السؤالَ الحارق الذي ظلَّ يترددُ بداخله كان: متى استمع إليها وهي تعزف للمرة الأخيرة مقطوعات لبيتهوفن؟

وحينما وصل الموكب الجنائزي أخيرا إلى مقرّ اتحاد نقابات العمّال، لم يكن فلاديمير إيليتش قد انتبهَ بعدُ إلى ناديا التي كانت تمـشي إلى جانبـه منـذ أولى لحظات انطلاق الموكب بعينين دامعتين.

وفي صباح اليوم التالي أصبحت مراسيم التأبين رسميّة، وتناولتها وسائل إعلام الدولة وصحفها بما فيها جريدَتَي «الخبر» و«الحقيقة». وقد حضر الموكب الرسميّ العديد من الرؤساء فضلا عن رفقاء من جريدة «العامل الاشتراكي»، وكذا أعضاء المجلس المركزي لتحرير المرأة سواء منهم أولئك الذين كانوا في النقابة أو في الحزب، ذلك أنّ إينيسّا كانت رئيسة هذا المجلس قبل وفاتها. كما رُفعت خلال هذه المناسبة الأليمة الأعلام واللافتات التي كُتبت فوقها عبارات مُؤثّرة من قبيل «يموت الزعماء وتبقى أفكارهم»، وعزفت الفرقةُ الموسيقية للقوات المسلحة نشيدَ الأممية، أمّا فرقة مسرح البُولْشُوي فعزفت مقطوعات لكلّ من شوبان وموتسارت ثمّ بيتهوفن. وانطلقَ الموكبُ بعد ذلك من مقرّ اتحاد نقابات العمّال مُتّجها نحو السّاحة الحمراء حيثُ ستتمُّ وقائع احتفال التأبين الرسميّ.

لا أثر لِلينين بين الحضور، وقد تعمّدَ هذا الغياب، ذلك أنّه فضّل ألّا يظهر إلا بعد أن تنتهي الخطابات والمداخلات الرسمية. وهاهو قد أتى أخيراً وجلس بالقرب من القبْر الذي حُفر حديثاً بين برجيْ نيكولسكايا وسباسكايا. كانَ متسمّراً في مكانه بدون قبّعةٍ، وبمعطف مغلقة أزراره حتّى العنق. وإلى جانبه في ساحة الكرملين تجلسُ كما العادة ناديا كروبسكايا.

لمْ تكنْ لدى لينين أيّة رغبة في حضور كلّ تلك الشكليات الخاصة بحفل التأبين، لأنه يعلمُ مسبقا أنّ الأمر برمّته سيكونُ عبارة عن خطب رسمية لم يكن متحمّسا لسماعها بأيّ شكل من الأشكال. وهكذا، وبحجّةِ شواغله المتراكمة قرّر أن يأتي متأخّرا. وقدْ كان الرّجل محقّا فيما ذهب إليه، لأنه حينما

وصل كان الخطباء مازالوا يتعاقبون الواحد تلو الآخر أمام رمْسِ إينيسّا وهُمْ يقرأونَ كلماتهم وخُطبَهم وفقا للترتيبِ المُمِلّ لأسماء عدّة من الفئة البيروقراطية الحاكمة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، ألقى فلاديمير إيفانوفيتش نيفسكي كلمةً تجاهل فيها التزام إينيسّا بقضايا النساء وكفاحها من أجلهنّ سواء من خلال رئاستها لجريدة «الخبر» أو لجريدة «المرأة العاملة»، إلّا أنّهُ ركّزَ بشكل أكبر على الجانب الثوري المقدام من شخصية الرّاحلة التي عَرفت كيف ترفع راية الشيوعية عاليا. أمّا بوليدروف فقدِ امتدح دور الفقيدةِ كمديرة لمجلس موسكو الاقتصادي، وهي المهمّة التي كانتْ مُجبَرَةً في حياتها على تولّيها بالرغم من بُعدها تماما عن ميولاتها واهتماماتها، وقد تركتها بعد ذلك غير آسفة عليها أبداً. وإلى جانب هذا، جاءت كلمة أليكساندرا كولونتاي مفعمة بالحماسة وفقا لما صرّحت به جريدة «الخبر» وهذا جزء مقتطف منها: «لا يوجد شخص في روسيا لا يعرفُ اسم إينيسّا أو غير مُلمٍّ بفكرها [...] سيُكملُ الملايين من العمّال مسيرتَها النضالية، وسيتقدّمون في غيابها إلى الأمام دائما نحو الشيوعية سيْراً على نهجها الذي رسمتهُ لهم في حياتها». إلا أنّه يبدو أنّ أليكساندرا على الرّغم من اتّقاد كلمتها واندفاعها نسيتْ أن تتحدّث عن المشاحنات والمناقشات المحتدمة التي كانت تطبع علاقتها بالرّاحلة، بسبب الاختلاف في وجهات النظر لدى كلّ منهما بشأن العديد من القضايا السياسية. ولمْ تُشِرْ أيضاً (ولربّما كانت الوحيدة التي يمكنها القيام بذلك) إلى المشاريع الجديدة التي كانت إينيسّا تنوي تحقيقَها بخصوص القضية التي كانتا تخدمانها معاً بحماس منقطع النظير، أيْ قضية المرأة وتحريرها وعلاقتها بالحزب تحتَ ظلّ دولة اشتراكية جديدة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وفي الختام وتبعاً لترتيب أسماء النومينكلاتورا ذاتها، استلمت الكلمة نساءٌ من الشعب وقلن إنّ الفضل كلّه يعودُ إلى إينيسّا في التغيير الشامل الذي طرأ على حياتهنّ، فلولاها ما عَرفْنَ شيئاً عن الحركة الثورية، ولا عن حرية المرأة، ولا حتّى عن العملِ داخل مؤسسات المجتمع المختلفة بما فيها السياسية.

وبالإضافة إلى كلّ هذا لمْ تتناولِ الخُطب أيّ شيء عن حياة إينيسّا كامرأة مستقلّة وثورية، ولا عن تجاربِها التي نقلتها من حياة موسكو البورجوازية إلى حياة مجتمع الثورة، وتمّ التغاضي أيضاً عن كيْفَ أنّها كانت تهتمُّ بأبناء الفلّاحين والمزارعين لدرجة أنها قامت ببناء مدرسة خاصة بهم في قرية إيلديجينو، على الرغم من أنّها كانت سيّدة ثرية وزوجة لصاحب أشهر وأكبر مصانع الغزل والنسيج في روسيا. وليس هذا فحسب، فلقدْ تمّ التعتيمُ أيضاً على دورها القيادي إبّان العهد القيصري كامرأة سعتْ بكل ما فيها من قوّةٍ إلى حماية النساء ضحايا تجارة البغاء. كما طوى النسيانُ فترات شديدة الأهمية من حياة إينيسّا، ولم يتحدث عنها أحد من هؤلاء الخطباء، لا سيما منها فترتَي المنفى والسجن، وكذلك الفترات التي كانت تهتمُّ فيها بالأقليات الروسية المهاجرة إلى فرنسا والمقيمة في باريس. هكذا، وبكلّ بساطة دُفنت إينيسّا تحت ثقل دورها كامرأة قيادية بلشفية مُطيعة لا أقلّ ولا أكثر. فحتّى القدّاس الجنائزي كان بارداً، وكانت مشاعر الناس فيهِ مُقيّدة، ولا مكان فيه لأحد، اللّهم لتلك الأعلام التي كانت ترفرف وسطَ صقيع طقوس ومراسيم الدولة السوفييتية.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دفنت إينيسّا بتوصية وقرار رسميَّيْنِ من لينين أمام أسوار الكرملين، ولقد كانت الأجنبيةَ الوحيدة التي حازت على هذا الامتياز الفخري، ثم دُفن إلى جانبها بعد مرور أيام قليلة جدا الصحفي الأمريكي جون ريد، صاحب الكتاب الشهير «عشرة أيّام هزّت العالم».

«لمْ يكُنْ لدى لينين أولاد»، هكذا قال المؤرّخ والصحفي لويس فيشر ضمنَ كتابه الذي ألّفَهُ عن سيرة زعيم الثورة. «وبعد وفاة إينيسّا لمْ يعُد لينين يحبّ أحداً، ولا حتّى نفسه»، عقّب أحدُهم بمرارة شديدة وهو يبتعدُ عن السّاحة الحمراء فـ«بغيابهَا الأبديّ ماتتِ الثورة».

(٢)
في مقهى بباريس

في بدايات القرن العشرين عرفتْ مدينة باريس توسّعاً معمارياً سريعاً، فعلى سبيل المثال لا الحصر، ومِنْ داخل قاعات مقهى دي مانيّور أو 'لاعبي الورق والشطرنج'، كانت تصلُ حادّة ومزعجةً أصواتُ ذاك الضجيج الصادر عن الأشغال المفتوحة في قلب المدينة آنذاك من أجل بناء محطة مترو بورت دو أورليان. هذا المقهى واسع ورحب، حارّ وصاخب، وهو مكتظ دائما بالزوار. إنّه المكان الذي يلتقي فيه المنفيون الرّوس، وهُم يحبّون الاجتماع هنا منْ أجلِ الحديث عن الأوضاع في الوطن الأمّ وتبادل الأخبار الجديدة فيما بينهم.

في إحدى الأمسيات الباريسية الربيعية الرطبة الماطرة، والدافئة المفعمة بالحياة من عام ١٩٠٩ دخلت إلى هذا المقهى امرأة، وجلست في إحدى صالاته الصغيرة التي كان يتنازلُ عنها ربُّ المكان ليقيم فيها الرُّواد المنفيون اجتماعاتهم مقابل مايستهلكونه من طلبات متواضعة الثمن.

هذه هي المرّة الأولى التي تزور فيها إينيسّا هذا المقهى، لم تكن لوحدها، وإنما كانت معها صديقتها التي تعرف المكان جيدا وكذا الرجال الذين يرتادونه.

حينما دخلت إينيسّا قلقة ممّ حولها وبرأسها ألف سؤال، لمحت رجلا يتحدث بحرارة وانفعال شديدين. كان يتحرّك يمنة ويسرة، ويتوقف من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حين لآخر وقد ضمّ ذراعيه إلى صدره، ليعود من جديد إلى تحريك رأسه تارة نحو الأعلى وتارة نحو الأسفل، أو إلى الصمت تماما لبضعة هنيهات متكئا بجسده على الباب ليراقب جمهوره الذي ينصت إليه باهتمام شديد، ثم يبدأ مجددا في الحديث بصوت حماسي.

إنه بصدد مناقشة قضية إنشاء مركز يعتني بشؤون المهاجرين، وكذا الوضعية الحساسة والصعبة التي أصبح يعيشها الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي والذي انسحب منه العديد من الأعضاء وغادره الكثير من المساندين، فضلا عن الهدنة التي فُرضت فرضا على البلاشفة ليصلوا إلى اتفاق مع المناشفة، اضطروا إلى قبوله على مضض. رواد تلك الصّالة كانوا ينصتون إليه باهتمام شديد. إينيسّا عرفت من يكون الرجل الخطيب وإن كانت هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها.

في الماضي القريب كانت إينيسا قد قرأت في سويسرا كتاب (تطور الرأسمالية في روسيا)، وقد سحرها أيما سحر لدرجة أن القضية البلشفية أصبحت قضيتها الرئيسة، ولكنها لم تكن تعلم أنها في يوم من الأيام ستلتقي بالرجل الذي أقنعها من خلال كتابه هذا باعتناق البلشفية. في تلك الليلة بمقهى دي مانيّور رأته روحا وجسدا أمامها. إنه فلاديمير إيليتش أوليانوف، المُسمّى بلينين. يبلغ من العمر أربعين سنة، وكما سبق وأخبرها عنه كل الروسيون الذين التقت بهم، ثمة شيء واحد يشغل باله ويعيش من أجله: الثورة.

إينيسا تبدأ في النظر إليه بنوع من الفضول، وتخلص إلى أنه، غير عينيه الضيقتين اللامعتين الثاقبتين والمُشَكِّكتين في كلّ ماحوله، لا شيء فيه يشدّ

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الانتباه حقا: مُهْمِل في الاعتناء بهندامه، سرواله طويل جدا، وفوق رأسه الأصلع لم تبق سوى بضعة خصلات حُمر. صحيح أنه يبدو كمزارع روسي، لكن لا شيء فيه يوحي بصفات الرجل الثوري الرومانسي، حتّى أنه ليس باللطيف أبدا، فهو لا يبتسم، ولا يحاول معرفة إذا ماكان جمهوره يوافقه الرأي أم لا فيما يقول، إنه لا يركز سوى على أفكاره. لكن يبقى أسلوبه في الكلام جذابا وممتعا للغاية!

لم تكن إينيسّا وحدها من تراقب لينين، هو أيضا انتبه إلى وجودها، إنها امرأة لا يمكن ألا تثير انتباه من حولها في هذا المقهى، فهي تتميز عن جميع رواده في كلّ شيء: لون عينيها الواسعتين أخضر فاتح يميل إلى الرمادي شيئا ما، قامتها طويلة، وجهها رقيق، وقبعتها أنيقة جدا وتظهر من تحتها بعض من خصلات شعرها الكستنائي الناعم، أمّا فستانها الباريسي فليس بالباهض الثمن، إلا أنه أنيق للغاية.

حينما انتهى الاجتماع وأنهى لينين مناقشاته الساخنة، تقدّم إليه أحدهم وإلى جانبه إينيسّا ليعرّفهُ بها، وفي لحظات التقديم هذه شعر الاثنان معا بأن ثمة أشياء كثيرة تجمع بينهما، وكثير من القصص التي سيتبادلانها ويتناقشانها فيما بعد؛ كمثلا التوقعات المحتملة عن مصير الثورة في أرضهما البعيدة، والأخبار التي تأتي من هناك، والوضعية السياسية الأوروبية وكذا مستقبل الديمقراطيين الاشتراكيين، دون نسيان الكتب التي يدمنان قراءتها، فلقد اكتشفا للتوّ أنهما يحبّان معا كتابات نيكولاي شيرنيشفسكي صاحب (ما العمل؟)، وهو الكتاب نفسه الذي استلهم لينين منه عنوان إحدى مقالاته الأكثر شهرة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

لا أحد منهما تحدّث بشكل مسهب عن حياته الخاصة، ماعدا الإشارة لبعض من الشذرات الخفيفة والتي كانت كافية جدا لأول لقاء تعارفي بينهما، والمهمّ في كلّ هذا هو أنّ لينين قبل أن يتمّ تقديم إينيسّا له، تلقّى من أحدهم همسا بعض المعلومات الطفيفة عنها.

حَيّتْ إينيسا الجمع وودّعت لينين بلطف، ثم غادرت المقهى. في تلك اللحظة خُيّل له أن مغادرتها كانت مفاجئة، لكنه لم يفقد الأمل في لقائها مرّة أخرى. بهذه الأمنية الجميلة حيّا هو الآخر الأصدقاء وغادر المكان قاصدا بيته الصغير في شارع بونييه حيث تنتظره زوجته.

ناديا رفيقة درب شغوفة، تعتني به وتهتمّ بكل شؤونه الصغيرة والكبيرة، وهي منذ سنوات عدّة تتفهمه وتسانده. صحيح أنها حاضرة دائما إلى جانبه حينما تشتدُّ ليلا آلام رأسه وتتفاقم كوابيسه التي تلاحقه باستمرار، لكن نفسُه تحدثه الآن وهو يمشي بخطى سريعة إلى البيت بأنّ ليلتهُ هذه لن تكون رحيمة به، وأنه سيرى فيها ما لا يسرّ أبدا من الكوابيس المرعبة، لذا، فمن الأفضل له أن يبدأ في العمل بعد الوصول مباشرة، فهناك العديد من الرسائل التي عليه أن يكتبها. وليس بالأمر البعيد أبدا أن تقابله ناديا بالاحتجاج وتطالبه بالاستراحة من عناء العمل، أجل، فهي عادة ما تلحّ عليه في دعوته إلى أخذ قسط من الراحة دائما.

في أمسية اليوم اللاحق، كانوا كلهم هناك في مقهى دي مانيّور ما عدا إينيسّا، ممّا حدا بلينين إلى السؤال عنها، إلا أنهم أخبروه بأنها سافرت ربّما لتلتحق بأبنائها في مكان ما بأوروبا. لم يكن الجواب كافيا بالنسبة لفلاديمير إيليتش، لذا فإنه استمرّ في طرح أسئلة أخرى مدفوعا بالرغبة في معرفة المزيد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عنها، لا سيما وأنه يعرف بأنّ مثل هذه المسألة لن تكون بالمستحيلة بتاتا، فالأصدقاء الروسيون من الأقليات المنفية هنا، والذين يجتمعون إما في مقهى دي مانيّور أو في مقرّ جريدة «الاشتراكية الديمقراطية»، يحبّون الخوض في العديد من القضايا والشؤون، فهم يعرفون كل شيء عن بعضهم البعض، ويكفي أن تسأل أحدهم عن شيء ما ليُجيبكَ بالتفصيل المملّ أيضا.

استغرب لينين كثيرا حينما علم بأن إينيسّا تبلغ من العمر خمسا وثلاثين سنة، فقد اعتقد لأول وهلة أنها أصغر من ذلك بكثير. قيل لهُ أيضا إنها تزوجت سنة ١٨٩٣ في بوشكينو، أيْ حينما كانت تبلغ من العمر تسعة عشر سنة.

ستيفان هو اسمها العائلي، أما اسمها الشخصي فهو إليزابيت وليس إينيسّا. اكتشف لينين أيضا أنها الابنة غير الشرعية لشخصيتين من عالم المسرح؛ والدها هو مغنّي الأوبرا ثيودور ستيفان، أمّا والدتُها فهي المُمثّلة نتالي وايلد. وقد وُلدت إينيسّا في باريس وانتقلت بعد سنوات قليلة من ولادتها إلى العيش في روسيا مع جدتها وخالتها. عن أسباب هذا الانتقال المفاجئ ثمة روايتان: الأولى تُصوّرُ إينيسا كطفلة فقيرة اضطرت إلى مغادرة باريس بعد وافاة والدها، لأنّ أمّها أمام الضائقة المالية التي أصبحت تعيشها لم تكن لديها الإمكانية لإعالتها بناتها الثلاث، فارتأت أنه من الأفضل إرسال إينيسّا إلى موسكو حيث ستعتني بها خالتها التي تمتهن التدريس، وذاك ما كان بالفعل، فالخالة أخذتها مباشرة لتعيش معها في بيت عائلة أرماند الذي تلقت في كنفه الطفلة الباريسية أصول التربية الحسنة، مثلها مثل باقي أطفال وجهاء أُسَر موسكو الثرية.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أمّا الرواية الثانية فتحكي عن إينيسّا كطفلة تنتمي منذ ولادتها إلى عائلة بورجوازية حقا، وإن كانت ليست بنفس ثراء عائلة أرماند الباذخ، فهي لها مكانتها بين أُسر النبلاء الروسيين من أصل فرنسي والذين كان لهم شأن كبير في مجتمع روسيا القرن التاسع عشر.

حتّى جدّ إينيسّا كان من أعضاء أسرة التعليم الروسية، رحل باكرا وترك خلفه زوجته أرملة اعتنت بالحفيدة أيّما اعتناء ومنحتها التربية الحسنة هي والخالة وكذلك عدد لا يستهان به من الأساتذة والمعلّمين.

كانت إينيسا تتحدث أربع لغات، وكانت أيضا قارئة نهمة، وعازفة بيانو بارعة. الأصدقاء المنفيون يتحدثون بصخب، كل واحد منهم يروي قصة تختلف عن الأخرى، وكلّ منهم يعتقد أنه يملك بعضا من الحقيقة عن المرأة التي ظهرت فجأة مساء أمس في المقهى. فلاديمير إيليتش يستمع إليهم جميعا، لكنّ فكره يبتعدُ فجأة عن المقهى: هل سيلتقيان مرّة أخرى؟!

(٣)
طفلة في موسكو

وُلدتْ إينيسّا في ٨ أيار ١٨٧٤ بباريس، حيّ «مونتمارتر»، شارع «لا شابيل». لمْ تحظَ الصغيرة بطفولة بورجوازية مريحة بحُكم حياة والديها الفنية، واللذان لم يتزوجا إلا بعد قدومها بأشهر قليلة. ولقد عاشت معهما منذ البداية حياة الترحال والتجوال والعروض الفنّية التي كانا يقدمانها فوق خشبات مسارح مدن عديدة ومتفرقة، مما جعلها لا تنعم بالهدوء والسكينة وسط تلك الأجواء البوهيمية والفوضوية التي كانت تطبع حياة والديها ثيودور ونتالي.

وحينما بلغت الطّفلة خمسة أعوام تغيّرت حياتها رأسا على عقب، لأنّها اضطُرّت إلى هجر والديها وأختيها الصغيرتين وباريس كلها، لتذهب للعيش مع خالتها صوفي وجدّتها في موسكو كما أرادت لها والدتها، لاعتقاد هذه الأخيرة بأنها هناك ستعيش عيشة أفضل وأهنأ، وستتلقّى على يديْ جدّتها وخالتِها أحسن وأقْوَم تربية بالمقارنة إذا ما بقيت مع أبوين مسرحييْن فقيرين. هذا التغيير المفاجئ في حياة إينيسّا كان بسبب الضائقة المالية التي أصبحت تعيشها الأمّ، وكذا بسبب تفاقم المشاكل بين هذه الأخيرة وزوجها الذي لمْ تعُدْ تثقُ به كما كانت تفعلُ في الماضي القريب. ولقد «تألّمَ الأبُ بشدّة وعانى كثيرا من رحيل طفلته» حسب ما رواه لاحقا جورج بزْدَويل كاتب السيرة الذاتية الخاصّ بإينيسّا التي «لمْ تنسَ والدَها أبداً، وظلّت حتى بعد عشر سنوات من الفراق تحتفظ بصورته فوق مكتبها».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لم تكن الجدّة والخالة على قدر فاحش من الثراء، ولكنهما كانتا غنيّتين بالشكل الذي يسمح لهما والحفيدة إينيسا بحياة كريمة، لا سيما وأنهما كانتا تعيشان من عملهما ومدخولهما الشخصي وكذا ممّا ورثته الجدة عن زوجها الراحل. كما كانتا تخالطان المجتمعات الراقية والأسر ذات الأصل الفرنسي التي كانت تمثل آنذاك في موسكو الطبقة البورجوازية النبيلة.

قضت إينيسا الجزء الأول من طفولتها سعيدة في كنف الجدة والخالة اللتين كانتا تدلّلانها وتحبانها حبّا جمّا دون التفريط أبدا في تربيتها بحزم وجدّية متناهيين، فخالتها صوفي التي كانت أستاذة متمرسة في الموسيقى علّمتها العزف على البيانو حتى أصبحت من العازفات الماهرات لدرجة أن أحدهم شبّهها بالموسيقي الشهير سفياتوسلاف ريختر. أمّا جدّتها التي كانت زوجة لأستاذ مرموق فقد عملت على توجيهها نحو قراءة الكتب الجيّدة. وبحكم أصولها العائلية، فإنّ الصغيرة نشأت وهي تتحدث اللغتين الفرنسية والإنجليزية بطلاقة كما تعلّمت بسرعة شديدة اللغة الروسية في موسكو وكذا الألمانية. وأمام كل هذه المجهودات التي بذلتها الجدّة والخالة يمكن القول بأن إينيسّا تلقّت تربية راقية تستحقها كطفلة بورجوازية يتمُّ إعدادها لأن تصبح هي أيضا أستاذة مقتدرة وكذا زوجة لأحد نبلاء روسيا.

هناك العديد من صور البورتريه التي التُقطَت لإينيسّا وهي بعدُ طفلة صغيرة، فمثلا تؤرّخ الصورة الأولى لمرحلة موسكو وتظهر فيها طفلة شقراء بنظرة ثاقبة وجادّة، وتلبس فستانا أنيقا وتحزم إلى الأعلى بعضا من خصلات شعر غُرّتها بفراشة منَ السّاتان، وتحمل بين ذراعيها كلبا صغيرا. أمّا في الصّورة الثانية فتبدو طفلة وديعة مع بعض من علامات التذمّر في عينيها وقد وضعت رأسها فوق كتف الخالة صوفي التي تُشبهها كثيرا في لون الشَّعْر وكذا في شكل الفم والأنف.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في الصّورة الثالثة تظهر إينيسّا واقفة بالقرب من جدّتها، وهي تسند ذقنها بكفّها. فستانُها قاتم، وفوق رأسها قبّعة صغيرة وتنظر كما العادة بحزم إلى الأمام.

كانت الخالة صوفي تحبّ أن تصطحب معها إينيسّا إلى بيوت الأسر النبيلة التي كانت تذهب للتدريس فيها، وكانت الطفلة تستجيب لها وتذهب معها بكل محبّة وأريحية. وعلى الرغم من طبعها الكتوم، إلا أنّها كانت مفعمة بالحياة وتعرف جيّدا كيف تتفاعل وتتعامل مع الآخرين. وإذا حدث أن استاءت من أحد ما فإنّها لا تحتجّ وإنّما تبتعد في صمت عن الجميع. لقد كانت تبدو عليها منذ الصغر طباعها القوية، وشخصيتها المتميزة وإن كانت من حين لآخر تتحوّل إلى طفلة عنيدة ومتقلّبة المزاج.

كانت عائلة أرماند النبيلة من بين الأسر العريقة التي كانت تزورها الخالة صوفي، وقد كان كل أفرادها من أصول فرنسية كالصغيرة إينيسّا، وكانوا يملكون مصانع كبيرة للنسيج يعمل بداخلها الآلاف من العمّال والموظفين المتوزعين بين المقرّ الاشتراكي المركزي في موسكو والمعامل المتواجدة ببوشكينو، وهي القرية التي مازالت تحتفظ لليوم ببعض من الآثار والذكريات الخاصة بعائلة أرماند.

تبعد قرية بوشكينو عن موسكو بثلاثين كلم، وبمتحفها الصغير توجد بناية من الخشب بها ثلاث غرف جُمعت فيها كل الأشياء التي تؤرخ لما كانت تعيشه هذه العائلة من مجد وثراء، حيث يمكن الاطلاع على العديد من الصور التي يظهر فيها أرباب المصانع مع العمّال، وكذا مع أفراد الأسرة الكبيرة والأبناء والأحفاد.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في بوشكينو يعيشُ كلّ مِنْ إيفجيني إيفجينليفيتش، الأخوان إيميل وأدولف، الأمّ، ثمّ الزوجاتُ والأبناء، مُشكّلينَ بهذا تجمّعاً عائليا كبيراً تفرّع فيما بعدُ إلى عشرات من الأفراد، تجمُّعاً بدأ يتمدّدُ ويتقلّصُ في الوقت ذاته: يتمدّدُ بولادات جديدة، ويتقلّصُ ليس فقط بسبب موت أحد أفراد هذه العائلة ولكن بسبب سفر العديد من أبنائها إلى المدن الأوروبية الكبرى بهدف الدراسة وتحصيل العلوم. لكن هذا لم يكن يمنع أبدا من عودة هذه الأسرة إلى التوسّع من جديد من خلال قدوم العديد من الأصدقاء والأساتذة من الخارج لمشاركة العائلة أفراحها وكذا أتراحها.

لعائلة أرماند بيت ضخم وجميل، تُزيّنُه واجهةٌ منَ الخشب العتيق المنحوت والمنقوش بزخارف بالغة في الدقة والفخامة. يتكوّن البيتُ من أربع بنايات كبيرة تلتحمُ مع بعضها البعض عبر سلسلة منَ الأنفاق والممرّات التي توجد بها شرفات رحبة تطلّ على حديقة شاسعة غاية في الجمال ودقّة التصميم. بيتُ عائلة أرماند بُنِيَ بهذه الطريقة حتى يسَع جميع أفراد الأسر المتفرعة عن العائلة الأمّ، ومن الممكن جدّا الزيادة في مساحته، وتصميم بنايات أخرى به كلّما تزوج شباب الأسرة وأتوا بأطفال آخرين يزيدون الأسرة بهجة وسعادة.

من بين الأنفاق التي كانت توصل البنايات الأربع فيما بينها ثمة نفق مركزي أصبح غرفةَ الأكل الكبيرة، وتتوسّطها طاولة بطول ستة أمتار. في هذه الغرفة كان يجتمع أفراد العائلة أثناء الغداء كما في العشاء، وكذا في مناسبات أعياد الميلاد؛ يستقبلون الضيوف، يستمعون للموسيقى، ويلتقون الأصدقاء والمعلّمين. وكان يوجد في خدمة المنزل الكبير أكثر من أربعين خادما يسهرون كلهم على نظام البيت، وإدارة شؤونه. وخارج الأسوار،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وبعيدا عن الحديقة الواسعة، والمزارع الخضراء الفسيحة، توجد مساحات شاسعة جدا من الغابات العذراء المُقدّسة وهي كلها لروسيا، الأمّ العظيمة.

الأب الكبير وربّ العائلة إيفجيني إيفجينليفيتش رجل ذو أفكار ليبيرالية، وزوجته هي فارفارا كارلوفنا، ولهما أحد عشر ابنا، يعيشون كلّهم في بيت كبير مفعم بالحيوية والنشاط، فالأبناء لا يكفون عن الحركة والضجيج والمرح، وهم تارة يدرسون وتارة أخرى يتخاصمون ويتعاركون. إينيسّا تعرفهم جميعا، فأليكساندر هو الابن البكر الذكر ويكبُرها ببضع سنوات، أمّا آنّا وماريّا فهما أختاه اللتان وُلدتا قبله بسنوات قليلة. وبعدهم جميعا يأتي كلّ من: فيرا، نيكولاي، إيفجينيا، بوريس، صوفيا، والتوأمان سيرجي وفارفارا، ثم أخيرا حبيب قلب والدته الابن الأصغر فلاديمير الملقّب بفولوديا.

هذه قبيلة وليست مجرد عائلة، وتسكن عمارات مشتركة لا بيتا بسيطا، إنها حقّا أسرة غريبة. ربّما قد تكون كذلك لمن ينظر إليها ويقيسُها بمعايير العصر الحالي، لكنها ليست كذلك بتاتا، إذا ما تمّ النظر إليها بعين العصر الذي كانت تعيش فيه معظم العائلات الثرية البورجوازية إبّان عهد روسيا القيصرية. ولا هو بالأمر الغريب أيضا أن يكون وسط نسيج هذه الأسرة شباب بأفكار وطموحات سياسية تقدّمية. صحيح أن رجال عائلة أرماند يملكون شركات كبرى وآلاف الهكتارات من الأراضي، إلا أنّ معظمهم ليبراليون بل فيهم أيضا الثوريون، لا سيما الشباب منهم الذين درسوا بأروبا الغربية وتأثروا بأفكارها الثورية ويعتبرون أنفسهم ماركسيين وإن كانوا ينادون كمُلاّك لوسائل الإنتاج بالسيطرة على هذه الأخيرة وعلى طرق توزيعها وتبادلها، وهذا لا يمنع من القول بأنّ رجال عائلة أرماند كانوا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يديرون شركاتهم بشكل في غاية الانفتاح والتنوّر، فهم غالبا ما كانوا يرحّبون بمطالب العمّال والفلاحين، ويتعاملون مع الشرطة القيصرية بالكثير من الحذر على الرغم من أنهم كانوا واقعا لا يحرّكون ساكنا أمام الجمود الإقطاعي للنظام المتعصّب تجاه أيّة محاولة للتغيير.

كان ربّ الأسرة وزوجته يحضران بكل ليبرالية وتسامح كلّ الاجتماعات والمناقشات الساخنة، ويشعران بعمق بكل ما يحدث داخل البيت من ذبذبات فكرية، ويتفهّمان الأسباب والدوافع، إلا أنهما لم يكونا أبدا يتخيّلان أنّ أبناءهم وأحفادهم أو حتى الأساتذة الذين كانوا يزورونهم في البيت يُمكنهم بشكل أو بآخر أن يقحموا أنفسهم في أشياء مخالفة للقانون! ولأجل هذا فإنّهم لمْ يشُكّوا ولو ليوم في أمر إيفجيني كامّير مثلا، الذي كان أستاذ بوريس الابن، وليف ابن عمّه. كان كامّير من المشاغبين السياسيين، يشيع الاضطرابات في المصانع، ويحرّض العمّال على الثورة وينظم الإضرابات، ويعطي فوق هذا وذاك لتلميذيْه النجيبين كتبا منعتها الرقابة القيصرية.

أجل، لا أحد كان يعلم شيئا عن هذه الأمور إلى أن حدثت في نيسان ١٨٩٧ حادثة ظلّت مخلّدة في تاريخ العائلة: فجأة حضرت الشرطة إلى البيت الكبير مُدّعية أن بين جدران هذا المنزل توجد مطبعة سرّيّة تتمُّ فيها طباعة المنشورات الثورية. واعتقادا من الأب المُسنّ إيفجيني إيفجينليفيتش أن الأمر كلّه عبارة عن دعابة مستحيلة سمح لرجال الشرطة بالبحث في البيت بكل أريحيّة ظنّا منه أنه هكذا سيتحققُ لهُ حلمُه القديم في أن يُظهر لهم بأن شكوكهم دائمة ليست في محلها وبأن طريقة وأسلوب عملهم غالبا ما تكون مدعاة للضحك والسّخرية!

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تمّت عملية التفتيش أمام الجميع، وكان الأبوان والخدم ينظران للأمر بمزيد من التهكّم، وقد كان يبدو كل شيء على ما يرام إلى أن وجد رجال الشرطة تحت بلاط إحدى الغرف منضدة سطرية وآلة للكتابة، وحُزما من الورق وكل ما يلزم لطباعة المنشورات السرّية. عندئذ اعتقلت الشرطة كامّير وبوريس وليف وبقي الأب أمام المشهد مندهشا وعاجزا عن الكلام، ولكن ليس عن الفعل أبدا، فبمجرد أن خرجت الشرطة من البيت هبّ الوالد لإجراء اتصالاته الخاصّة سعيا منه إلى تخليص الشبّان الثلاثة من هذه المشكلة العويصة، (على الرغم من أن هذه الواقعة لم تتوقف هنا لأنه تلتها بعد ذلك أزمات أخرى في حياة عائلة أرماند).

وحينما اعترف الأستاذ كامّير بمسؤوليته عن كلّ ما حدث، أُطلق سراح بوريس وليف اللذان لمْ يكونا قد تجاوزا بعد سنواتهما الخمسة عشر. ثم تلا بعد ذلك سعي عائلة أرماند الحثيث من أجل تحرير كامّير فسخّرت له العديد من كبار المحامين في روسيا، وحينما أفرج عنهُ ساعدته على الهرب إلى ألمانيا، وأرسلتِ الشابّين إلى الخارج مع تشديد الرقابة عليهما.

أمّا بالنسبة لإينيسّا والتي كان عندها فضول وشغف للتعلم والاطلاع على كلّ ماهو جديد ومثير منذ طفولتها وبدايات سنوات مراهقتها، فقد كانت هذه الأجواء كفيلة بأن تصبح مدرستَها التي لقنتها أولى مبادئ الحياة الاجتماعية والسياسية. فعائلة أرماند تعتبرُها واحدة منهم، حتّى أنها كانت تتابع مع الأبناء كل دروس الأساتذة، فضلا عن أنها كان لديها أصدقاء مقرّبين من شباب الأسرة المفعمين بالحيوية والحماس، لكن كان بالبيت الكبير شيء آخر يجذب اهتمامها بشكل أكبر وأعمق؛ إنها مكتبة الأب إيفجيني إيفجينليفيتش الرائعة، ففيها كانت تقضي معظم وقتها لأنها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سمحت لها بالاطلاع على أمهات كتب التاريخ والفلسفة والأدب الروسي، وبقراءة كُتب أسماء لامعة في عالم الفكر أمثال نيكراسوف، دوستويوفسكي، تولستوي وشيرنيتشيفسكي. إلا أنّ تولستوي يبقى كاتبها المفضّل، ليس فقط بسبب رواياته العميقة، ولكنها معجبة أيضا بتعاليمه الأخلاقية، وأفكاره حول قضايا الوجود، وكذا بمواقفه تجاه المزارعين ومحاولاته الجادّة من أجل تحسين أحوالهم والرفع من مستواهم المعيشي عبر دعوته إلى تحرير الأقنان الفلاحين، ومراقبة أشكال العمل الجماعي مع السعي إلى تحقيق نوع من التوازن والوئام بين الإنسان والطبيعة.

على ضوء هذه المعطيات يمكن القول بأن إينيسّا عاشقة تولستاوية من الطراز الرّفيع، أيْ أنّها ممّن يؤمن بأفكار التيّار الطوباوي الذي كان له تأثير كبير في روسيا أثناء بدايات القرن العشرين. وعلى الرغم من أنّ تولستوي لم يكن من المتحمسين كثيرا لهذا التيار، إلا أنّ ذلك لم يمنع من أن يظلّ هذا الكاتب من أكثر الكُتّاب الذين كانوا يثيرون قلق النظام القيصري.

وتمرّ بضع سنوات أخرى ويحدثُ أن تقرأ إينيسّا في رواية (الحرب والسلام) عبارةً قلبت محبّتَها وشغفَها بفكرِ تولستوي إلى صدمة واستياء كبيرَيْن، فالرجل على الرغم من إبداعه في الحديث عن قصص حبّ الأمير أندريه، ووصف مشاعر بيير، إلا أنّه كتبَ عن ناتاشا وهي إحدى شخصيات رواياته أنّ أنوثتها لم تكتمل إلا بعد أن تزوّجت. وهي العبارات التي أثرت بشكل مريع في إينيسا المراهقة آنذاك والتي لم تكن قد تجاوزت سنواتها الخمسة عشر، لدرجة أنها لم تنسها أبدا فكتبت فيها بعد رسالة إلى ابنتها إينّا تقول فيها: «ما الذي كان يعنيه تولستوي؟ ألِكيْ تكتمل أنوثة المرأة عليها أن تتزوّج؟ لقد جلدني بسياط كلماته هذه يا عزيزتي!»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

(٤)

كلُ الزّيجات السّعيدة متشابهة!

في تشرين الأول من سنة ١٨٩٣، وبقرية بوشكينو، تمّ الاحتفال بعقد قران إينيسّا وأليكساندر أرماند داخل كنيسة سان نيكولا المشهورة بقبابها الكبيرة والزبرجدية اللون. مئات من الشموع تزين المكان وتزيد من بريق اللوحات والأيقونات الذهبية المعلقة على الجدران، أمّا إينيسّا وعريسها فكانا منهمكين في طقوس الزفاف الأرثوذكسي الفخمة والغرائبية: يدوران ثلاث مرّات حول المذبح، يشربان النبيذ، يضعان التيجان الذهبيّة فوق رأسيهما، ثم يستمعان باهتمام إلى صلوات وأدعية القسّ.

حضر الحفل كلّ أفراد عائلة أرماند الكبيرة، وقد كان عددهم يفوق السبعين شخصا، ومعهم حضر أيضا سكان القرية وكذا العمال والمظفون القاطنين في بيوت خشبية، بعضها يوجد قرب الكنيسة أو قرب مصانع النسيج، وبعضها الآخر بالغابات المجاورة.

كانت إينيسّا تبلغ من العمر تسعة عشر سنة، وبعد أن أكملت دراستها وتزامنا مع وفاة جدّتها انتقلت للعيش مع والدتها التي تركت باريس وعادت وبنتيها الأخريين إلى موسكو بعد وفاة زوجها. أليكساندر هو الابن البكر لعائلة أرماند التي كانت إينيسّا تداوم على زيارتها. يبلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة، وقد عاد منذ فترة قصيرة من فرنسا حيث كان يدرس الفيزياء والكيمياء، وتدرّب أيضا على ميكانيزمات صناعة النسيج.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حينما عاد الشابّ أليكساندر من فرنسا بعد غياب طويل، وجدَ الطفلة رفيقة اللعب والدروس قد أصبحت امرأة ناضجة، وبسرعة البرق وقع في حبّها. هو أيضا أصبح رجلا يافعا، وكان على قدر عال من اللّطف، والحِلْم الجميل، والإصرار والقوة. في صورة الزفاف يبدو رجلا هادئا يبحث عن الخير وحيثما وجده يزرع بذرته، وما من عبث يتحول عشقه لإينيسّا إلى الرغبة في إسعادها والسعي إلى كل ما يحقق لها الرّاحة والهناء من خلال قراره بالزواج بها. في مذكرات إينيسّا، يقول زوجها في كلمة افتتاحية وفقا لما تجري به العادات والأعراف عندهم: «ما عساني أكتبُ، سوى أنني أحبّكِ، وأنّكِ الحياة، والنّور الذي يضيء من حولي كلّ شيء، وأنت تعرفين هذا جيّداً. إنني لا شيء بدونكِ».

في فترة الخطوبة التي دامت قرابة سنة، كانت إينيسّا تشعر بنوع من الارتباك والحيرة. هي لم تجرّب الحبّ قطّ، ومشاعرها لم تزل متناقضةً ولا تعرف إذا كانت تحبّ أليكساندر أمْ لا، فهي لم تزل بعد شابّة في عمر الورود. وهاهي تكتب له في لحظة من لحظات حزنها قائلة: «هناك أشخاص أثق بهم أكثر من نفسي، لأني أعرف أنه حتى لو أصبحت في يوم ما من أكثر النساء قسوة وغلاظة فإنهم لن يخذلوني وسيحافظون على صداقتهم ومودتهم تجاهي، لكني أعتقد أنني إذا أصبحت شريرة فإنك لن تبقى صديقي. أعلم أنني بصدد قول شيء مُحْبِط، لكني أفضّل أن أكون صريحة على أن يظل زاحفا بيننا أيّ نوع من المشاعر السلبية». إذا كان أليكساندر يعرف جيدا طبيعة العلاقة التي يريد أن تربطه بإينيسّا، ويعلم يقينا نوع مشاعر الحبّ والعشق التي يحمل تجاهها، فإينيسّا ما زالت لا تعرف جيدا

أيّة حياة تريد أن تبني مع الرجل الذي أصبح زوجها، فالزواج بالنسبة لها ما هو سوى بداية أو خطوة أولى نحو مستقبل لم تتوضّح بعد معالمه أو ملامحه.

بعد الزواج حقق أليكساندر لعروسته رغبتها في عدم السّكن ببيت العائلة الكبير ببوشكينو، وانتقل بها إلى قرية إيلديجينو، لتعيش في منزل جديد خاصّ بها هو هدية زواجها. في هذا البيت وُلد ابنها البكر أليكساندر، وبعدهُ بسنتين وُلد فِيدُور، وبعدهما وُلِدتَا إينّا وفارفارا.

في السنوات التسع الأولى من زواجها، كانت إينيسّا تبدو مبتهجة كامرأة تعيش بداخلها ثلاث نساء: الزوجة السعيدة، الأم المُحبة التي تعتني بأطفالها الأربعة في القرية البعيدة المنعزلة، ثمّ إينيسّا الحقيقية التي لا يظهر منها للغير شيء.

«كلّ الزيجات السّعيدة متشابهة!»، يقول تولستوي في البداية المذهلة لروايته (آنّا كارينينا)، وسعيداً كانَ زواج أليكساندر وإينيسّا. في تلك السنوات لم تكن زوجة أليكساندر كما أشيع عنها امرأة ثورية تعيش حالة من الكبت أو القهر، ولكنها لم تكن تفكّر إطلاقا لا في الثورة ولا حتّى في الماركسية، كما يبدو جليا في إحدى رسائلها: «تحوّلي من اليمين إلى اليسار لم يكن نتيجة نوع من الحماس الشبابي، ولكنه كان تطورا عميقا وتدريجيا». كانت إينيسا تقضي ساعات طوال في اللعب مع أطفالها وسط الحديقة المحيطة بمنزلها. أمّا أمسياتها الطّوال فكانت تقضيها في القراءة أو كتابة رسائلها العديدة فوق ورق بدون هوامش كانت تحرص على اختياره بكل دقة وعناية. غير هذا يمكنُ تخيّلها وهي تستقبل الأقارب والأصدقاء، أو وهي تنتظر عودة زوجها من أسفاره الطويلة، أو تعزف لضيوفها مقطوعاتها

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المفضلة على آلة البيانو التي شدّد زوجها على أن تكون مرتّبة لأجلها في أجمل ركن من الصالون الكبير.

هذا وجه آخر من شخصية إينيسّا، ترينا إيّاه كامرأة تعاني من السّأم والرتابة، إلا أنها لا تريد أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام هذه الأجواء المملة والمُضجرة، لذلك قررت أن تذهب للعيش وزوجها أليكساندر في موسكو ولو لفترة وجيزة في بيت من البيوت العديدة التي تملكها العائلة هناك. وذاك ما كان بالفعل، فلقد استقرّ الزوجان بمنزل أنيق يوجد بحيّ أربات الرّاقي. وكان هذا التغيير الجديد كفيلا بأن تصبح معه إينيسّا امرأة ثانية، تتجول سعيدة ومبتهجة بين شوارع أربات، وتذهب إلى مسرح بولتشوي، وكذا إلى الحدائق التي توجد قرب الكرملين.

كانت إينيسّا تبدو في غاية الأناقة على الرغم من حالات الحمل والوضع المتوالية. وأصبحت تزور الصالونات الراقية وتذهب إلى الحفلات الموسيقية وكذا إلى المسرح حيث تعرفّت هناك على العديد من الممثلين والكتّاب والفنانين وغيرهم من المثقفين ممّا ساعدها على استعادة شخصيتها المرحة والنشيطة التي لم يعد عندها أيّ استعداد للتنازل عنها حتى في اللحظات الأكثر حزنا وألما، وهي الشخصية التي أصبحت تعبّر عنها بشكل أكبر في سنوات موسكو من خلال ملابسها ذات الألوان الصاخبة، وتسريحات شعرها وفقا لآخر صيحات الموضة آنذاك، إضافة إلى ذاك القلم الأحمر الذي كانت تضعه دائما وسط خصلات شعرها الخلفية.

لم تكن تظهر من إينيسّا شخصيتها كأمّ عطوفة حنونة فقط ولا حتّى كسيّدة من سيّدات المجتمع الروسي الراقي، ولكن كانت هناك شخصية

ثالثة تكمّل صفاتها الأولى وتزداد كل سنة نموا ونضجا ورغبة في إفساح المجال لها أكثر وأكثر، إنها شخصية إينيسّا التي لا تطيق ما تراه حولها من مظاهر معاناة الناس ومكابدتهم اليومية للفقر والظلم الاجتماعيين الأمر الذي دفعها هي وزوجها وبقية عائلة أرماند الكبيرة إلى بناء مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين كما فعل سابقا كاتبها المفضّل تولستوي.

وهكذا بدأت إينيسّا تهبُ حياتها لفقراء ضواحي موسكو بكلّ ما فيها من نشاط وحيوية مهملة شيئا فشيئا التزاماتها وواجباتها تجاه المجتمعات الراقية، ولم يكن تصرّفها هذا بدافع حبّ الظهور أو الرياء، لا سيما أنه في تلك الحقبة كانت العديد من نساء الطبقة البورجوازية الروسية يقمن بالشيء نفسه من الأعمال الخيرية، إلّا أنّ إينيسّا كانت تتميّزُ عنهنّ بحماسها وحيويتها الفياضة التي كانت تزيد من عطائها وعملها وتضفي عليه نكهة خاصة من العمق والإخلاص والمحبّة تجاه الناس البسطاء والضعفاء. ولقد كان زوجها أليكساندر يدعمها في كلّ شيء ويجول معها الحقول بقرية بوشكينو ليعاينا معا وعن قرب حياة الفلاحين والعمّال محاوليْن إيجاد حلّ للمشاكل والصعوبات التي يواجهونها يوميا سواء في الحقول أو في معامل النسيج. ولربّما كان هذا الاهتمام والعمل المشترك السبب المباشر في تقوية رابط الزواج بين أليكساندر وإينيسّا.

خلال رحلاتها إلى موسكو كانت إينيسّا كثيرا ما تزور صالون مينّا كارلوفنا غوربونوفا كابلوكوف، وهي سيّدة بورجوازية ثرية وناشطة نسوية مشبّعة حتّى النّخاع بالفكر النسوي الراديكالي، وقد عرفت في التاريخ كذلك بالمراسلات العديدة المتبادلة بينها وبين إنجلز.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في صالونها الثقافي كانت معظم النقاشات تدور حول قضايا ومشاكل النساء، ولا سيما منهن الأقل حظا بين نساء المجتمع الروسي. وقد كانت قضية الدّعارة في كثير من الأحيان محطّ اهتمام مينّا كارلوفنا وكذا إينيسّا أرماند. ففي موسكو لوحدها يوجد ١٠٥ بيتا من بيوت الدعارة، وبداخلها تعيش كما السجينات ١١٧٨ امرأة، وهو أمر كان يقضّ مضجع إينيسّا بشكل ملحّ، فلقد كانت كثيرا ما تتحدث بشأنه مع زوجها وهما في طريق عودتهما إلى إيلديجينو، وتحاول معه إيجاد حلّ لهذه الكارثة الاجتماعية الشائكة. فثمة برأيها الكثير من الأفكار التي يمكن تطبيقها على أرض الواقع، كإنشاء مكتبة أو تأسيس جريدة أو منظمة نسائية أو بناء مدرسة خاصة بهذه الشريحة المعذّبة من المجتمع الروسي. وفي إطار الحديث دائما عن قضايا النساء علمت إينيسّا بما يحدث في أوروبا من صحوة نسائية تمثلت في انتفاضة النساء المصوّتات (السوفرجيت) وخروجهن إلى السّاحات للمطالبة بحقّهن في التصويت، ممّا دفع بإينيسّا إلى الاتصال بأمينة سرّ الاتحاد العالمي للنساء التقدميات بلندن من أجل إنشاء جمعية في روسيا مشابهة لجمعية النساء المصوتات، إلا أنّها لم تفلح في هذا الأمر، ولم تتمكن كذلك من تأسيس مدرسة «الأحد» التي كانت ترجو أن تصبح مشروعا حقيقيا يدعم النساء سجينات بيوت الدّعارة. ولم يكن فشل إينيسّا بسبب معارضة الحكومة لمشاريعها، أو رفض البوليس القيصري لها، بل على العكس من ذلك، فلقد حصلت على التصريحات والدّعم اللازمين لتحقيق تطلعاتها. وتبقى النساء أنفسهن هنّ السبب الرئيس لما منيت به مشاريع إينيسّا من عرقلة وإحباط، ذلك أنهن كنّ مُقلّات في المشاركة، فضلا عن تراجع

الكثيرات منهنّ وعدم تفاعلهن مع ما كانت تحمله وتبشّر به إينيسّا من أفكار. وبعيدا عن حياة النقاشات الخيالية الوردية المتداولة داخل الصالونات البورجوازية، كان المجتمع الروسي مازال غاطّا في التخلف ويعاني في صمت من شتّى مظاهر الحيف والتهميش لدرجة أنّ إينيسّا باتت تعتقد ـن تولستوي كان محقّا حينما قال: «منذ أيّام موسى والدعارة موجودة، وبقيت كذلك حتى بعده، وستبقى إلى الأبد».

أمام هذه الإحباطات قررت إينيسّا أن تبتعد عن حياة الصّالونات، وتعود من حيث أتت، لتكمل حياتها كأمّ وزوجة مع الحفاظ على عادة السّفر إلى موسكو كلّما سمحت ظروفها بذلك. إلا أنّها سرعان ما بدأت تشعر بثقل الوحدة والفراغ يزحف شيئا فشيئا إلى حياتها، وقد دوّنت هذا الإحساس في مذكراتها قائلة: «إنّي تعيسة جدّاً». وحتّى سفرها إلى سويسرا للالتحاق بابنها الذي كان في حاجة لعنايتها وعطفها لم يكن كفيلا بطرد شبح الحزن والعزلة عنها بل على العكس من ذلك فقد كان قلقها يزداد كل يوم أكثر فأكثر، وأصبحت تتمنى العودة إلى روسيا علّها تستعيد هناك هدوءها وطمأنينتها كما يبدو في هذه الكلمات التي كتبت في إحدى رسائلها لزوجها أليكساندر: «عزيزي، كلّ شيء رائع هنا، لكنّي أعتقد أنني سأكون أكثر سعادة إذا ما عدتُ إلى إيلديجينو».

ثمّة شيء بصدد التطوّر والتحوّل في حياتها التي عاشتها إلى اليوم، لم يعُد يعجبها أيّ شيء على الإطلاق، إنّها تفكّر في دراسة الكيمياء والعمل ضمن جمعية العمّال الخاصّة بمعامل عائلة أرماند، وتفكّر أيضاً في امتهان الكتابة وفي أشياء كثيرة غيرها، وكأنّ زوجها العاشق وأبناءها الأربعة الذين تحبّهم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للغاية، ومظاهر الجاه والثراء وغيرها من مجدٍ وعزٍّ، كلّ هذا لم يعُد يسدّ ما تشعر به من فراغ، ولا أدلّ على ذلك ممّا كتبته في مذكراتها من كلمات قائلة: «لا أحد سعيد بما لديه، وإنّي لأعتقد أنّ حتّى سندريلا وإنْ تزوّجت بأميرها المحبوب، أصبحت تفكّر بعد حياة البذخ في أشياء أخرى غيرها». وإينيسّا كسندريلّا، لم يجلب لها الثراء السّعادة، وأصبحت تبحث عنها في أشياء أخرى.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(٥)
«لا حُبّ بدون حريّة»

في خريف ١٩٠٢ تغيّر كلّ شيء. التقت إينيسّا بفولودْيا، أخ زوجها الأصغر، وهو طالب يبلغ من العمر سبعة عشر سنة، يدرس البيولوجيا، ويحلمُ بالثورة. أمّا هيَ فأمٌّ لأربعة أطفال، وتبلغ ثمانية وعشرين عاما. وتعرف جيّداً من هو فولوديا، لقد كان طفلا لا يتجاوز الثماني سنوات حينما تزوجت بأخيه الأكبر. ورأتْه بعد تلك الفترة لمرّات عديدة خلال أسفارها، وسكَنِهَا بأحد المنازل العديدة التي تملكها عائلة أرماند بموسكو، والتي كان يقيم بها أيضاً الطّالب الشابّ. آخر شيء كان من الممكن أن تفكّر فيه، هو أن تقع في حبّ فولودْيا، لكنّ هذا الأمر الذي كان يبدو مستحيلا، وقعَ حقّاً!

فولوديا شابّ وسيم، طويل القامة بعينين رماديتي اللون، وشعر ولحية شقراوين. وله نظرات عميقة تشعّ شجاعة وحزما لا يليقان إلا بشابّ روسي مثله. وهو صورة طبق الأصل لأليشا، أحد إخوة كارامازوف، كما يقول جورج باردويل مؤرخُ حياة إينيسّا، وكذا بعض من أقارب الشابّ وأصدقائه. وأليشا هذا كما كتب عنه دوستيوفسكي «لم يكن إنسانا متعصّبا، ولا حتّى صوفيا، ولكنه كان صديقا للنّاس جميعا، أتى في زمن مبكر وسابق لأوانه». وفولودْيا كان كأليشا، «يملك هبة جذب محبّة النّاس نحوه، ويتمتع بطبيعة ميّالة إلى البحث عن الحقيقة من وجهة نظره، وإذا صادف أن وجدها دعا النّاس إليها بكل ما فيه من قوّة وحماس». وتبقى الثورة الحقيقة الكبرى التي آمن بها فولوديا، وكان يدعو إليها بنفس حماسة الصوفيين وهم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يدعون الناس إلى الله وإلى طريق الأخلاق والفضيلة. ولعلّه بالذات هذا الجانب من شخصيته الميّال إلى كلّ ما هو مثالي ومطلق ومستحيل هو ما دفع به إلى احتضان ما منحه القدر بكل رضا وسعادة: عشق إينيسّا، زوجة أخيه الأكبر أليكساندر.

حكاية الانجذاب بينهما بدأت من خلال مشاعر الصداقة المتبادلة بينهما، وكذلك عبر سكنهما معا في البيت نفسه بموسكو، وكذا بسبب ما كان يجمع بينهما من ذكريات قديمة عن طفولته، وحياتها المبكرة بين أحضان عائلة أرماند الكبيرة. إلا أنّه ثمّة حدث أهمّ من كلّ هذا يمكن اعتباره الشرارة الحقيقية التي أشعلت نيران العشق بينهما معا: ففي ليلة من إحدى ليالي موسكو الهادئة عادت إينيسّا من المسرح ووجدت بالبيت فولودْيا منهمكا في الحديث مع مجموعة من أصدقائه الجامعيين، وما إن رآها حتّى ذهب لاستقبالها وأعدّ لها بكل لطف كأسا من الشاي. وبعد أن غادر أصدقاؤه البيت في ساعة متأخرة من الليل، التحق فولودْيا بإينيسّا، وأكمل معها السّهرة في الحديث عن أشياء كثيرة، وكانت هي تستمع إليه باهتمام شديد مسحورة بكل كلمة كان ينطق بها.

كثيرة هي الأفكار المشتركة التي تجمع بينهما، وكلاهما يحلمان بالقيام بشيء مهمّ وعظيم من أجل بلدهما، وقد بدأ فولودْيا حقّا مسيرة تجاربه السياسية الأولى بحماس شبابي منقطع النظير إلّا أنّهُ لا يعرف أيّها أفضل؛ الانضمام إلى الحزب الاشتراكي الدّيموقراطي أمْ إلى الحزب الاشتراكي الثّوري؟ هذا عن فولودْيا، أمّا إينيسّا فقد كانت تعرف جيّداً بأنّ تلك الأشياء التي حققتها أو حاولت إنجازها لم تكن تختلف في شيء عن تلك الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها العديد من نساء الطبقة البورجوازية،

وعليه أصبح لزاما تغيير هذا المنهج الذي سلكته في حياتها ولسنوات طوال. لقد أصبحت إينيسّا على قناعة تامّة بأنّ ما يحتاجه الشعب هو شيء آخر يختلف تماما عن مبادرات العطف والإحسان، إنه في حاجة إلى طرق أكثر عمقا وجدّية.

طالت فترات إقامة إينيسّا بموسكو، وأصبحت الأيام التي كانت تقضيها بإيلديجينو قصيرة وخاطفة. لقد اكتشفت أنّ بيتها الكبير في الغابة الروسية يضجُّ بالمرضعات والخدم، وهي فيه زوجة وأمّ لأربعة أبناء، وكلّ هذا لم يعُد يكفيها أو يجلب لها السّعادة، بل أصبحتْ لا تطيقه وتحوّلت إلى امرأة عصبية المزاج وكثيرة التأفف. لأجلِ هذا قرّرت فجأة أن تقطع الصّلة بكلّ شيء لا يعجبها، أو كانت تتحمّله سابقاً مُرغمةً أو على مضض، فقد كانت تقوم بالشيء نفسه حينما كانت طفلة ولا ترى مانعا في أن تفعله أيضا الآن وهي سيّدة ناضجة.

من هذا المنطلق بدأت تتحدث أمام الملأ عن مللها الشديد، وعن عدم رغبتها في استقبال أصدقائها الذين كانوا بالنسبة لها وإلى وقت قريب ضيوفا أحباء كراما أعزاء، وليس هذا فحسب بل بدأت أيضا تخرج ليلا للتنزه لوحدها ولساعات طوال بين أحراش غابة القرية، ولم يعُد ينفع معها شيء على الإطلاق، ولا حتّى توسّل زوجها واستعطافه لها وهو الذي لم يدخر جهدا في محاولة فهم ما الذي بصدد الحدوث لها، إلا أنّه كان يصطدم دائما بجدار صمتها وحزنها الدفينيْن.

في بيتها بإيلديجينو بات الكلّ في ترقّب وخوف عليها: الأصدقاء والأقارب والخدم أيضا، إلى أن قررت أخيراً أن تخرق حجاب الصمت

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وتبوح لزوجها بقصّتها مع فولودْيا؛ مرّة أولى لوحدهما، ومرّة ثانية بحضور فولودْيا نفسه.

اعتراف بهذا الشكل كان من المفترض أن تليه مشاحنات وخصامات دامية بين الأخوين، لكن لا شيء من هذا وقع، والقصّة على غير المعتاد أخذت منحى آخر مختلفا تماما، فلقد بدأت بين الثلاثة جلسات حوار مطوّلة، تتخللها الدموع أحيانا والاعترافات الصريحة أحيانا أخرى، لأنّ كلّ واحد منهم كان يحاول أن يشرح وجهة نظره، الأمر الذي شجّع الأخوين على التمسك برباط الأخوة وعدم تحويله إلى عداوة مقيتة. أمام هذا الموقف النبيل شعرت إينيسّا بالذنب، واعتذرت من الأخوين معا، خاصة وأنها لا تريد أن تفقد ما بقي في قلب زوجها من احترام ومودة تجاهها. أمّا فولودْيا فبقي مشتّت الذّهن بين حبّه لأخيه وعشقه لإينيسّا. وأمام هذه المستجدّات في حياة الابن الأكبر أليكساندر، لم تبق عائلة أرماند الكبيرة بعيدة عن القضية، وإنّما حاولت هي الأخرى مساندة كلّ الأطراف الثلاثة مع مطالبتهم بالإيضاحات والشروحات الكافية، وفي الختام قرروا جميعا أن تبقى إينيسّا بينهم، فهي قبل كلّ شيء واحدة منهم وليس من اللائق أبدا التخلي عنها هكذا وبكل بساطة.

يبدو الأمر وكأنه قصّة خرجت من بين صفحات رواية (مالعمل؟) لصاحبها نيكولاي غافريلوفيش شيرنيشيفسكي والتي ألّفَهَا سنة ١٨٦٣ في مدينة سان بطرسبورغ ومن داخل أسوار قلعة بطرس وبولس حيث كان سجينا هناك، لأن البوليس القيصري كان يعتبره من المعارضين الأكثر خطورة ضدّ النظام.

ما إن صدر كتاب (مالعمل؟)، حتّى أصبح معروفا ومنتشرا بين الأوساط الثقافية الروسية لا سيما لدى المثقفين أصحاب التوجهات التقدّمية المتأثّرين برياح التغيير والإصلاح القادمة من الغرب. ويبدو أن كلّا من أليكساندر وإينيسّا وفولودْيا، كانوا هُم الآخرين متأثرين في طريقة معالجتهم لمشكلتهم الشائكة تلك بالنماذج الإنسانية الجديدة التي طرحها غافريلوفيش في روايته عن الحبّ والصّداقة، فهم أيضا يعتقدون «ألّا حبّ بدون حرّية»، بالضبط كأبطال الرواية الثلاثة؛ فيرا بافلوفنا، وديميتري لوبوخوف، وأليكساندر كيرسانوف!

وإينيسّا أمام كلّ هذا لم تشعر أبدا بأنّها مجبرة على فعل شيء ما لإنقاذ ما تبقى من زواجها المتحطّم، ولا حتّى فولودْيا كان ينوي الدّخول في منافسة مع أخيه. أمّا أليكساندر وعلى الرغم من معاناته المريرة فقد حاول تفهم الأمر ومسامحة الاثنين؛ أخا وزوجة. لكن حدث ما غيّر مجرى كلّ الأحداث، لقد حبلت إينيسّا من فولودْيا، واضطرّ أليكساندر إلى الاعتراف بالمولود الجديد كابن له ضمن عائلة أرماند الكبيرة، وإلى جانب هذا قرر أنه ما إن يبلغ أطفاله سنّا معيّنة تسمح لهم بتمييز الأمور فإنه سيخبرهم بقصة حبّ أمّهم لخالهم فولودْيا.

اقترب موعد الوضع، وسافرت إينيسّا في شهر تمّوز إلى سويسرا لتُجنّب زوجَها فضائح أخرى هو في غنى عنها، وتتجنّب كلام الناس والمجتمعات الروسية البورجوازية. فضلا عن أنّها كانت في حاجة ماسّة إلى إعادة ترتيب حياتها، فهي مازالت لم تتخلّص من مشاعر المودّة تجاه زوجها أليكساندر، ولا هي قادرة في الوقت ذاته على التخلي عن عشقها لفولودْيا، ولا حتّى عن التزاماتها كأُمّ تجاه أبنائها، وكمواطنة تجاه مستقبل روسيا. إنها بحاجة أكثر

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى الهدوء والسلام لتصبح أكثر قدرة على التفكير السليم وعلى اتخاذ القرارات الصّائبة.

في سويسرا بدأت إينيسّا تخرج للتنزه من حين لآخر بين أحضان الطبيعة الخلابة، وكانت حريصة أيضا على قراءة الكتب التي كانت تذهب لاقتنائها من مكتبة كوكلين الروسية حيث كان يلتقي العديد من المهاجرين الرّوسيين الباحثين ليس فقط عن الكتب وإنما أيضا عن جوازات السّفر. في هذا المكان، كانت إينيسّا تتابع بعضا من محاضرات لوناشارسكيي، وهو شابّ روسي كانت تعتبره من القلائل الذين كان همّهم الأكبر، الخروج بروسيا من ربقة الاستبداد القيصري.

في أيّار ١٩٠٤، قررت إينيسّا العودة. ركبت القطار المتجه إلى موسكو هي وأبناءها الأربعة وكذا وليدها الجديد والخدم والمرضعة. وكما يليق بسيّدة بورجوازية مثلها، استقرت في مقصورة من الدرجة الأولى بعيدة عن أعين الشرطة والمراقبين وما إليهم، لكن مظاهر ثرائها هذه لم تشفع لها بشيء، فقد حدث خطأ ما جعل الشرطة تقف طويلا في مقصورتها وتفتش حقائب الأطفال والمرضعة، لكنّها ولحسن الحظ لم تعثر على شيء، ففي أسفل الحقائب كانت توجد طبقات سرّية عريضة ومبطّنة بشكل جيّد خبّأت فيها إينيسا العديد من الكتب الممنوعة ونسخ عديدة من «الشرارة» (الإيسكرا) وهي جريدة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي التي أسّسها كلّ من لينين وبوتريسوف. لقد كان تهريب هذه الكتب أوّل حركة من إينيسّا نحو حياة جديدة قررتْ أن تهبَها وتُخصّصها للثورة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(٦)
في سجن القيصر

«مرّت سنة على واقعة التفتيش الذي حدث في القطار، واليوم وفي الصّباح الباكر من شهر شباط لسنة ١٩٠٥ استيقظتُ في بيتنا بموسكو على ضجيج رهيب: لقد كانت الشرطة في غرفتنا، وكلّ شيء بداخلها مقلوبا رأسا على عقب بما في ذلك أسرّة إخوتي، أمّا والدتي فقد كانت واقفة بالقرب منّا وتحاول الحفاظ على هدوئها وابتسامتها مشيرةً لي بإصبعها بعدم البكاء، إلّا أنّ ذلك لم ينفع في شيء، فقد انخرط الطفلان الأصغر سنّاً في البكاء بصوت عال، في حين كنت أنا في حالة ذهول كامل، ولم أستوعب حقيقة ما الذي كان بصدد الحدوث»، هكذا تتذكّرُ إينّا، ابنةُ إينيسّا ذاك اليومَ الذي اقتحمت فيه الشرطة البيت الذي كانت تقيم فيه والدتها وخالها فولوديا وكذا الشابّ فانْيا، وهو أحد أبناء الخدم، وقد تكفلت عائلة أرماند بتربيته وتعليمه منذ نعومة أظافره، وحينما أصبح شابّاً يافعاً انتقل إلى موسكو لإكمال تعليمه الجامعي، ولقد استضافته إينيسّا ليساعدها في عملها السّياسي السرّي.

كانت الشرطة تبحث عن السّلاح وأشياء أخرى غير قانونية، ولقد وجدت ضالّتها في غرفة فانْيا التي كانت تضجّ بالمنشورات والكتب الممنوعة، أمّا في غرفة إينيسّا وفولودْيا فقد تمّ العثور على مسدّس وبضع رصاصات قيل إنّهما لفانْيا، وهو بحكم عضويته في الحزب الاشتراكي الثّوري يمكنه حوزة السّلاح وكذا المتفجّرات، أمّا إينيسّا وفولودْيا، فحزبهما الاشتراكي الدّيمقراطي لا يسمح بذلك أبدا. لكن هذه التبريرات الواهية لم تنفعهم في شيء، ذلك أنّ الشرطة اعتقلت الثلاثة معاً، وقبل الخروج همستْ

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إينيسّا لابنتها إينّا: «لا تخبري أيّ أحدٍ بتاتاً بأمر اعتقالي»، والطفلة كانت في مستوى الوصيّة، وكتمت السرّ عن الجميع.

قبل إلقاء القبض عليها، كانت إينيسّا تركّز كلّ جهودها على تنظيم الاجتماعات والحلقات التعبوية من أجل التعريف بأفكار زعماء الثورة في المنفى عبر توزيعها للكتب والمنشورات التي هرّبتها من سويسرا. في تلك الفترة كان كلّ شيء بموسكو في تصاعد مستمرّ، والرغبة في قلب النظام القيصري باتت معلنة للجميع، ممّا دفع بالشرطة إلى الرّفع من حدّة العنف وتشديد المراقبة على الجميع، لدرجة أنه حتّى فانْيا لم يفلت من موجات العنف القيصري، فقد عاد ذات ليلة إلى البيت غارقا في دمائه إثر الاشتباكات التي وقعت بين الشرطة والمتظاهرين في الشوارع: «ليست ثمّة كلمات أصف لك بها خوفي، ولن يستطيع أبناؤنا نسيان كلّ هذا أبدا»، كتبت إينيسّا في إحدى رسائلها لأليكساندر.

لم يكن تخوّف النظام وقلقه نابعا من فراغ، بل مبنيا على حقائق واقعية وبادية للجميع، فنيران التمرّد والعصيان أصبحت منتشرة في كل أنحاء روسيا. وفي سنة ١٩٠٤ ارتفع عدد المظاهرات المنظمة وسط السّاحات الكبرى، وأُغلقت المصانع لفترات متقطّعة، وخرج الطلبة إلى الشوارع في مواكب ضخمة، وشارك عمّال السكك الحديدية في حركة الفلاحين الثورية، واستمرّت الأوضاع في الغليان حتى سنة ١٩٠٥

وتبقى الحرب وتداعياتها السبب الرئيس في غضب الجماهير، فروسيا وإن كانت تملك أسطولا حربيا ضخما تحاول أن تستميل به الشعب وتكسب تأييده لمواقفها العسكرية في حربها ضدّ اليابان، فإنّها لم تستطع الصمود طويلا وأصبحت هزائمها المتوالية أمام الجيش الياباني مدعاة لنقمة المواطنين الذين أصبحوا لا يرون أبناءهم سوى وهم عائدين من حرب فاشلة محمّلين فوق

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التوابيت، أو على متن قطارات ممتلئة بالجرحى والمنكوبين في ظلّ نظام عاجز عن تجديد هياكله وقيصر عنيد ومتصلّب الشخصية والطّباع.

وليت الأمور توقفت عند هذا الحدّ، ففي كانون الثاني من سنة ١٩٠٥ قتلت الشرطة القيصرية في مدينة سان بطرسبورغ المئات من الأبرياء الذين كان يقودهم الأب جابون وهو مؤسس الجمعية النقابية للعمّال الرّوسيين، وكانوا قد اتجهوا نحو قصر الشتاء من أجل مطالبة الحكومة بتحسين أوضاعهم المعيشية، فأطلق رجال الدّرك الرصاص عليهم، وتحوّلت المظاهرة إلى مجزرة، وسُجّلت الواقعة في تاريخ روسيا باسم «أحد الدّم»، وذلك لما حدث فيها من فظاعات كما قالت المؤرخة الفرنسية هيلين كارير دانكوس «على الرغم من أنّ هذه المظاهرات كانت سلمية، وكان أصحابها يؤمنون جدّاً بشرعيتها، وبأنّ الحكومة ستسقبلهم بأذرع مفتوحة وتحتضن مطالبهم بكلّ يسر وأريحية»، تُكمل هيلين في كتابها عن سيرة وحياة لينين، «ذلك أنّ المتظاهرين لمْ يأخذوا على محمل الجدّ تحذيرات النظام، أمّا رجال الشرطة فكانوا يأمرونهم بالابتعاد وتفريق الحشود، لأنهم لم يستوعبوا جيّداً كلمات المتظاهرين، ومن هذا الاضطراب لدى الطرفين وقعتِ الكارثة، وتحوّلتِ المسيرةُ السلمية لشعب كان يتقدّم نحو مَلِكِهِ في غضون ساعات إلى ما عُرف بـ «أحد الدّم» أو «أحد القطيعة بين الشعب والقيصر». والأب جابون لخّص هذه الأحداث في مقولته التراجيدية الشهيرة: "لقد اختفى الله، والقيصر أيضا"».

لقد شكّلَ «أحدُ الدّمِ» نقطة تحوّل كبيرة في حياة الروسيين، إذِ استمرّت سواء في سان بطرسبورغ أو في موسكو الإضرابات والمظاهرات التي كانت تندّد بالأحداث الدّامية التي أدّت إلى إزهاق أرواح المئات من الأبرياء. أمّا إينيسّا فواصلت بحذر شديد عملها السرّي، «ذلك أن العديد من النشطاء أوقفوا عملهم بما فيهم أولئك المقيمين على ضفاف نهر موسكفا» طبقا لما جاء

في إحدى رسائلها إلى زوجها أليكساندر الذي حرصت على أن تظل المراسلات بينهما مكثفة، حتّى تتمكنّ من إحاطته علما بكلّ التفاصيل التي تخصّ أبناءهما وكذا مستجدّات الساحة السياسية والاجتماعية في موسكو. «لم تتوقف المصانع الكبيرة فقط عن عملها، بل كذا المختبرات والمعامل الصغيرة كالمصبنات ومغاسل الملابس، والمطبعات أيضاً، ممّا يعني ألّا جريدة أُرْسِلتْ إلى سان بطرسبورغ في هذه الفترة» تكمل إينيسّا كلماتها المرسلة إلى زوجها.

طالت الفوضى والاضطرابات موسكو أيضاً، واكتشف رجال الشرطة أن أجساد الموتى كانت لأعضاء من كلا الحزبين؛ الاشتراكي الديمقراطي وكذا الاشتراكي الثوري، وكانوا كلهم يمشون جنبا إلى جنب أثناء المظاهرات. وقبل أن تقع حادثة اعتقال إينيسّا تمكّن الاشتراكي الثوري إيفان كالْيَيِف من إلقاء قنبلة على موكب الدّوق الكبير الجنرال سيرجي ألكساندوفش رومانوف فأرداه قتيلا، وكانت النتيجة أن صعّد وزير الدّفاع من عمليات القمع العسكري، ووسّع حملات الاعتقالات.

وأمام كلّ هذا لم يعُدْ بإمكان إينيسّا أن تتقنَ بشكل جيّد كما كانت تفعل في السّابق حجب أنشطتها السياسة رغم كلّ الحذر والحيطة، ورغم مظهرها كأُمّ وسيّدة تنتمي إلى الطبقة البورجوازية الرّفيعة الرّوسية الذي كانت تستخدمه في تغطية كل ما كانت تقوم به تجاه الثورة، وإلّا ما كانت لتصل إليها الشرطة وتداهمها ببيتها وفي تلك الساعة المبكرة من إحدى صباحات شهر شباط، وبشكل غير متوقع تماما لدرجة أنّها اضطرّت إلى توصية أبنائها الكبار بالاعتناء بإخوتهم الأصغر منهم سنّاً أثناء غيابها.

بعد الاعتقال تمّ ترحيل فولودْيا وفانيا إلى سجن مْياسْنيكايا، أمّا هي فأُخِذت إلى معتقل باسْمَنّايا الذي كانت تعتقد في البداية أنه سجن نسائي إلّا أنها اكتشفت بعد وصولها أنه لم يبق كما كان سابقا، بل أصبح مختلطا بعد

ما حدث في البلاد من ثورات، وفيه يصرخ المساجين نساء ورجالا، ليلا ونهارا، وهذا ما تؤكده إحدى الرسائل التي كتبتها إينيسّا لزوجها قائلة: «إنّه أفظع مما كنت أتخيّله، إنني أعيش وسط المدمنين، والسّكّيرين المعربدين الذين يأتون بهم هنا ليلا، وبعد أن يشبعونهم ضربا وإهانات بدون أدنى رحمة ولا شفقة، يرمونهم في الزنزانات. إنّه الجحيم بعينه».

أصبحت إينيسّا تعيش حالة ذعر، فهي لا تثق بأحد وتخشى الحرّاس قبل المساجين، ولا تستطيع النوم أبدا، ولا التوقف عن التفكير في فولودْيا، فهو مصاب بداء السلّ، ومن المؤكّد أنّ صحّته سوف تتدهور بسبب رطوبة السجن والميكروبات المعششة في كل ركن منه. فضلا عن أنّ الشرطة لم ترحم أحدا منهما على الرغم من أنهما معا، على خلاف فانْيا، ينتميان إلى حزب عرف عنه عدم الميل إلى العنف وشجبه لأعمال الشغب، لكن ما باليد حيلة فانفجار الأوضاع في كل مكان من روسيا وتفاقم الفوضى دفع النظام إلى عدم التساهل في معاملة السجناء مهما كانت انتماءاتهم الحزبية أو الطبقية.

وعلى الرّغم من أن الأمور كانت تدعو إلى القلق، فإنّ إينيسّا لم تكن تشبه أحدا من السجناء، فهي امرأة مثقفة ومن أسرة ثرية، وتعرف جيّدا ما عليها أن تقوم به، فهي لها حقوق يمكن أن تطالب بها داخل السجن إن تمسكت بها، كمثلا حقها في مراسلة زوجها الذي كان يعمل كل ما في وسعه من أجل أن تستعيد حرّيتها من جديد.

في رسائلها العديدة كانت إينيسّا تحاول دائما أن تخفّف من روع واضطراب زوجها فمثلا في هذا المقطع تقول له: «لا تُجهد نفسك أكثر ممّا يجب وأنت تسعى إلى التدخل لدى الجهات المعنية من أجل إطلاق سراحي. أمّا فيما يتعلق بعرض قضيتي على الحاكم العامّ ومناقشتها معه، فلا أعرف

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى أيّ حدّ يعدُّ هذا الأمر إجراء طبيعيا يقام به عادة في حالة طلب الإفراج بكفالة مالية. لذا، فإذا كنتَ ترى أنه شيء متداول بين الناس وليس فيه أيّ تحيّز لي أو محاباة أو محسوبية فقُم به، أمّا إذا كان غير كذلك فاتركه ولا تطلب شيئا من الحاكم».

وإلى جانب حق المراسلة، كانت تعرفُ أيضا أنّهم لا يملكون أيّ شيئ ضدّها. صحيح أنهم وجدوا المسدس في غرفتها، وهذا في حد ذاته أمر ليس بالهيّن بتاتا، إلّا أنّه لا يُثبت بأيّ شكل من الأشكال أنها شاركت في أية مظاهرة أو محاولة انقلابية.

في إحدى رسائلها إلى الحاكم العام كتبت له من زنزانتها تطلب تحويلها إلى سجن آخر أو عزلها في زنزانة خاصة. وبالفعل كان لها ما أرادت، لأنه في غضون أيام قليلة تمّ تحويلها إلى زنزانة انفرادية عانت فيها مالم يكن في الحسبان. لقد جرّبت الشعور بالوحدة والعزلة عن العالم تماما، وكان ذلك أمر يضعُ على المحكّ يوميا صحتها وتوازنها النفسي ومدى قدرتها على تحمّل هذه الوضعية الجديدة.

كان الصمتُ يقتل كلّ رغبة في الحياة لديها، وكانت المسكينة تقضي ساعات طوال تتمنى فيها أن تسمع ولو للحظة واحدة صوتا ما، أو وقع خطوة ما، لكن عبثا، فلا أحد كان يتحدّث هناك، حتّى الحرّاس كانوا يقضون وقتهم صامتين تنفيذا منهم لأوامر النظام الداخلي الساري العمل به هناك.

ما من أمل، بات الليل هنا كالنهار، يمران ببطء شديد دون أن تستطيع التمييز بينهما، إلى أن خارت قواها ومرضت مما اضطرها للكتابة مجددا للحاكم العام تطلب منه التصريح لها بالخروج ولو لبضعة دقائق من زنزانتها والحديث مع غيرها من السجناء.

يصعب حقّا استيعاب كيف كانت إينيسّا تستطيع كتابة رسائلها وإيصالها أيضا إلى أصحابها، كلّ باِسمه وإلى مكان إقامته! ويبقى المرسل إليه صاحب الحظ الأوفر من المراسلات هو زوجها أليكساندر. لقد عاد اليوم من سفره إلى المشرق، وهو الآن يوجد مع أبنائه في بوشكينو، ومنها يردّ على رسائلها بشغف عميق، لدرجة أنه يبدو عليه وكأنه نسي تماما خيانتها له مع أخيه.

قال لها إنه سيفعل المستحيل من أجل إخراجها من هناك، وهي وإن بدأت تخور قواها، إلا أنها لم تفقد الأمل بعد، وظلت تتمسّك حتى بتلك الأشياء البسيطة التي كانت إدارة السجن تسمح لها بالقيام بها، كما أنها لم تتوقف ولو للحظة واحدة عن التفكير في أبنائها والكتابة عنهم في رسائلها إلى زوجها توصيه فيها بالاعتناء بهم كما هو جليّ في كلماتها هذه: «أثناء فترة إقامتي بينكم حرّة طليقة، كنت قد خطّطت والأولاد للذهاب معا في رحلة إلى نهر الفولغا، وكذا إلى بحيرات فنلندا. فإذا كانت ظروفك المالية حاليا ملائمة، واستحسنت الفكرة، يمكنك أن تحقق أنت للأطفال هذا الحلم [...] لا تنس أيضا أن تطلب منهم أن يذهبوا للحقول ويقطفوا لي بعض الأزهار وترسلها لي بنفس الطريقة التي تبعث بها الرسائل... كم أنا مشتاقة جدّا لرؤية الأزهار البريّة!».

في ردوده الكثيرة كان أليكساندر يخبرها أيضا عن الحرب والثورة، وعن الدماء والعنف وآلام الناس ومستجدّات الشارع الروسي، وكان كلّ هذا يزيد من حزنها ويحفّزها للعطاء والعمل من أجل روسيا دائما أكثر فأكثر، كما هو واضح في رسالتها هذه التي تقول فيها مخاطبة زوجها: «يقولون إنّ الحرب ستفشل قريبا، وهذا أمر جيّد بالنسبة للثورة. لكنني حينما أفكر في

الناس الجوعى الذين عليهم أن يؤدّوا ثمن كلّ هذا، تنتابني حالة من الخوف والقلق وأشعر أننا على وشك أن نقود الجميع إلى الهاوية والخراب، لذا، فإنه من الواجب الآن أن نتخلّص من هذا النير المقيت والمؤلم. وأعتقد أن طريق الخلاص الوحيد هو...».

وأخيرا تمكنت عائلة أرماند من تخليص إينيسا من محنتها، فبعد ثلاثة أشهر قضتها في المعتقل تمّ الإفراج عنها في الثالث من شهر حزيران. وها هي من جديد حرّة مع فولوديا وكذلك فانيا، وإن كانت الحالة الصحية لفولوديا قد تدهورت كثيرا وتفاقم المرض بين جدران السجن، وهو الأمر الذي سيضطره إلى مغادرة روسيا والذهاب للعيش في جنوب أوروبا أو للاستقرار في جبال سويسرا. وإينيسّا الآن بين نارين، فهي من جهة مشتاقة جدّا لأطفالها وترغب في البقاء معهم لأطول فترة ممكنة في روسيا حتى تتمكن أيضا من مواصلة عملها السياسي، ومن جهة أخرى حالة فولوديا الصحية لا تعطيها مجالا للاختيار، وهو الأولى بوجودها إلى جانبه في هذه الفترة الحرجة من مرضه مما سيجبرها على التنازل عن الكثير من أمنياتها والسفر بالتالي معه في رحلة استشفائية طويلة.

أصبحت إينيسا بعيدة مرّة أخرى عن أجواء روسيا وأحداثها التاريخية التي بدأت مسارا جديدا منذ تموز ١٩٠٥، أيْ منذ الإعلان عن ولادة السوفييتات، كما أنها لم تعلم شيئا عن احتجاجات عمال السفينة المدمرة بوتمكين إلا بعد فوات الأوان. وفاتها أيضا الاطلاع على أخبار إضراب عمال السكة الحديدية العام الذي شلّ البلاد بأكملها. ولم تعلم عن هزيمة القيصر واضطراره إلى منح حق الاقتراع العامّ إلا من بعض الصحف التي اطلعت عليها وهي في مدينة نيس.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(٧)
جليد الإقامة الجبرية

وأخيرا وصل العشيقان إلى نيس، وهناك وجدا الطقس متوسطيا معتدلا وإن كان الفصل خريفا، ممّا شجع فولوذْيا وإينيسّا على الانغماس في حياة الخمول والدفء والنزهات وقراءة الكتب وتبادل الأفكار، حتى لكأن الأمر بدا وكأنه فترة عشق وحبّ خالصين لو لم تكن إينيسّا دائمة التفكير في روسي، إذ لم يكن يمرّ يوم دون أن تسأل فيه عمّا يحدث هناك في الوطن. كما كانت تقرأ تفاصيل كل الجرائد الأوروبية بحثا عن المستجدات، فضلاً عن رسائلها الطويلة لكل من كانت تعتقد أنه بوسعه أن يمدّها بمزيد من الأخبار. وهاهي في إحدى رسائلها إلى أليكساندر تقول: «ليتني كنت هناك، فأشَارِكَ ولو بشكل متواضع في قضية الشعب الكبرى». وكانت فعلا هذه أمنيتها التي لم يحُلْ دون تحقيقها سوى حبّها لفولوذْيا وقلقها عليك.

وتغلّب الاثنان على كل العوائق، وعادا أخيرا إلى بوشكينو ليستقرّا في بيت العائلة الكبير، وبدأت إينيسّا عملها السياسي من جديد منطلقة من مصانع النّسيج، مع التّركيز بشكل مكثّف على تأسيس التنظيم السرّيّ الخاصّ بالحزب الاشتراكي الديمقراطي، في الوقت الذي لم تتوقّف الشّرطة عن مراقبة كلّ خطواتها.

غريبة حقّا هذه السنوات التي باتت تعيشها عائلة أرماند بعد ثورة ١٩٠٥، ولعلّ من أبرز مظاهر غرابتها أنّ مطالب العمّال كانت تتمّ مناقشتها في البيت الكبير، أيْ مع وأمامَ أرباب العمل شخصيّا! وليس هذا فحسب،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فالشرطة حينما اعتقلت أربعا وعشرين من العمّال المتظاهرين، اعتقلت معهم أيضا أليكساندر بوريس أرماند، بتهمة التعاون والتساهل المفرط مع المُضربين عن العمل.

لقد كانت عائلة أرماند تلعب لعبة القطّ والفأر مع الجهات القيصرية، لدرجة أنّ الشرطة كانت لا تتوانى عن تفتيشها المستمر للبيت الكبير غرفة غرفة وقبوا وقبوا، وكلّما عثرت فيه على بعض الإعلانات الدعائية للحزب الاشتراكي الديمقراطي أتلفتْها كاملة.

بدأت إينيسّا تشعر بأنّ مراقبة الشرطة أصبحت تشتدّ أكثر من ذي قبل في بوشكينو، لذا قرّرت الرّحيل من جديد، ولكن هذه المرّة إلى موسكو، هناك حيث أصبحت مسؤولة الحزب الأولى في مقاطعة ليفرتوفو، وبادرت إلى اختيار الطّلبة المؤهّلين أكثر إلى القيام بأعمال الدّعاية التي يحتاجها الحزب، مع الحرص على تأمين الأماكن التي كانت تعقد فيها الاجتماع وتوزيع الكتب الممنوعة. كما كانت تسعى إلى لقاء العمّال شخصيا، لا سيما منهم أولئك الذين كان عندهم استعداد للاستماع إليها، وكانت بدورها تجيد الإنصات إليهم، محاولة في الوقت ذاته أن تنقل ما كانت تسمعه وتشاهده في تجربتها هذه إلى أكبر عدد من العمّال في لقاءات أخرى متعددة. وهذا يعني أنها كانت تقوم بعملها كوسيطة وفاعلة سياسية على أحسن وجه وبنجاح منقطع النظير، خاصّة وأنها كانت عندها القدرة على التعامل مع القضايا الأكثر تعقيدا وجعلها في متناول بسطاء الناس بأسلوب أكثر يسرا ومرونة، ممّا أثار إعجاب ودهشة العديد من أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي، لكنّ الشرطة السرية الروسية كانت تراقبها باستمرار.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أصبحت الأوضاع في موسكو خانقة للغاية، وخلال سنة ١٩٠٥ كثرت الإضرابات والفوضى وارتفع عدد المظاهرات وحالات إعلان العصيان والتمرّد، وتعطّلت خطوط المواصلات والتواصل. كان الأمر حينذاك يتعلق بما أسماه المؤرخون بالمرحلة الإعدادية، أو «البروفة العامّة» لثورة ١٩١٧، التي تدخلت السلطات بكل قوة من أجل قمعها، وهذا مقطع من المؤرخة هيلين كَارير دانكوس تشير فيه إلى بعض مظاهر ماارتكبته سلطات القمع في حقّ الثوّار والمنتفضين: «إذا كان عدد العمّال الثّوار قد وصل سنة ١٩٠٥ إلى ٢.٧٥٠.٠٠٠ ففي سنة ١٩٠٦ نقص العدد مليونا من المتظاهرين، أمّا في سنة ١٩٠٧ فقد انخفضَ إلى ما هو أقل بكثير من عدد العمّال المشاركين في الثورة خلال السنتين الماضيتين».

باتت إينيسّا توقن بأنّ الأمر أصبح أكثر خطورة في موسكو، وأنه من الممكن أن تتعرض من جديد للاعتقال بين اليوم والآخر، لا سيما وأنّ الثورة أصبحت الشاغل الرئيس والأهم في حياتها، وما عدا ذلك فهو ثانوي، بما في ذلك أبناؤها وحبيبها فولوديا. وبناء على قناعتها هذه أصبحت لا تعتمد من أجل إبعاد عيون وشكوك الشرطة السرية عنها على مظهرها كسيدة من أهمّ سيدات المجتمع الروسي الراقي، ولا حتى على اسم عائلتها الثرية، وحرصا منها على سلامة أبنائها قررت الانفصال عنهم وإرسالهم إلى بوشكينو، هناك حيث يمكنها أن تزورهم دون أن تعرّضهم لأخطار عملها السياسي.

ولم تكتف بهذا فقط، فقد انفصلت عن حبيبها فولوديا أيضا، لأنّ داء السلّ لم يعد يسمح له أبدا بأن يطيل البقاء لفترة أخرى في روسيا، والشتاء القارسُ أصبحَ على الأبواب، وهو بحاجة أكثر إلى طقس يكون ملائما له ولجسده العليل.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بعد أن سافر فولوديا غيّرت إينيسّا مكان إقامتها، وغادرت شارع أربات الأنيق، وذهبت للعيش في شقة متواضعة بالإيجار هي ورفيقتها في الحزب إيلينا فالسوفا.

في هذا الحيّ الجديد أصبح بإمكانها أن تقوم بعملها الدّعائي بشكل أكثر يسرا ومرونة من ذي قبل، خاصّة وأن عمّال السكك الحديدية هنا على مستوى عال من الوعي السياسي، وهو الأمر الذي سيضمن لها انضمام العديد منهم إلى الحزب.

لم تعد تنفعها في شيء كل الاحتياطات وأشكال الحذر التي كانت تتخذها من أجل إبعاد أعين المراقبة المشددة عنها، لا سيما بعد التغييرات التي حدثت في الوزارة، والتي بموجبها أصبح بيتر أركاديفيتش ستولبين الوزيرَ الأول، ووزيرَ الداخلية لدى الإمبراطورية القيصرية، وقد عُرف عنه أنه لا يترك أمرا لنيكولا الثاني إلا ونفّذه. وقد جاء في الوقت ذاته بإصلاحات جديدة طبقها على وجه الخصوص في مجال الزراعة بهدف خلق طبقة جديدة من الفلاحين الأثرياء حتّى يكون هذا الأمر السبيلَ الأمثل لامتصاص غضب الشعب والثورة. مما يعني التصعيد من عملية قمع كلّ الثوار بمن فيهم الاشتراكيين الثوريين، والاشتراكيين الديمقراطيين، والنقابات القانونية، وكل معارض أو منتقد للحكومة القيصرية.

كان ستولبين قاسيا وحازما في تنفيذ خطّته الجديدة، وكان ينادي باللجوء إلى القوانين والمحاكم الخاصّة، وكذا إلى المحاكمات والإعدامات المستعجلة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وفي هذه الفترة اعتُقِلت إينيسّا لمرّات ثلاث، وقد تمّ الإفراج عنها في المرّتين السّابقتيْنِ لعدم وجود أدلّة كافية ضدّها، أمّا في المرّة الثالثة فقد اتخذت الأمور منحى مختلفا تماما بسبب وشاية وصلت إلى الأوكرانا مفادها أن اجتماعا سيتمّ في مقرّ إحدى وكالات التوظيف من أجل تنسيق الإعدادات الأولية لإضراب عمال السكك الحديدية الجديد، لكن الظروف لم تمهلهم إكمال ما كانوا ينوون القيام به، لأن رجال الأوكرانا داهموهم فجأة وهم حول طاولة الاجتماع، واعتقلوا منهم أحد عشرة عضوا، إلّا إينيسّا، التي كانت قد تأخّرت عن موعد الاجتماع بوقت قليل.

لم يصدّق البوليس ما صرّحت به إينيسّا بشأن تواجدها هناك في وكالة التشغيل، أيْ أنها حسب ما قالت كانت تبحث عن طبّاخ للبيت. لكن وعلى الرغم من عدم تواجد أدلة كافية مرّة أخرى ضدّها، فإنّ البوليس السرّي مضطر هذه المرة إلى إيقافها والتحقيق معها، إذ كثيرا ما تصادف أن وجدوها في حالات مشتبه فيها من هذا القبيل، ولا يمكنهم بالتالي الاستمرار في غضّ الطرف عنها كلّ مرّة.

أصبحت إينيسّا خبيرة في السّجون والسجّانين، لدرجة أنها كانت تدوّخ من يُحقّق معها من رجال الشرطة، فمرّة تغلق عينيها أثناء تصويرها، ومرّات أخرى تختلق العديد من الأكاذيب لتردّ بها على أسئلتهم الكثيرة. كأن تقول لهم مثلا إنّ عمرها ثمان وعشرين سنة، في حين أن عمرها الحقيقي هو ثلاث وثلاثين سنة. أمّا حينما كانوا يسألونها عن أسماء أبنائها فكانت تعطيهم أسماء أبناء أختيْها. لم تكن تظهر أيّ نوع من التفهّم أو التعاون مع الشرطة أبدا، بل على العكس من ذلك تماما فكل ما كانت تظهره هو

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الاحتقار والاشمئزاز من كلّ من كان يحقق معها أثناء فترات الاعتقال الأولي. كانت قوية الشخصية، مفعمة بالرغبة في تحدّي سجّانيها لدرجة أنها في إحدى المرّات قررت أن تجعل من زنزانتها مصدرا للطاقة والمزاج الطيّب المرح، وأصرّت على ألا تدع للظروف البئيسة المحيطة بها أن تنال منها أبدا، فنظّمت حياتها داخل السجن، وشكّلت جمعية مع غيرها من السجينات، واتفقت وإياهن على التناوب اليومي سواء فيما يتعلق بأمور الطبخ أو غسل الملابس. إضافة إلى هذا كانت تعطي دروسا في اللغة الفرنسية، وتخرج يوميا في نزهة مطولة بباحة السّجن دون أن تهمل قراءاتها المكثفة للعديد من الكتب إلى أن جاء قرار المحكمة في تشرين الأول بإخراجها من السجن مع إحالتها على الإقامة الجبرية في روسيا الشمالية، بجنوب البحر الأبيض في المحيط المتجمد الشمالي. وعبثا حاول زوجها أليكساندر أن يقنع السلطات بتحويل الإقامة الجبرية إلى حكم بالنّفي، إلا أن الشرطة - وهي محقّة في ذلك- ترى بأن إينيسّا، وإن كانت خارج السجن فهي لن تتوقف عن ممارسة عملها السياسي، لذا فمن الأفضل عزلها في مدينة أركانجلو بالبحر الأبيض ومحاصرتها في جليد المنطقة الذي يدوم لستة أشهر في السنة.

ميزين هي المدينة التي ستقضي فيها إينيسّا حكم المحكمة عليها بالإقامة الجبرية، وهي بلدة صغيرة جدا ومعزولة عن كل شيء، وللوصول إليها يجب السفر قرابة شهر على الأقل وسط جليد القرى الروسية القاسي والذي لم تكن لتنجو من براثنه لولا احتفاظها في قلبها ببعض الذكريات التي منحتها بعض الدفء خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها في ميزين، ولعلّ أهمّها كانت ذكرى زوجها أليكساندر حينما أتى بصحبة أبنائها لوداعها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بمحطة موسكو وبين يديه باقة كبيرة من الورد، لم تتمكن من استنشاق عبيرها لأنها كانت بعيدة عنهم جميعا وبيْنَ شرطيين، فلم تستطع سوى أن تبعث لهم من شفتيها ابتسامة حنونة دون أن تتمكن من احتضانهم. ويظل قرار فولوديا بالسفر معها هو عزاؤها الوحيد وسط كل هذه الأحداث الحزينة، فلقد اختار أن يرافقها على الرغم من ظروفه الصحية المتدهورة كرجل مصاب بداء السلّ ومن الصعب جدا عليه أن يتحمل قسوة برد الشمال، وشدة انخفاض درجات الحرارة هناك في ميزين.

السفر طويل وشاق، والرياح قوية وباردة جدّا، وخيول العربة لا تقطع سوى ٣٥٠ كيلومتر كلّ خمسة أيّام، لكن بالرغم من كلّ ذلك فإينيسّا تحاول البحث دائما عن مواطن الجمال حتى في أحلك الظروف، لذا، فليس بالغريب عليها أبدا أن تبدي إعجابها الشديد بسحر مناظر الطبيعة البيضاء الخلابة من حولها والمتلألئة تحت نور الشتاء الخافت والمغطّاة بستار شفاف من الألوان الزرقاء. كلّ شيء كان في الطريق يثير فضولها بشغف لذيذ، حتّى ألبسة الناس المحلية المصنوعة من صوف أو فرو الحيوانات، وكذا المدفئات الكبيرة ذات الزخارف البديعة التي تزيّنُ الخشب المصبوغ باللونين الأصفر والأحمر، والتي كانت تتوقف عندها كلّما وصلت العربة إلى محطة معينة من محطات السفر القليلة. لم تكن هذه المدفئات تمنح إينيسّا الحرارة الجسدية فقط، بل كانت تشعرها أيضا بها في هذه الطبيعة البيضاء من جمال روسي برّي يحيي الفؤاد ويمدُّه بالسّعادة.

وصلت إينيسّا إلى ميزين، لكن صدمتها في سكّان هذه المدينة كانت شديدة، فطِباعُهُم جامدة وباردة برود درجات الحرارة التي تصل هناك إلى

الأربعين درجة تحت الصفر، حيث لا يوجد أيّ مظهر أو شكل من أشكال الحياة، بالضبط كما كتبت تقول لصديقتها آنّا أسكانازي في إحدى الرسائل: «... من أبشع ما رأيت في هذه المدينة كان منظر الأشغال الشاقة، فضلا عن أن الحياة هنا منعدمة تماما، والناس كما نبتة لا ماء ولا رطوبة فيها ينمون مرضى ومعطوبين. لا شيء يوجد هنا يحفّز على العيش، ما من روابط روحية، ولا وجود للعمل، وحتى إن وجد فإنه يكون بحسب الفصول ولا يدوم طويلا، لذا فعضلات الناس هنا تعودت على الكسل والخمول، وعقولهم أيضا».

عن هذه المدينة كتبت أيضا لأليكساندر تقول له: «الأيام هنا جامدة لا تتحرّك، لكن هذا لا يمنع من القول إنّها بشكل أو بآخر تنزلق مصفرّة وشاحبة، مما يعني أنني وفولوديا نواسي أنفسنا محاولين الاقتناع بأنّ في هذا المكان توجد حياة ما. طبعا لا يمكنني الإنكار بأنني أحسن حالا من أناس آخرين، على الأقل لا أعيش وحيدة، إذ هناك أشخاص يمرون حقا بظروف أليمة ويعانون من الوحدة القاتلة. لكن بالمقابل تبقى معاناتي أشدّ وأمرّ، لأنني تركتُ هناك أبنائي في موسكو، وأشتاق إليهم كثيرا، وقلبي قلق ومنشغل بهم دائما».

ليس أمام إينيسّا من حلّ سوى الاعتماد على قدراتها الشخصية في تجاوز هذه المحنة بروحها التي تميل أحيانا إلى التخفيف من قسوة الظروف والتأقلم معها بشكل أو بآخر، فعلى الأقل تصلها من الحكومة إعانة مالية بمقدار ١٢ روبل، يمكن أن تستأجر بها بيتا من الخشب، وتعيش كبقية الناس دون أن تفقد روح المرح والسخرية السوداء من الأشياء التي تحيط

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بها، ففي مدينة ميزين يوجد ما يقارب المئة من المعتقلين السياسيين الذين يمكنها أن تجمعها وإياهم علاقة صداقة جديدة، هناك أيضا مدرسة، وجريدة وكذلك آلة بيانو في أحد المحلات التجارية بالقرية.

في كل صباح يستيقظ فولوديا باكرا، يجلبُ الماء ويُعِدُّ الإفطار، بالضبط كما كتبت إينيسا لأبنائها تشرح لهم كيف تمرّ صباحاتها: «من المفترض أن أقوم أنا بهذه الأشياء، لكن كما تعلمون جيدا فأنا كسولة للغاية، لذا، فإنني حينما أقوم من النوم متأخرة كالعادة، أجد السماور جاهزا».

عادة ما تطبخ إينيسّا بعض الوجبات في البيت، لكنها تفضّل أن تعطي دروسا في اللغتين الفرنسية والروسية، وتجد سعادتها أكثر في قراءة بعض الكتب أو في عزف البيانو كلما سمحت ظروفها بذلك. أمّا حينما يكون الطقس نوعا ما أقل برودة، فإنها تخرج للتنزه أو إلى لقاء بعض الأصدقاء المنفيين الذين تعرفت عليهم في هذه المدينة.

في ميزين، تحاول إينيسا أن تخلق حياة يومية تكون نوعا ما غنية بالاهتمامات والتطلعات المعرفية وكذا اللقاءات الإنسانية، أمّا حينما يحلّ الليل، فتذهب إلى سريرها الدافئ وبين يديها كتاب ما، تقرأه كالعادة قبل أن تخلد تماما إلى النوم: «إذا كان الكتاب مُملّا فإني أنام بسرعة»، تقول مداعبة أبناءها في إحدى رسائلها إليهم: «لكن أرجوكم، لا تفعلوا مثلي، فأنا أقوم بهذا فقط لأنني هنا، أما في ظروف أخرى فإنني قارئة نهمة ومثالية كما تعلمون».

إينيسا على الرغم من محاولاتها في أن تُظهر لأهلها منذ البداية صورة مختلفة عن مدى قدرتها على تحمُّل هذه الظروف القاسية، إلا أنها في الحقيقة

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

كانت تعاني الأمرّين، وبعدها عن أبنائها هو الجرح العميق الذي لم تستطع أن تداويه بأيّ شكل من الأشكال، فحتى وجود فولوديا إلى جانبها ومحبّته واعتناؤه بها لم يكن كافيا للتخفيف من حدة آلامها، وأنّى لها ذلك وفولوديا بصدد مغادرتها إلى أوروبا لأن الطقس الجليدي هنا لم يترك له أيّ مجال لمقاومة المرض، وإن كان قد وعدها بالعودة عند قرب حلول فصل الربيع. لكن على الرغم من كلّ هذا، فإنّ الشيء الوحيد الذي بات يُخفّف من حُزْنها هو عودة أبنائها للعيش مع أبيهم أليكساندر، بعد أن عانوا كثيرا من آلام الوحدة هناك في موسكو بعيدا عن والدتهم إينيسّا، كما ورد في إحدى رسائلها لزوجها.

مضت سنة كاملة وهي على هذه الحال في ميزين، إلا أنه بعد أن غادر فولوديا المدينة، نفذ صبرها، وقرّرت فجأة المغادرة. ارتدت "لاماليكا" وهي لباس محلي مصنوع من فرو الأيل، حتى لا يتعرّف عليها أحد، وفي العشرين من تشرين الأول سافرت مع جماعة من الأصدقاء البولنديين الذين كانوا قد أكملوا فترة الحكم عليهم بالإقامة الجبرية، وفي ٠٣ تشرين الثاني ١٩٠٨ وصلت إلى موسكو.

(٨)
الألم والوحدة

في موسكو استعادت إينيسّا إحساسها الجميل بالحرية من جديد، فكلّ مافي هذه المدينة يثير إعجابها: الطرقات المزدحمة والمطاعم، المتاحف والجرائد، وكذا الكتب والمكتبة، أيْ كلّ ما لم تكن تجده هناك بميزين.

للناس في موسكو شخصية منفتحة وصادقة، فهم يتحدثون بطلاقة ويحكون كلّ شيء، والحرية هنا لها طعم آخر تتذوقه إينيسّا لحظة بلحظة وهي تتنزه بين طرقات المدينة وفي شارع آربات، وكذا وهي تعبر الميدان الأحمر، وتطلّ على ضفاف الموسكوفا، وتزور حدائق الكرملين ومسرح البولشوي. ولا تنسى أيضا أن تكتب إلى فولوديا الذي مازال في رحلته الاستشفائية بأروبا، لتحدثه عن جمال هذه المدينة، لأنها تعلم أنه سيتفهّمها ويكون سعيدا من أجلها: «هنا أستمتع كثيرا بضجيج العربات، وبالجموع الغفيرة وهي تتحرك فوق الشوارع والطرقات، كما أستمتع أيضا بالنظر إلى البيوت والحافلات الكهربائية، وأردد في صمت: كم أحبك يا مدينتي، وكل ذرة في كياني تهتف باسمك، فأنا ابنتك وسعيدة للغاية بكِ».

قد يظنّ من يسمع ويرى إينيسّا هكذا ويقرأ رسائلها أنها لا تعرف شيئا عن تدهور الحالة الصحية لفولوديا، لكن من يدري، فلربّما تعرف وتحاول قدر الإمكان تجاهل الأمر وعدم التفكير فيه، فهي في كل الأحوال هاربة سرّية من الحكم بالإقامة الجبرية، وعليها اتخاذ كل الاحتياطات والحذر

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اللازمين لكي لا يُكتشف أمرها، فهي لا تستطيع حتى الاقتراب أو الذهاب إلى لقاء زوجها وأبنائها، لا سيما وأن أليكساندر هو الآخر يعيش فترة حرجة جدا من حياته، فهو غارق في مشاكله مع السلطات التي اتهمته مجددا بمزاولة نشاطات ثورية، فضلا عن كونه لم يخرج إلا حديثا من السجن، ومُنع عنه العيش في المدن الكبيرة، لذا فهو مضطر إلى مواصلة عمله في شركات العائلة من مدينة ديمتروف التي تبعد عن بوشكينو بستين كيلومتر، وهي الشركات التي استطاعت بشكل أو بآخر أن تستمرّ في العمل ودرّ بعض الأرباح، وحينما لم تعُدْ هذه الأخيرة قادرةً على الصمود أكثر فأكثر، غيّرَ أليكساندر حياته تماما، وغادر روسيا والبيت الضخم والعائلة الكبيرة، وانتقل للعيش وابنيه الأكبريْن إلى بلدية روبيه، وهي منطقة تقع بالقرب من مدينة ليل. وتسمى هذه البلدية أيضا بمانشستر الفرنسية، وذلك لتمركز مصانع النسيج الكبرى فيها، الشيء الذي يعني أنه في هذه المنطقة يمكن لأبناء إينيسّا أن يعملوا جادّين على بناء مستقبل جيد لهما والاستعداد بالتالي من أجل استلام مناصب إدارة شركات العائلة.

الذهاب إلى بوشكينو خطر جدّا بالنسبة لإينيسّا، فهي قد مُنعت من الاقتراب حتى من القرية التي يسكن بها أهل زوجها وأبنائها الصغار الثلاثة. وهي حتى وإن حاولت السفر إليهم فإن ذلك مغامرة كبيرة، لا سيما وأن الكلّ يعرفها هناك، ولن يستطيع أطفالها كتمان سرّ هربها وذلك لصغر سنهم وعدم تقديرهم لمدى خطورة الأمر. لأجل كلّ هذا فضّلت أن تحتمي بشساعة وازدحام موسكو التي تبقى في كل الأحوال أأمن لها من معظم المدن الروسية، وإن كان في الحقيقة يبدو أن إينيسّا بدأت تطمئن أكثر إلى هذا

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الإحساس بالوحدة والبعد عن الجميع لأنه يمنحها فرصة استعادة قواها من جديد والاهتمام بنفسها، علّها تستطيعُ بعد ذلكَ أن ترتّبَ حياتها بشكل أكثر وضوحا وتوازنا، ولم يكن كلّ هذا يخلق عندها أيّ شعور بالذنب تجاه أسرتها بل على العكس من ذلك تماما، فهي تحبّ أن تشاركهم ما بدأ يجدّ في حياتها كهاربة سريّة، وقدْ كتبت لهم في إحدى رسائلها تقول: «لقد كان هذا الشهر من أسعد ما مرّ عليّ في حياتي إلى اليوم»، ولعل هذا مرده إلى كونها أصبحت تعيش حريتها إلى أبعد الحدود دون أن تكون مقيّدة بالالتزامات الأسرية ولا حتى العاطفية، وهذا ما سمح لها على الرغم ما في ذلك من خطر بالسفر إلى سان بطرسبورغ للمشاركة أيضا في مؤتمر النساء الروسيات، هناك، حيث ولأول مرة طالبت مئاتُ النساء مجلسَ الدوما والحكومة بحقوقهن التي لم يحصلن بعدُ عليها كاملة.

وعلى الرغم من وضعية إينيسّا الحالية كهاربة سريّة -والتي لم تمكنّها من الإعلان عن نفسها في المؤتمر-، إلا أنّ مشاركتها كانت ذات قيمة عالية بالنسبة لتكوينها السياسي، فقدْ سمحت لها باكتشاف مدى عمق الهوة التي تفصلُ بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحركة النسائية. وكانت أيام إقامتها بسان بطرسبورغ كفيلة بأن تظهر لها ذلك جيّدا، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والمناضلات ومعهنّ المسؤولات البلشفيات، وجدن أنفسهنّ أمام مشاكل عويصة ومعقّدة عليهن التصدّي لها حتى في السنوات المقبلة، خاصّة وأنّ أعضاء الأحزاب -وهذا ما كانت تراه بوضوح- لم يسبق لهم أن أبدوا أيّ اهتمام يُذكر بحقوق المرأة، هذا إذا لم يكن البعض منهم يسعى إلى عرقلة عمل المرأة السياسي. وهذا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سلوك لم يكن يتبناه فقط أعضاء الحزب المحافظ بقدر ما كان يتبناه أيضا أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذين وإن لم يكن عددهم يتجاوز التسعة عشر نائبا في مجلس الدوما الثالث، فإنهم كانوا جميعا ينظرون بحيطة وحذر وشكّ إلى الحركة النسائية، بل كانوا يفضّلون لو أن عضوات الحزب لم يشاركن على الإطلاق في هذا المؤتمر، لأنهم كانوا يخشون أن تتأثر «نساؤهم» بفكر «النسويات البورجوازيات»، وتكون النتيجة ابتعادهنّ عن أساسيات الصراع الطبقي.

كانت إينيسا في المؤتمر تراقب عن بعد أليكساندرا كولونتاي، إحدى أكثر نساء الحزب شهرة وهي تحاول عبثا إقناع الرجال المعارضين بأنه على عكس ما يتخيلون، فإن مشاركة نساء الحزب الاشتراكي الديمقراطي في المؤتمر هي أمر إيجابي جدا ولا يمكنه سوى أن يصبّ في مصلحة المنظمة كافة، إلا أن الشرخ بين البلاشفة ونساء المؤتمر لم يزدد إلا تعمقا بعد أن أجبروا ما يقارب ثلاثا وأربعين امرأة على الخروج من قاعة الاجتماع تعبيرا منهم على معارضتهم الصريحة والكلية لأعمال المؤتمر.

وإضافة إلى هذا، لم تغفل إينيسا عن الاهتمام بقضايا النساء العاملات على وجه التحديد، من أجل تحسين وضعيتهن بشكل أفضل، وإن كان أمرا صعب التحقيق، لا سيما وأنه لم يسبق بعد خوضه أو معالجته بشكل جدّي إلى الآن، فالطريق مازال مسدودا أمامهن، والأفخاخ تحيط بهن من كلّ جانب حسب ما كتبته إينيسّا في إحدى مدوناتها: «فمن جهة ما زالت النساء يَتُقْن بشدة إلى الحصول على حقهن في الحبّ بحرية كاملة، ومن جهة أخرى مازال مدخولهن ضئيل جدّا مما يجعل الحلم بالحرية في الحب أمرا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يستحيل تحقيقه، وإلا فإنه عليهن التنازل عن حقهن في الأمومة. وقد ناقش المؤتمر هذه القضية بالذات، لكن بدون جدوى».

كانت مازالت مقيمة في سان بطرسبورغ حينما علمت إينيسّا في كانون الثاني ١٩٠٩ بأن حالة فولوديا الصحية قد تدهورت كثيرا، وبأن داء السل مازال ينهش بلا هوادة جسده العليل، وعليه فما من حلّ أمامها الآن، سوى أن تغامر من جديد وتعبر بشكل غير قانوني الحدود الفيلندية. وذاك ما كان، فبعد فترة قصيرة كانت عند فولوديا بمدينة نيس، والذي وافته المنية في شهر شباط، أيْ بعد خمسة عشر يوما من وصول إينيسّا.

دام حبهما لسبع سنوات طوال، وفيها أظهر فولوديا الإخلاص والمحبة والوفاء تجاه حبيبته، التي على الرغم من أنها كانت على علم بحالته الصحية ومرضه الخطير، وكان من المفترض أن تكون مستعدة نفسيا لتقبل ألم الموت، إلا أن صدمتها كانت أعمق وأعظم، فهي لم تكن تتوقع أبدا لحبيبها هذه النهاية المفجعة وفي وقت وجيز من الزمن: «فقدانه جرح لا يلتئم، لقد كان مصدر سعادتي الشخصية، وحياتي اليوم بدونه صعبة للغاية»، كتبت في إحدى رسائلها إلى صديقتها آنّا أسكنازي. أمّا لابنتها إينّا فقالت بعد مرور بضعة سنوات: «أعتقد يا عزيزتي إينّوشكا أن كلّ شيء ينتهي بالموت، وهذا أمر لا يفهمه الإنسان إلا بعد أن يفقد إنسانا عزيزا عليه. صعب جدّا يا عزيزتي تقبّل النهاية، والوداع الأبدي لمن نحبّ من الناس. أتذكر أنّ هذا ما حدث لي بالضبط بعد وفاة خالك، لقد خبرت جيدا كم هو موجع ألم الفقد، لدرجة أنني بتُّ أحسد جدّتك التي تعتقد أن هناك حياة أخرى وأن الموت ماهو إلا وداع مؤقت».

وها هي إينيسّا وحيدة من كلّ شيء، ولم يتبقّ لها سوى أن تبدأ حياة الترحال والتجوال في أوروبا من بلد إلى آخر متمسّكة بأهداب حبّها للعمل السياسي وكذا بحنينها الدائم إلى أبنائها والرغبة في الذهاب إلى لقائهم قريبا، كما سبق وصرّحت لصديقتها قائلة: «بالنسبة للعمل، أنا الآن لا أقوم بأيّ شيء مهمّ، أعتقد أنني بحاجة لشجاعة وطاقة أكبر، وأنا الآن لا أملك لا هذه ولا تلك، لذا فإني سأنسحب بوحدتي وأذهب للعيش مؤقتا في مدينة فرنسية صغيرة إلى أن يقترب عيد الفصح، بعد ذلك سأذهب إلى باريس، من يدري، ربما أجد هناك ما يستحق عناء الترحال، أريد أن أتعرف بشكل أكبر على الحزب الاشتراكي الفرنسي. إذا تمكنت من تحقيق ذلك، فإني سأكتسب المزيد من الخبرة، التي ولا شك سأفيد منها كثيرا حينما سأعود لممارسة عملي السياسي».

(٩)

حياة جديدة

ما من أحد ساندها كما ينبغي في تجاوز ألم الفجيعة والفقد أكثر من زوجها أليكساندر، وهو يعرف جيدا كم هي بحاجة إلى رؤية أبنائها أكثر من ذي قبل، وكم هو مهمّ الآن تواجدهم في حياتها لتعانقهم من جديد وتستعيد إحساسها الدفين بالأمومة معهم. وقد تمكّن من جمعها بهم في لي سابل دورليون، وهي مدينة ساحلية صغيرة في لا كوت دي لومير (بمنطقة لا فانديه)، هناك حيث استأجر فيلا كبيرة اسمها ((لا فافوريتا)) من أجل أن يقضي أفراد العائلة بعد طول فراق، شهرين كاملين في التنزه وتبادل أطراف الحديث فيما بينهم. كان الكلُّ حاضراً في هذه العطلة: الابنان فيدور وأليكساندر، ثم فارفارا وإينّا وكذا أندريه؛ الابن الأصغر لإينيسّا من فولوديا، والذي اعترف به الزوج أليكساندر وتبناه كابن ضمه إلى بقية إخوته الآخرين.

إينيسّا الآن تنعم ببعض الهدوء والطمأنينة، ففي الصباح تستيقظ على أصوات أبنائها وهم يتحدثون عن تنظيم نزهات وألعاب جديدة، أمّا المساء فكانت غالبا ما تقضيه في القراءة. وعلى الرغم من أن الجرح الذي خلفته وفاة فولوديا مازال نازفا، إلا أنها بشكل أو بآخر كانت تحاول أن تعالجه بتواجد صغيرها أندريه معها وهو يسابق أمام عينيها الأمواج، أو بسعادتها وهي تنظر إلى ابنتيها إينّا وفارفارا وقد كبرتا وأصبحتا امرأتين

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صغيرتين تتناقشان وإياها العديد من الأمور والقضايا المهمة، وكذا بابنيها؛ البكر والآخر الذي يليه، وهما يتطلعان معا إلى حياة مفعمة بالآمال والنجاحات في مجال العمل بشركات العائلة. كل هذا الدفء العائلي، والعناية التي كان يبديها تجاهها أليكساندر، جعلاها تشعر بأنه من الممكن جدا التعايش مع ألم الوفاة، والذي لا شك سيصبح مجرد ذكرى بمرور الزمن.

كانت إينيسا منزوية في أحد الأماكن وتنصتُ لضحكات الأطفال وأحاديثهم من بعيد، أمّا أليكساندر فكان يراقب تفكيرها العميق وهدوءها وطمأنينتها، ويتأمّل في كيف أنها أصبحت تسمح لنفسها ببعض اللحظات من السعادة تقتسمها هي وأبناءها من حين لآخر، مما جعله يعتقد، أنها وبعد كلّ هذه الآلام التي قاستها، بدءا من قصة حبها لفولوديا وموته المفاجئ، ثم حكاية الاعتقال والإقامة الجبرية وصولا إلى ما تلاهما من إحساس مريرة بالوحدة والعزلة، ربّما أصبح ممكنا الآن عودتها إلى حياتها العائلية التي هجرتها في السابق. هكذا هو أليكساندر، رجل الوفاء والمحبّة، فهو لم يتخلّ عنها في ظروفها القاسية هذه، حتى حينما اختارت رجلا آخر غيره، بل على العكس من ذلك تماما، تفهّم الأمر برمّته وترك لها حرية اختيار الحياة التي تلائمها. لكن الآن، وقد تغيرت الظروف فهو ما زال يأمل في أن تعود للعيش معه بمدينة روبيه هي والأبناء من أجل أن يكملا معا مشوار الحياة الأسَرية السعيد، وقد اقترح عليها فعلا هذا الأمر خلال عطلتها الصيفية، لكن هيهات هيهات فإينيسّا وإن كانت تكنّ له مشاعر التقدير والمحبّة والاحترام، فهي تعلم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جيدا أن ما اقترحه عليها أليكساندر أمر يستحيل تحقيقه، لأنها لا تستطيع أن تعود إلى العيش في إطار عائلي محض بمدينة فرنسية، وإلا فما مصير روسيا بعدها؟ وماذا عن الثورة؟ ما من جدوى، لقد تغيرت إينيسا كثيرا خلال تلك السنين القاسية، ولا يمكنها أن تعود كما كانت من ذي قبل. صحيح أنها عاشت فترات أليمة، لكنها ظفرت بأشياء أجمل وأقوى، أشياء لم تكن لتمنحها لها سوى سنوات النضال الثوري، لأجل هذا كتبت تقول لأليكساندر بلطف شديد: «عزيزي ساشا، تجمع بيننا أشياء كثيرة جدّا، نحن فعلا صديقان حميمين جدّاً، وسنبقى كذلك إلى الأبد»، كلماتها هذه التي كتبتها له في ورقة أنيقة، لا يمكن أن تعني سوى شيء واحد: إينيسا لن تعود إلى أليكساندر ولا لأبنائها بعد انقضاء العطلة، فهي ستواصل طريق عملها السياسي وستلتحق بالجامعة في بروكسل من أجل دراسة الاقتصاد والسياسة.

لا تتمتع بروكسيل بنفس حيوية باريس، ولا هي مثل موسكو من حيث الضخامة والفوضى والضجيج، وليس لها من جمال مدنتَيْ لي سابل دولون أو نيس أيّ شيء، لكنّ على الرغم من كل هذا فإينيسّا ستكون مرتاحة فيها بشكل أكبر، أيْ حينما ستذهب للعيش فيها هي وطفليها الأصغرين.

في العاصمة البلجيكية تمّ افتتاح جامعة جديدة عُرفت باتجاهها التقدمي القائم على حرية التفكير، وقد التحقت بها إينيسّا وتسجلت في شعبة الاقتصاد الاجتماعي السياسي، وبدأت تداوم على دروسها بكل جدّ ونشاط، أما الساعات المُتبقّية بعد الدروس الجامعية فكانت تقضيها مع بعض

أصدقاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي المتواجدين في بروكسيل. وإذا كان الأساتذة قد اعتادوا هنا في الجامعة على تخرج الطلبة في غضون سنتين، فإينيسّا فاجأتهم وأثارت إعجابهم جميعا، لأنها حصلت على شهادة التخرج في فترة لا تزيد عن عشرة أشهر، وقد كُتِبَت فوقها العبارات التالية: «اجتازت بتفوق الآتي ذكره من المواد: الاقتصاد السياسي، الدروس المعمقة في اقتصاد المال والائتمان المصرفي، تاريخ الاقتصاد الاجتماعي والمؤسسات والقواعد القانونية، الاقتصاد العام، الإحصائيات، التشريع العمّالي، التوسع الاقتصادي للشعوب الأوروبية، ثم علم الاجتماع».

بعد هذا النجاح الرائع سافر إليها أليكساندر وكافة الأبناء من أجل الاحتفال بها وقضاء أوقات ممتعة من جديد برفقتها في بروكسيل ولو لأيام قليلة. كما يُذكر أنها في فترة الدراسة كانت من حين لآخر تذهب إلى باريس خاصّة في عطلة أعياد الميلاد، هناك حيث كانت تلتقي ببعض اللاجئين الروسيين في الدائرة الرابعة عشر.

لا شيء تغيّر بعد لقائها منذ سنة مضت بلينين: مقهى «دي مانيّور» مازال كما هو؛ يُقدّمُ فيه كما العادة نفس عصير الرمّان، وقنينات البيرا، وتدور بداخله النقاشات الحامية ذاتها. وحينما التقت مرّة أخرى بفلاديمير إيليتش تحدثت معه عن روسيا والثورة. كان لطيفا وودودا، لأنه ربّما اكتشف أنه يحبّ الحديث معها، فهي تختلف كثيرا عن النساء الثوريات اللائي سبق وعرفهنّ خلال فترة المنفى، إنه معجب بحماسها وحيويتها وعفويتها، فضلا عن أنّها استطاعت أن تتحمّل سنوات السجن والإقامة الجبرية وكذا المنفى، بالرّغم من كونها سيّدة

بورجوازية. كلّ شيء يعجبه فيها، حتى قبّعاتها الصغيرة ذات الأسلوب المرح والمشاكس، والطريقة التي تصفف بها شعرها الرائع، إنها بالنسبة له عالم جدير بالاكتشاف.

حينما ظهرت إينيسّا في حياة زعيم البلاشفة، كان هذا الأخير يعيش فترة عصيبة من حياته؛ ابتعد عنه الأصدقاء ونفر منه العديد من أعضاء الحزب بسبب طبعه الحادّ ونزعته التشاؤمية وطريقته في تسيير شؤون الحزب، خاصّة المالية منها، ولم يبق بجانبه من المخلصين سوى كامينيف، وزينوفيف وطبعا زوجته ناديا.

فطنت إينيسّا في حذر إلى إعجابه بها، ولاحظت أيضا اهتمامه الشديد بالسياسة الممزوج بنوع من حبّ التملّك والعزيمة الفولاذية. وقد يكون طبعه كما يراه الآخرون قاسيا وجافّا لكن هذا لا يمنع من أنه تحت هذه القسوة يوجد بعض من الحنان والمشاعر الطيبة التي دفعتها إلى الانجذاب إليه في خجل وحياء، لدرجة أنها حينما قررت الذهاب إلى كوبنهاغن من أجل حضور فعاليات المؤتمر الاشتراكي العالمي لم تلجأ إليه لتسوية أمور الحصول على دعوة تخوّلُ لها السفر وإنما كتبت إلى «الرفيق كوتلْيارينكو»، وهو موظف أحد فروع الحزب بشارع أورليان دون أن تكون لها أدنى معرفة سابقة به.

عرف لينين بشأن رسالتها فكتب إلى رجل الثقة لديه في الدانمارك موصيا إياه بأن يسعى ليدرج اسم «الرفيقة» ضمن لائحة المدعوين إلى المؤتمر.

في اجتماع كوبنهاغن حضر كبار الاشتراكيين الديمقراطيين من قبيل: روزا لوكسمبورغ، ليون تروتسكي، يوليوس مارتوف، وجورجي

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بليخانوف، و كلارا زيتكين، مما سيفتح بدون شك المجال لنقاشات عميقة بين مختلف أعضاء المؤتمر. أمّا لينين فقد حضر بدون ناديا، وعلى الرغم من كل ما كان يحدث حوله، إلا أن نظراته لم تفارق أبدا إينيسّا.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(١٠)
البلشفية المتحمّسة

في خريف ١٩١٠ قررت إينيسّا الانتقال للعيش بمسقط رأسها؛ باريس، واصطحبت معها أبناءها الصغار: إينّا، فارفارا وأندريه. أمّا الابنين الأكبرين أليكساندر وفيدور فبقيا في روبيه من أجل إكمال دراستهما.

تبلغ إينيسّا الآن من العمر ستّا وثلاثين سنة، لكنها تبدو أصغر من ذلك بكثير، وهي في رأي من حولها جذّابة ومرحة، فلقد اختفت ملامح الحزن، وعادت أزياؤها لتصبح أكثر حيوية، وعاد القلم الأحمر لينغرس من جديد بين خصلات شعرها الذهبيّ، ولعلّ كلّ هذا مردّه إلى النجاح الذي حققته أثناء دراستها الجامعية، فهي الآن أكثر طاقة واستطاعت في وقت وجيز من الزمن أن تتجاوز مرحلة الوحدة والحزن على فقدان فولوديا، مما حفّزها على إعادة تنظيم حياتها بشكل أفضل والموازنة بالتالي بين عملها من أجل الثورة، ورعايتها لأبنائها بمساعدة زوجها أليكساندر الذي لم يتخلّ عنها أبدا، ويستمرّ للآن في دعمها، ومشاركتها كلَّ اللّحظات المهمة من حياتها.

باريس تعيش اليوم عهدها الذهبي، وسنوات ساحرة من التفاؤل والحرية تتجسد في الاكتشافات العلمية وظهور العديد من التيارات الفنية الجديدة، وطبقة بورجوازية جديدة أكثر انفتاحا من سابقتها.

الشوارع في باريس مكتظة وصاخبة، والنساء فيها أنيقات للغاية، أما المقاهي والمحلات التجارية فتبقى مفتوحة إلى ساعات متأخرة من الليل،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

دون نسيان ذكر الملهى الليلي المشهور بـ «الطاحونة الحمراء» والذي كان الرمز المعبّر بحقّ عن هذا العصر الذهبي، وقد خلّده الفنان التشكيلي تولوز لوتريك في لوحاته البديعة. وعلى الرغم من ذلك فليست هذه هي باريس التي كانت تجذب بشكل أكبر إينيسّا، ولكنها باريس المهاجرين والمنفيين الروسيين، تلك التي كانت تقبع في شارع أورليان حيث تقيم عائلة أوليانوف، وحيث في الشقة رقم ١١٠ تُطبع صحيفة الاشتراكي الديمقراطي. لكن يبقى مقهى دي مانيّور هو المركز الرئيس الذي كانت تزوره، وكيف لا، وقد كان مسرح خطابات وأحاديث فلاديمير إيليتش السياسية المفعمة بالحياة والحماسة والعنفوان.

حينما وصلت إينيسّا إلى هذا المكان وجدته حزينا، لا أحد فيه سوى بعض المنفيين الكسالى الذين نخرهم الحنين إلى الوطن الأمّ، وذكريات الزمن الجميل المشوبة ببعض الأسى والمرارة. أمّا هي وإن كان يجمعها بهم الانتماء الروسي وقصص النضال، إلا أنها تختلف عنهم تماما، فهي نشيطة وذات تطلعات وأماني كبيرة، وتناقش معهم العديد من القضايا المهمة ولساعات طويلة، دون أن تغفل أبدا الحديث عن الثورة في روسيا، وإن كان لا أحد فيهم يعرف متى ستتحقق فعليا.

ناديا كروبسكايا كانت مِن ضمن مَن فطن بسرعة إلى أن إينيسّا امرأة من طينة أخرى، وقد كتبت عنها في مذكراتها سنة ١٩١٩ تقول: «وصلت إينيسا أرماند من بروكسيل إلى باريس، ونظرا لكونها أصبحت في مدة وجيزة عضوا نشيطا وفعالا ضمن مجموعتنا الباريسية، تمّ اختيارها هي وسيماشكو وبريتمان (كازاكوف) لإدارة أعمال المجموعة، وقد كانت تهتم بشكل مكثف بالمراسلات مع الفروع المهجرية الأخرى.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت تعيش رفقة أبنائها الثلاثة؛ بنتان وولد صغير، وكانت من أكثر البلشفيات حماسة وذكاء، لذا فأمر طبيعي أن يلتفّ حولها وبشكل سريع كل أعضاء المجموعات الباريسية الأخرى المساهمة في الحزب».

ربطت بين إينيسّا وناديا صداقة عمل لطيفة، وبدأتا تتبادلان الزيارات فيما بينهما. صحيح أنهما امرأتان مختلفتان في كلّ شيء، لكن هذا لم يمنع من حدوث نوع من الاستلطاف والتقارب، لا سيما من جانب ناديا التي أصبحت تولي عناية خاصة بأطفال إينيسا، ربّما لأنها كانت ممّن حُرم من نعمة الأمومة.

في بيت أوليانوف الصغير كانتا تقضيان معا أجمل الأمسيات وهما تتقاسمان مهامّ العمل الخاصة بالحزب. كانت ناديا تهتمّ بالجانب المتعلق بروسيا، أمّا إينيسّا فإتقانها للّغتين الإنجليزية والألمانية أهّلها لإدارة قسم المراسلات والعلاقات الخارجية، كما تفرّغت أيضا لإدارة الشؤون الخاصّة بالاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين، لا سيما وأنّ لغتها الفرنسية كان جيّدة للغاية بل كانت أفضل من لغة العديد من المهاجرين ومن لغة لينين نفسه.

في تلك الفترة التي قضتها بباريس، أعجبت إينيسّا كثيرا ببساطة صديقتها الجديدة ناديا وبتوازن شخصيتها، إنها زوجة الزعيم وتعمل بلا هوادة إلى جانبه، فضلا عن كونها تتحمل تقلباته المزاجية، وتستمع بصبر إلى لحظات بوحه الطويلة التي ينفّس فيها عن همومه وما يشغل باله من قضايا ومشاكل عويصة، وتعرف جيدا متى تبعد عنه الأشخاص المزعجين، إنها ليست فقط زوجته، ولكنها بإيجاز؛ شديد أمينة أسراره الوفية.

وإذا كانت إينيسّا قد انتبهت إلى كل هذه الميزات الرائعة في شخصية صديقتها ناديا، إلا أنها لم تغفل الجوانب التي كانت بشكل أو بآخر مقصّرة

فيها، فهي مثلا -تقول إينيسّا بنبرة مشاكسة- لا تجيد الطبخ، ولا تتقن أمور الخياطة، وهذا أمر واضح جدا على ملابسها كما على ملابس زوجها. لكن هذا لا يمنع من القول بأنها بارعة في إعداد فناجين الشاي التي من المفترض أنها تقضي على التعب وألم الرأس وحالات الاكتئاب والغضب التي تداهم فجأة لينين. كما أنها أيضا ممتازة في التدبير المالي لشؤون المنزل، لدرجة أنها بدل أن تشتري ألبسة جديدة فإنها تلجأ إلى ترقيع تلك القديمة التي يلبسها لينين، ولا تغفل عن أن تطبخ له من حين لآخر بعض الأطباق التي يحبّها.

تعمّقت الصداقة بين المرأتين، وأصبحتا تتبادلان فيما بينهما أحاديث ذات شجون، فهاهي ناديا وقد بدأت تروي لإينيسّا قصّة زواجها بفلاديمير إيليتش، وكيف أنها بسبب مشاركتها في الإضراب العام لسنة ١٨٩٦ حُكِمَ عليها بالإقامة الجبرية في مدينة أوفا بباشكورستان، وكيف أنها بعد ذلك طلبت من السلطات نقلها إلى سيبيريا لتسافر بصحبة أمها إلى لينين وتتزوج به وتتقاسم معه أيام المنفى التي حكم عليه بها لأنه أصدر في روسيا بشكل سرّي جريدة العمل التي كان قد كتب كل مقالاتها.

تللك كانت ذكريات ناديا، تتدفق من قلبها في صحبة صديقتها الجديدة بكل عفوية ومحبة، ولم يفتها أيضا أن تحكي كيف أنها ولينين على الرغم من طابع الحزن الذي كان يسم تلك الفترة من حياتها، إلا أنه كان بإمكانها ولينين على الأقل السفر من بلد إلى آخر، واستلام البريد وإرساله وكذا الذهاب للقاء بعض الأصدقاء. وبعيدا عن الانشغال بالكتابة أو بإعطاء بعض الاستشارات القانونية لأهل المنطقة في سوسنكويه، كان لينين يقضي وقت فراغه في مزاولة هواية صيد السمك، أو في النزهات الطويلة بين الأحراش البرية في تلك الأراضي الفسيحة الشاسعة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتبقى ترجمتهما لـ (تاريخ النقابات العمالية) لمؤلِّفَيْه بياتريس وسيدني ويب من أهمّ ما قاما به في هذه الفترة، وليس هذا فحسب، فناديا لم تتوقف يوما عن مساعدة لينين في كلّ شيء حتّى عندما كانت في ريعان شبابها وسنوات زواجها الأولى به، أمّا والدتها فتكفّلت بكلّ ما له علاقة بأعمال البيت الكبيرة والصغيرة مريحة بذلك لينين وابنتها حتّى لا يشغلهما عن الاهتمام بالقضية شيء آخر.

وفي إطار رحلاتهما المتعددة زار لينين مع زوجته مدينة موناكو وزيورخ ولندن، إلا أنهما قررا في الختام الاستقرار معا في باريس وإن كانت لا تعجب كثيرا فلاديمير إيليتش، فهو ممن يعشق الهدوء وحياة المكتبات السويسرية، وباريس لن تمنحه أبدا تلك السكينة التي يبحث عنها، ولكنه تعمّد اختيارها كمحطة رئيسة بالنسبة لعمله وذلك لسبب في غاية الأهمّية: إنها ببساطة مركز تجمع الكثير من المهاجرين الرّوسيين.

فلسفة ناديا بشأن الزواج بسيطة وواضحة، فهي ترى أن الثورة بحاجة للينين، وهو بالمقابل بحاجة إلى رفيقة تساعده وتسانده، وهذا هو بالضبط ما جعل زواجهما يتميّز عن الزواج البورجوازي، فهو زواج عمّالي، وهما معا؛ ناديا ولينين يناضلان ويعملان من أجل الاشتراكية.

وماذا عن العشق والحبّ الملتهب؟ يبدو ألا مكان لهما في علاقتهما، فالأمر هنا يختلف تماما عن العشق الذي كان يجمع إينيسّا وفولوديا، ذلك أن زواج ناديا مبني على الالتزام المشترك من أجل القضية، ولم يكن ليوم من الأيام زواج مصلحة، فعلاقتهما قائمة على المودة والحوار والتفاهم المتبادل بين الاثنين، ولينين يهتم بزوجته وبصحّتها وكذلك ناديا تقوم بالشيء نفسه تجاهه، وكل شيء بينهما ينطلق من مبدأ التقدير والاحترام المتبادل، لدرجة أنهما قررا العيش

بشكل متواضع وإن كانت والدة ناديا قد تكفلت بالجانب المالي، وضمنت لهما معا كلّ شيء وأبعدت عنهما شبح الضوائق المالية أو ما يشابهها.

كان لينين حين عودته إلى البيت يذهب إلى غرفة زوجته مباشرة فإذا ما وجدها برفقة صديقتها الجديدة حيّاها بأحسن ما تكون التحية، وسألها عن العمل والأبناء وجلس معهما لبعض الوقت ولو أنه كانت تظهر عليه جيدا رغبته في الانسحاب، لذا كان يغادر المكان قاصدا غرفته ورافضا فنجان الشاي الأخير الذي أعدّتهُ له زوجته.

وإذا كانت مشاعر لينين تجاه إينيسّا واضحة ولا يجد مانعا أو حرجا في الحديث إليها كلّما جمعتهما الظروف في البيت أو العمل، فإن مشاعر إينيسّا تجاهه كانت مشوّشة، ولقد صرّحت له بهذا الأمر بعد مرور بضعة سنوات على صداقتهما: «كان ينتابني الرّعب منك، وكنت مشتتة بين الرغبة في رؤيتك وبين الخوف من تجاوز عتبة مكتبك، لدرجة أنني أصبحت أحسد أولئك الذين كانوا يأتون لمقابلتك بكل شجاعة. وحينما كنتَ تأتي إلى غرفة ناديا، كنت أشعر بأني في دوامة من الحيرة والبلبلة، والبلادة».

وإذا كان هذا هو حال إينيسا ففلاديمير كان يجد كل لقاء فرصة لمراقبتها بمزيد من الفضول وإن كان لا يظهر لها ذلك، إلى درجة أنه بدأ يشعر بأن هذه المرأة الأنيقة والبورجوازية التي أعجب بذكائها وبطريقتها في العمل وبثقافتها ومعرفتها لأكثر من لغة، من الممكن جدا أن تصبح في يوم من الأيام إطارا سياسيا مهمّا للغاية في الحزب. وهو هنا لا يعني بقوله الحزب الحالي الذي لا يعجبه فيه أيّ شيء، ولكن الحزب الذي يريد إنشاءه قريبا على أن يكون معظم أعضائه من المناضلين والإداريين الأوفياء والذين عندهم الرغبة التامة في أن يصبح فلاديمير إيليتش رئيسهم الحاكم.

لم تُخف ناديا أيّ شيء يخصّ حياة رئيس التيار البشفي عن صديقتها الجديدة إينيسّا، فلقد حدثتها حتى عن أزمة الاكتئاب الحادة التي مُني بها ومازال لليوم يعاني من آثارها نتيجة تلك الضربة القاضية التي وجهها له أعضاء اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الروسي في كانون الثاني من سنة ١٩١٠، إذ لم تكن تعجبهم أبدا الطريقة التي كان يسيّر بها الجانب المالي للمنظمة، فقد كان أحيانا يدعم السرقات الكبرى والمصادرات المالية والأعمال غير القانونية الأخرى ممّا أثار ضدّه حنق المناشفة. وليس هذا فحسب فحتى الجماعات التي ساندته وساعدته إلى أن ملأ خزانات الحزب، قدّمها إلى المحاكمة بعد أن تمّ له المراد. كلّ هذه الأمور وطريقته القاسية في التعامل مع الجميع جعلت منه رجلا لا يطاق حتّى بالنسبة لليسار الذي كان يقوده بوغدانوف، وكانت النتيجة بالتالي أن تخلّى عنه الجميع بما فيهم رفاقه المخلصين وكان أولهم بوغدانوف نفسه وكذلك غوركي ولوناشارسكي. لقد كان من المفترض - تضيف ناديا - أن يغلق الجريدة في منطقة بروليتاري، وأن يعيد إلى اللجنة المركزية المال الذي أخذ من «غير وجه حق». فضلا عن كونه حتّى حينما كان في المؤتمر الدولي الذي أقيم في مدينة كوبنهاغن، لم يسلم من النّقد اللاذع والعنيف. في تلك الشهور الصعبة أيقن لينين أنه أصبح رجلا غير مرغوب فيه من طرف معظم أعضاء المنظمة، وأنه أصبح من المستحيل التعايش مع المناشفة أو «رجالَ التصفيّات» كما كان يسمّيهم دائما في كتاباته القاسية والشديدة اللهجة عنهم.

هناك ثورات جديدة على الأبواب، ولكي يتمّ تفادي سقوط روسيا مرّة أخرى في بحار من الدّم كما وسبق أن حدث إبّان وقائع سنة ١٩٠٥ فإنه يجب التفكير في تأسيس منظمة جديدة قادرة على التحكّم في مسار حالات

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التمرّد القادمة، وإعداد برنامج جديد للعمّال والفلاحين. ولأجل كل هذا لا بدّ من توافر المزيد من الحزم والجدية وقوة الشخصية ورباطة الجأش، وهذا كلّه لا يمكن تحقيقه إلا بإنشاء حزب جديد خاص بالبلاشفة المخلصين ويكون لينين هو رئيسه وممّوله ومُزوّده بالأعضاء ذوي المؤهّلات العالية، كإينيسّا مثلا التي كان يرى فيها لينين العضو الأكثر ترشيحا لأن يصبح من أهمّ العناصر المؤسسة معهُ للحزب الذي ينوي الإعلان عنه قريبا.

ومادام الأمر كذلك، فإنه أصبح يطلب منها ترجمة العديد من الوثائق، وكتابة الرسائل والتقصي عن علاقات عامّة جديدة تصبّ في اهتمامات الحزب وتطلّعاته، مما أعطى لعلاقتهما بعدا آخر، ومنحهما فرصة أكبر ليلتقي أحدهما بالآخر كل يوم.

كان زعيم البلاشفة يعتقدُ لوقت قريب أنه يبحث في إينيسّا عن ما قد يكون نافعا وصالحا للحزب والقضية، ولم ينتبه تماما أن الأمر فيه شيء آخر لا علاقة له بالعمل، ولا بالنضال السياسي، وأنّ رفاقه في الحزب وفي مقهى دي مانيّور قد لاحظوا جيّدا أنّه فُتِنَ بجمال هذه المرأة، وبلطفها وشخصيتها المرحة المفعمة بالحيوية والنشاط، وإلّا فما معنى تلك السعادة العارمة التي كان يشعر بها كلّما أبدت لهُ رأيا يدلُّ على إعجابها بما يكتبُ أو بما يلقي أمام الرّفاق من خطابات، وما معنى ألّا يرفع عينيه من عليها، كلّما التقاها صدفة في بعض اجتماعات الحزب؟! إنها تعجبه، لأنها إينيسّا وكفى، وهذا بالضبط ما كان يجعله يشعر أمام نفسه قبل أيّ أحد آخر، بأنه أصبح رجلاً هزمَهُ العشقُ.

(١١)

في معهد الثورة

كان فلاديمير إيليتش يحبّ التنزّه في طرقات باريس والقرى المجاورة لها راكبا دراجته الهوائية، حتّى يتمكّن من التعرّف أكثر على مكان إقامته الجديد وكل ما يحيط به، وقد اكتشف ذات يوم قرية جميلة في الجنوب اسمها لونغجيمو، يصلها بالعاصمة طريق حافل بعربات نقل الفواكه والخضراوات، فقال في نفسه إن هذه القرية لا شك ستكون مكانا مثاليا لإنشاء معهد صيفي من أجل إعداد الأطر الجُدد الخاصين بالحزب زيادة في الأمان والابتعاد بهم ما أمكن عن أعين البوليس السرّي الرّوسي الذي أصبح من المتوقع اختراقه بطريقة أو بأخرى المنظمة ومراقبة كلّ تحرّكاتها. وأجمل ما في هذه القرية أنه لا توجد بها فِلَلْ خاصّة بالباريسيين، إضافة إلى أثمانها المنخفضة بالمقارنة مع أسعار المنازل في العاصمة.

الأخبار القادمة من روسيا لا تطمئن أبدا، ففي الجامعات والمصانع تضاعفت المظاهرات وإضرابات العمال، ولأجل هذا يعتقد لينين أنه أصبح من الضروري إعطاء الأولوية القصوى لمسألة تأسيس الحزب وتكوين أطره في أسرع وقت ممكن، حتى يكون الجميع مستعدين لمواجهة الطوارئ والاحتمالات والمفاجآت القادمة من روسيا الثائرة.

تجربة إنشاء معاهد أو مدارس لتكوين الأطر، ليست بالفكرة الجديدة على بعض من الأعضاء المميزين في الحزب، فقد سبق وتمّ إنشاء مدرستين كبيرتين في إيطاليا بمدينتي بولونيا وكابري، وكان يديرهما آنذاك بوغدانوف وجوركي ولوناشارسكي، لكن لينين لم يكن متفقا مع الخطّ

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

السياسي العامّ المنتهج فيهما، لـذلك فهـو يريـد أن ينـشأ مدرسـة أخـرى في لونغجيمو الفرنسية تكون مختلفة ومؤهلة للقيام وأطُرَها بالثورة الحقّة.

بعد أن تمّ إيجاد المكان النموذجي لإنشاء المعهد الجديد أصبح من الضروري السعي إلى تحضير المقررات الأكاديمية وتحديد الدروس والبرامج ثم اختيار الأساتذة الأكفياء. ولينين اليوم لا يساوره شكٌ أبدا في أنّ إينيسّا هي المؤهّلة الأولى لتولّي زمام هذه الأمور بكل ثقة وعلوّ همّة. ولم يخب ظنه فيها، فما توقّعه حدثَ، إذ كانت هي من سعى إلى استئجار منزل كبير بصالة أكل واسعة، يجتمع فيها الطلبة والأساتذة كل يوم من أجل تناول الوجبات التي ستعدّها لهم مديرة شؤون بيتها، كاتيا مازانوفا.

في هذا البيت الجديد وبالطابق العلوي توجد غرف إينيسّا وأبنائها، ثم غرف ثلاثة طلبة وبينهم سيرغو أوردزونيكيدزه، بلشفي من القوقاز تجمعه بلينين صداقة كبيرة، وهو الرجل الذي سيصبح فيما بعد الذراع اليمنى لستالين. أمّا ما تبقّى من أعضاء الحزب الجديد فإنّ إينيسّا وجدت لهم منازل أخرى في القرية ذاتها، بما فيها منزل العامل الدبّاغ الذي سيسكنُ فيه لينين مع زوجته. ولم تغفل إينيسا عن أن تُعِدّ مكانا آخر صغيرا بالقرب من المعهد كورشة للتدريس.

لقد فكرت إينيسا في كلّ شيء، ولم تغب عن ذهنها حتّى التفاصيل الصغيرة، ولولاها لما ولدت ما اتفق أهل التأريخ على تسميته فيما بعد بأول جامعة ماركسية.

خلال أيّام التدريس قام لينين بإلقاء ثلاثين محاضرة عن الاقتصاد السياسي، وعشرة أخرى عن الشؤون الزراعية، وخمسة ثالثة عن الاشتراكية بين النظرية والتطبيق. أما محاضرات زينوفيف وكامينيف فكانت تدور حول حول تاريخ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، فضلا عن

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الدروس المختلفة والمتنوعة الأخرى التي خُصّص بعضها لتعميق قضية تطور الأحزاب الوطنية.

أمّا المواد الأدبية فكان يقوم بتدريسها أناتولي فيسيليفيتس لوناشارسكي. بقيت مادة التقنية الصحفية وهذه كان يهتمّ بتدريسها نيكولاي فالينتينوف فولسكي.

في آخر كل أسبوع كان المعهد ينظم رحلات إلى الضواحي، وكان الطلبة والأساتذة يذهبون لزيارة أماكن الثورة الفرنسية، أو إلى متحف اللوفر بباريس من أجل الاستمتاع بالإبداع الغربي في مجال الفن تحت إشراف أستاذهم المتألق لوناشارسكي.

كانت المدرسة سرية تماما، فحتّى سكان القرية الصغيرة قيل لهم إن القادمين الجدد هم مجرد أساتذة روسيين، وصدّقوهم، وإن ظلّ الفضول يقضم مخيلات بعضهم، خاصّة حينما كانوا يرون هؤلاء الأجانب يمشون حفاة. وكانوا يبقون مندهشين أكثر فأكثر حينما كانوا يسمعونهم يرددون تلك الأغنيات الحزينة التي تحكي عن معاناة عمّال جرّ سفن نهر الفولغا، والسيبيريين كاسري الحجارة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.

إينيسّا في خضمّ كل هذه النشاطات، تفرّغت لتدريس الاقتصاد السياسي، وكانت تهتمُّ أيضا بإدارة المناقشات التي كانت تفتح بعد أن ينهي لينين محاضراته، إضافة إلى هذا، كانت تراقب سير الأمور في المدرسة كلها، وتسهر على أن تظل العلاقات متلاحمة بين الطلبة والأساتذة، وأن يكونوا جميعا على قدر كبير من التفاهم والتآزر حتى تكون المردودية ذات جودة عالية.

وفي غضون أيام قلائل أصبحت إينيسّا أهمّ عضو في المجموعة كلّها، «ولولاها لما استطاع أحد أن يحقق أيّ إنجاز، بل حتى هذه الأجواء

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحميمية بين الرفاق هي وحدها من سعى إلى خلقها» هذا ما قاله أحد المشاركين. أمّا ناديا كروبسكايا، فقالت بعد مضي بضع سنوات على تأسيس المعهد: «كان الطلبة يدرسون بهمّة عالية، وبجدّية ونشاط، وفي المساء كانوا يقومون إمّا بالتنزه بين الحقول وهم يغنّون، أو بالاستلقاء فوق أكوام التبن للتسامر».

في الأيام الأولى، إضافة إلى انشغالها بأمور المعهد، حاولت إينيسا أن تقتطع لنفسها بضع سويعات خصصتها لدورة من الدروس التي تهتم بالقضية النسوية، وهي دروس تشبه لحدّ ما تلك التي قامت بها في معهد بولونيا أليكساندرا كولونتاي، وذلك لأن إينيسّا تعتقد بأن مثل هذه المحاضرات مهمة للغاية من أجل التكوين الجيّد للنّواة المُسيّرة لشؤون الحزب. إلا أنّ لينين كانت له وجهة نظر أخرى، فهو كان يعلم جيدا أن إينيسا لا تنقصها أبدا دروس من هذا النوع، وأنها على قدر عال من الثقافة والإلمام بكل القضايا، لذا نصحها بالتوقف، دون أن يكفّ أبدا عن مساندتها فكريا وعمليا في كلّ ما يتعلّق بشؤون المرأة وقضاياها السياسية. ولأنّها تثق بفكره المتوقّد وافقته الرأي، وتركت الدروس على أن تكملها في فترة أخرى مادام المعهد الآن هو من في أمسّ الحاجة لكل مجهوداتها وطاقتها الفكريين.

في هذه المدّة التي أقامت فيها إينيسّا بلونغجيمو، تبرعمت بينها وفلاديمير إيليتش صداقة من نوع خاصّ، تتجاوز حدود الاهتمام فقط بأمور «القضية»، لا سيما وأن هذا الرباط بات يتعمّق كل يوم أكثر فأكثر بسبب تلك الأوقات التي كانا يقضيانها معا بعد انتهاء حصص المحاضرات، خاصة وأنهما كوّنا مع كلّ من أوردزونيكيدزه ولوناشارسكي مجموعة صغيرة يخرجان في إطارها مساء لقضاء بعض الأوقات الممتعة في باريس وبالذات في بعض مقاهيها، وفي بعض صالات مسارحها الرائدة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وحتى وإن كانا دائما برفقة الأصدقاء، فإنهما كانا يحاولان دائما أن يجدان الفرصة للبقاء لوحدهما والاهتمام ببعضهما البعض وتبادل بعض الكلمات أو الملاحظات والتعليقات، وكان فلاديمير إيليتش يترك نفسه تنساق لإينيسّا ولطفها البديع، مبتسما لها دون أن يتحرّج أبدا في إظهاره للجميع أنها المفضّلة لديه.

في لونغجيمو بدأت تشعر إينيسّا بأنّ ذاك الذي كانت تعتقده صداقة تربطها بفلاديمير إنّما هو شيء آخر غير الصداقة أو العمل النضالي السياسيّ، إلا أنها مازالت غير جاهزة لتسميّ هذا الشعور «حبّاً»، لا سيما وأنّ الأمر الآن مختلف تماما، فهو لا يشبه ما عاشته مع زوجها السابق إليكساندر من علاقة مبنية على الثقة والأمان، ولا حتى ذاك العشق الذي جمعها بالرّاحل فلولوديا، ولربما ما هذا كله سوى حجج واهية تحاول بها التهرّب من مواجهة نفسها والاكتفاء بادعاء أن هذا الانجذاب إلى فلاديمير إيليتش، ماهو إلا نوعا من الاحترام الذي تكنُّه له بصفته رئيسا لها في الحزب. لكنّ إينيسّا نسيت أو تناست أنّ حتى تلك الابتسامات الموجّهة لها والتي كانت تضيء من حين لآخر وجه فلاديمير الحازم أبدا، كانت تعني لها الشيء الكثير، بل حتى اهتمامه بها ووجوده إلى جانبها كل يوم، كانا هما سرّ كلّ نشاطها وحيويتها وقدرتها المستمرة على العطاء.

حتى فلاديمير إيليتش بات يشعر بأن شيئا ما بصدد التغيّر في علاقته مع إينيسّا، وإن كان من أولئك الذين يعتقدون بأنه لا يجب أثناء العمل من أجل القضية أن يفسح المجال أبدا لقصص العشق أو الحبّ، فما هي سوى نوع من الجنون البورجوازي. لكن الذي يحدث بينهما غير ما يحاولان تبريره أو التهرب منه معا، فهو لم يبد أيّة معارضة لهذا التيار اللذيذ الذي يتحرّك بداخله، ولا حاول أن يفهم سرّ هذا الانجذاب والتقارب اليومي بينهما، ولا

هي أيضا، إنهما معا لا يعارضان هذا الحبّ المتبرعم بينهما، وإن كان هـو مـن جهته يحاول أن يقنع نفسه بأنّ المرأة التي يرتبط بها حقا هي ناديا وأنّ علاقته بإينيسّا لن تؤثّر أبدا على زواجه منها، إذ ليس هناك ما يثير أي خوف أو قلق فحتى ناديا نفسها تستلطف إينيسا وتربط بينهما صداقة جميلة، بـل تجمعهـما الكثير من الأشياء وبعض المشاريع التي تسهران على تحقيقها معا، بل يـصل بهما الأمر إلى إعلان نوع من التضامن الأنثـوي خاصـة حينـما تنتـاب لينـين بعض حالات الغضب، أو تقلب المزاج المفاجئ.

لهذه المشاعر التي تربط لينين بإينيسا لم ينتبه فقط الأصدقاء، وإنـما أيـضا الناس المقرّبين جدا، ككامينيف وزينوفيف، وبعض الطلبـة الـذين رأوهـم خلسة في إحدى المقاهي، ولينين الرجلَ المتقشف صاحب الوجـه العبـوس، يضحكُ كالطفل الصغير بكل طلاقة وحيوية بشكل أثار دهشة الجميع.

لحكاية لينين مع إينيسّا انتبهت أيضا إيليزافيتا فازيليفيا تيستروفا، والـدة ناديا التي لم تعد قادرة على إخفاء اشمئزازها مما كانت تراه من اهـتمام لينـين بإينيسا المبالغ فيه حتى على مائدة الغـداء، إذ أنـه كـان لا يتحـدث إلا معهـا ويترك زوجته تقضمها الوحدة والعزلة. وليس هذا فحسب، ففي كثير مـن الأحيان كانت الأمور تزاد حدّة وخاصة أثنـاء غيـاب ابنتهـا ناديـا، إذ كـان الاثنان لا يخفيان أبدا مشاعرهما الفيّاضة.

حاولت الأمّ أن تحذر ابنتها وتنبهها لما يحدث أمـام عينيهـا، لكـن بـدون جدوى، فناديا كانت ترفض تماما أن يناقشها أحد في سلوكيات زوجهـا ولا حتى في سمعة صديقتها إينيسا.

لقد كانت وضعية ناديا حرجة للغاية، فهي بحاستها كأنثى كانـت عـلى علم تامّ بما يحدث حولها، إلا أنها اتخذت قرارا حاسما وأليما في الوقـت ذاتـه وفقا لما صرّح به أليكساندر سولزينسين: «ألم تكن حقا ناديا قـادرة عـلى وأد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تلك العلاقة منذ البداية وإبعاد إينيسا عنها وعن لينين؟ أم أنها لم تقم بـذلك لتفي بالوعد الذي قطعته على نفسها في أن تعمل كل ما في وسعها من أجـل أن تضمن للينين حياة هنية خالية مـن المشاكل والتعقيـدات. نعـم، ناديـا أرادت أن تكون وتظل حاضرة في حياة زوجهـا، دون أن تـتخلى طبعـا عـن كرامتها ورغبتها في الانسحاب متى رأت أن الظروف تستوجب ذلك».

الواقع يقول إن ناديا كانت تتجاهل ما كان يعلمه الجميع، وحينما باتـت لا تستطيع تحمّل الموقف كله لم تفتح فاها بشيء ولم تطلب من لينين أيّ شيء بتاتا، بل على العكس من كل التوقعات كان كل ما فعلته، أن طلبت منـه أن يخبرها إذا كان لا بد لها أن تنسحب من حياته وتترك له المجـال كـي يعـيش قصة حب بكل حرية وأريحية. إلا أن لينين أجابها بدون أدنى تـردد، أنـه مـا من شيء يستدعي كلّ هذا، وأنه من الأفضل لها أن تبقى في بيتها. وفعلا ذاك ما كان، إذ بقيت إلى جانبه صامتة تعيسة ومصرّة على قرارهـا في المقاومـة إلى النهاية، «لأنها كانت على يقين بـألا امـرأة سـتكون في حيـاة لينـين كزوجـة سـواها»، يكمـل دائـما أليكـساندر سولزينـسين، وبنـاء عـلى قرارهـا هــذا استمرت ناديا في العيش مع زوجها، وحافظت كـذلك عـلى صـداقتها مـع إينيسّا، كسلوك حضاري واضح جدا تجاه رفيقتها في العمل، ولم تخف أيـضا إعجابها بسير الدراسة في المعهد، بـل كانـت في بعـض الأحيـان تـشاركهم الرحلات إلى القرى المجاورة. لكن كل هذا لم يمنع مـن أن تعبّر ناديـا عـن موقفها تجاه كل ما يحـدث فكـان أن توقفـت عـن مـشاركة لينـين الـسرير، وذهبت للعيش والنوم مع والدتها في الغرفة الأخرى.

ناديا هي زوجة لينين أمام الناس والتاريخ، وإينيسا صديقة العائلة، هـذا ما خططت له ناديا، وهذا ما حدث بالفعل وبقي مدونا في مذكرات الزوجة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

التي ظهر فيها اسم إينيسا لمِئة وثلاثين مرة، دائما بصيغ التقدير والاحترام، فهي صديقة ومساعدة جيّدة وثائرة صلبة وقوية.

من جهة أخرى لم تكن إينيسّا تشعر تجاه ناديا بأيّ نوع من المنافسة أو الندم وتأنيب الضمير، فحياتها الخاصة كانت دائما ذات طابع متحرر ومخالف لما اعتاده الناس، ربما لأن قصة حياتها نفسها مختلفة نوعا ما عن حكايات الآخرين، فهي حينما جاءت للوجود وجدت والديها مرتبطين برباط الحبّ لا الزواج، ثم أنها حينما أصبحت امرأة متزوجة انفصلت فيما بعد عن زوجها، وعاشت قصة حبّ جديدة مع الشاب فولوديا الذي لم يكن سوى عمّ أبنائها، وعلى الرغم من كل هذا فقد استطاعت أن تحافظ على علاقات جيدة مع الجميع من عائلة أرماند، لأنها تنطلق في كل هذا من فكرتها عن النضال السياسي الذي يعني بالأساس محاربة كل القيود بما فيها تلك ذات الطابع العائلي التي غالبا ما تعوق حياة الكثير من الناس، ولقد كانت قدوتها في هذا التفكير فيرا بافلوفنا بطلة رواية (ما العمل؟)، إذ مثلها كانت إينيسا تتصرف بحرية وتحاول أن تعيش قصة عشق جديدة مع لينين مع الحفاظ في الوقت ذاته على صداقتها مع ناديا.

أغلقت أول جامعة ماركسية أبوابها في نهاية شهر آب ١٩١١، وعاد الطلبة إلى روسيا، أما الأصدقاء الأحبة الثلاثة لينين، إينيسا وناديا، فعادوا جميعا إلى باريس. طبعا البوليس السرّي الرّوسي كان يعرف كل شيء عن الجامعة وعن من أنشأها ومن يدرّسُ فيها، فالطالب فاسيلّي والذي كان عادة ما يناديه لينين ضاحكا «بالطالب المتميّز»، لما لاحظ فيه من نجابة واجتهاد، لم يكن سوى عميل للبوليس السرّي القيصريّ.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(١٢)
في الاستماع إلى بيتهوفن

كان لينين يسكن في ماري روز، وهو شارع صغير يوجد بحيّ بوتي- مونتروج، في المقاطعة الرابعة عشر. وإلى سنة ٢٠٠٧، وبالقرب من الباب الكبير رقم ٤، ظلت معلقة لافتة صغيرة كُتبت فوقها العبارة التالية: «هنا عاش لينين من تمّوز ١٩٠٩ إلى حزيران ١٩١٢»، ولقد كان المنزل يتكون من غرفتين موزّعتين على مساحة ما يقارب ٤٨ مترا مربّعاً، وظل لسنوات عدّة في حوزة الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان يتركه مفتوحا كمتحف صغير يؤمّه الزّوار من كلّ مكان.

عن البيت نفسه توجد بعض التفاصيل ذكرها مناضل بلشفي اسمه أليكسي ألين في كتابه الذي نشرته سنة ١٩٢٩ المكتبة المادّية، وهذا مقطع منها: «ما إن تدخل تجد أمامك ممرّا صغيرا يقودكَ مباشرة إلى الغرفة الأولى، حيث توجد طاولة بيضاء كبيرة مغطّاة بمفرش بلاستيكي أسود وحولها كرسيان. أمّا الكتب فتجدها ملقاة في كلّ مكان: فوق الطاولة، فوق الكراسي، وفوق الأرض. وفي الطرف الأخير من البيت، يوجد بركن صغير، مخدع لينين وزوجته، وبه سريران من الحديد المطاوع، أمّا الغرفة الأخرى فكانت تعيش فيها والدة ناديا؛ امرأة حكيمة وصبورة».

وقد تحدثت ناديا كروبسكايا في مذكراتها عن هذا البيت الفرنسي قائلة في وصفه بصيغة أخرى: «كان يتكون من غرفتين ومطبخ، مع شرفات تطلّ

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

على حديقة جميلة. المطبخ أصبح فيما بعد صالون المنزل الذي كانت تدور فيه كل مناقشاتنا وأحاديثنا الخاصّة».

في آذار ١٩٦٠ وبمناسبة تواجده بفرنسا قام الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف بزيارة منزل لينين وكان بصحبته آنذاك سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي موريس طوريز. وفي ١٩٨٧ ذهب ميخائيل غورباتشوف ووجد في انتظاره جورج مارشيه الذي كان آنذاك زعيم الشيوعيين الفرنسيين، كما وجد أيضا بعضا من المناضلين الذين كانوا يهتفون «يحيا الاتحاد السوفياتي». أما في سنة ٢٠٠٧ فقد قام الحزب الشيوعي الفرنسي بتأجير البيت إلى إحدى المجلات الأدبية في محاولة منه لسداد الديون المتراكمة عليه. كما تمّ نقل السرير والمكتب والكراسي إلى مقرّ الحزب الكائن في شارع كولونيل فابيان بالمقاطعة العاشرة. في حين قرر سكان العمارة إزاحة اللافتة، ولم يبق فيها اليوم، أيّ أثر من بيت الزعيم البلشفي سوى عدّاد الغاز الذي يعود إلى سنة ١٩٠٥

في الشقة رقم ٢ من الشارع نفسه كانت تسكن إينيسا، بل في عمارة تشبه كثيرا تلك التي يسكن فيها لينين مع زوجته. وكما يبدو واضحا فإن المسافة بين العمارتين لا تتجاوز البضعة خطوات، حتى ولكأنهما يعيشان مع بعضهما البعض، وهو القرب الذي كان مُبرّرا دائما بالعمل المشترك الذي يجمع إينيسا بعائلة أوليانوف.

وبمرور الأيام أصبح الجميع يكوّنون أسرة صغيرة متكاملة؛ إينيسّا وأطفالها، ولينين وزوجته وحماته. إنه عالم جديد هذا الذي أصبحت تعيشه العائلة الجديدة، عالمٌ من المحبّة والوداد، والالتزام السياسي، قبل

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وبعد كلّ شيء. فلقد كان أبناء إينيسا يذهبون باستمرار للقاء «الخال» لينين و«الخالة» ناديا. أندريه الصغير الذي يبلغ من العمر الآن سبع سنوات يقول عن نفسه بكل افتخار إنه «بلشفي»، وإذا ما تشاجر مع أحد أقران اللعب الصغار، كان يردُّ لهُ الصّاع صاعين ناعتاً إيّاهُ بـ «المنشفي» إمعانا منه في إهانته.

ناديا وفلاديمير كان يعتبران هؤلاء الأطفال أحفادا لهما، بل كانا في معظم الأحيان يتعاملان معهما وكأنهما الأبناء الذين لم يرزقا بهم.

والآن وقد استقرّتا معا في هذا الحي الجديد، عادت إينيسّا وناديا إلى عملهما المشترك معا بدون أيّة مشاكل أو مناقشات أو أيّ مظهر من مظاهر التنافس والغيرة بين المرأتين، على العكس تماما من تلك التطاحنات التي كانت تطبع علاقة كل من أليكساندرا كولّونتاي وأنجيلكا بالابانوف، فلم يسبق أبدا لناديا أن انتقدت شيئا في إينيسا كما فعلت تجاهها أنجيلكا التي لم تتوان عن انتقاد أزيائها لأكثر من مرّة. صحيح أنّ إينيسّا كانت أنيقة للغاية، لكن بدون أدنى مبالغة، فأزياؤها الجميلة كانت في كل الأحوال ذات طابع «بلشفي» وخالية من كل مظاهر «البذخ الفاحش». ولقد كانت ناديا تحبّ الطريقة التي تظهر بها إينيسّا وسط المجتمع الفرنسي، فهي بالنسبة لها، تستطيع أن تحافظ على تألقها وبريقها بقبّعاتها اللطيفة وشخصيّتها الرّائعة، على الرغم من عملها الشاق اليومي. في حين لم تحاول ناديا ولو لمرّة واحدة أن تبدو جميلة، حتّى أنها مع تقدّم السّن أهملت نفسها وأصبحت بدينة، لدرجة أن أخت لينين وصفت وجهها ذات يوم قائلة لها، إنه بات يبدو كسمكة الرّنج المملّح.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت إينيسّا تحترم كثيرا ناديا وتقدّر أيّما تقدير حبّها لأطفالها والطريقة التي تتعامل بها معهم، وحنانها وعطفها عليهم. وقد يبدو كل هذا أمرا غريبا لدى الغير، إلا أنه ليس كذلك بالنسبة لهما، فلقد استمرتا في عملهما المشترك بكل جدية ونشاط، وفكرتا أيضا في النضال حتى من أجل القضية النسوية عبر تنظيمهما معا لمشروع يهدف إلى الاهتمام بالتربية الماركسية للنساء الروسيات اللائي يعملن في باريس بمجال الألبسة والموضة، كما سبق وأشار في كتاباته المؤرّخ الفرنسي جان فريفيل الذي كان سكرتيرا لطوريز وبيوغرافيا مهتمّا بحياة إينيسّا أرماند.

لينين في كل هذا ما كان عليه سوى أن وافق وأيّد مشروعهما الجديد، في الوقت الذي عارضه الكثير من البلشفيين اعتقادا منهم بأن النساء لسن بحاجة لهذا النوع من التربية، وأن مشاكلهنّ هي أقل بكثير من مشاكل العمال الآخرين، فكانت النتيجة أن اضطرت إينيسا وناديا إلى العدول عن المشروع دون التخلّي عن فكرة وجوب الاقتراب دائما أكثر فأكثر إلى نساء الحزب والقيام بحملات توعية للبلشفيين بمدى أهمية قضية تحرير المرأة.

وعلى إثر هذا الانسجام الذي كان يجمع بين المرأتين، تحسّنت كثيرا علاقة ناديا بزوجها، فبعد أن تأكّدت من أن لينين لن يتركها من أجل صديقتها، عادت الأنهار إلى مجاريها، لا سيما أنها تعرف جيّدا زوجها، فهو لا يمكنه أبدا أن يغامر بسمعته وسط الحزب من أجل مشاعر ملتهبة بدأ يشعر بتأججها في قلبه تجاه امرأة أصغر سنّا من زوجته، ومن أصول بورجوازية أيضا! فزعيم البلاشفة يجب أن يكون رجلا صارما، وعلى حياته أن تكون خالية تماما من أيّة مغامرات من هذا القبيل.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هذا ما يقوله المنطق ويقرّ به العقل، إلا أن العشق، وكما يعلم الجميع لا يقرّ أبدا لا بالعقل ولا بغيره، إنه هكذا، متى حلّ جرف معه كل شيء، والواقع يشهد بأن علاقة إينيسّا بلينين أصبحت تتعمق يوما بعد يوم، حتّى أن إينيسّا تغلبت على خجلها وارتباكها القديم أمامه، وبدأ هو أيضا يثق بها إلى أبعد الحدود، فهي الوحيدة التي تفهمه من مجرد لمحة عين، وتعرف كيف تحقق برامجه ومخططاته، وكيف تحلّ مشاكله العويصة، وتدير العلاقات العامة وكيف تعالج بعض «العمليات غير النزيهة» في إطار العمل السياسي، ذلك أنها كانت غالبا ما تستغلُّ في مثل هذه الأعمال، مظهرَها البورزجوازي، وأناقتها الرفيعة التي لا تجعلها محطّ شكّ أو ريبة أيّ أحد.

باتت إينيسّا لا تكتفي بمهامّ الترجمة ولا حتى بالمراسلات، لقد أصبحت مكانتها مهمة للغاية في الحزب، فهي اليوم رئيسة مجموعة الدّعم المسؤولة عن العلاقات بين البلاشفة المقيمين في الخارج، وأصبحت بشكل أو بآخر تؤثّر في قرارات لينين ناصحة إياه بالتخفيف من حدّة طبعه المتهوّر أحيانا.

في تشرين الثاني ١٩١١ انتحرت لاورا ابنة ماركس وزوجها بول لافارغ، ونزل الخبر كالصاعقة على لينين، وشعر بحزن ومرارة شديدين: حزن لأنّ الراحليْن كانا عزيزين جدّا على قلبه، ومرارة لأن ما قاما به من وجهة نظره لا يمكن نعته سوى بالتنازل والجبن في وقت كانت الثورة مازالت في حاجة إليهما، وكان مازال هناك الكثير ممّا يجب القيام به من أجل القضية.

لكن على الرغم من هذا الشعور المتناقض بشأن حادثة الانتحار هذه، إلا أنّ الأمر لم يمنع من كون لينين ألقى خطابا متميّزا في مقبرة بيير لاشيز،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت قد ترجمته له إينيسا، وقد عبّر فيه عن بالغ أساه ومدى تأثره برحيل لافارغ الذي كان الجميع، سواء من العمّال أو الاشتراكيين الديمقراطيين يكنّون له عميق التقدير والاحترام، لأنه كان من أهمّ المفكّرين الذين ساهموا بشكل كبير في نشر الفكر الماركسي.

في إحدى الأمسيات دعت إينيسّا، لينين وزوجتَه، إلى بيتها لتريهما آلة البيانو التي قامت باستئجارها حديثا، ولقد ذهب لينين على الرغم من أنّه تربطه بالموسيقى علاقة حب وكراهية معاً، كما سبق وصرّح لصديقه غوركي قائلا: «إنها تثير أعصابي، ولا أستطيع الاستماع إليها دائما، أعتقد أنها تدفع الإنسان إلى قول أشياء لا معنى لها، كما أنّها تحفّزه على خلق أشياء أخرى ي غاية الجمال، وإن كان يعيش في جحيم لا يطاق، لاسيما وأننا نعيش في زمن يجب ألا تُدَغْدَغَ فيه مشاعر أحد، وإلا فمن المحتمل أن يجد الإنسان نفسه وهو يعضّ يده من شدة الحسرة والنّدم».

وعلى الرغم من ذلك، فهذا لم يمنع من أن هناك أنواع معينة من الموسيقى التي كان الزعيم يحبّ الاستماع إليها، لذلك اقترحت ناديا على إينيسّا أن تعزف لهما (سوناتا الشفقة) لأنّها المفضّلة لدى لينين. وبعد بيتهوفن عزفت إينيسا مقطوعات أخرى لشوبان ولِيستْ، ومن ذاك اليوم تكررت المعزوفات وبدأ لينين يظن وهو ينظر إلى تلك الأنامل اللطيفة وهي تتحرّك فوق مفاتيح البيانو، أنه حتّى أثناء العمل من أجل الثورة من الممكن جدّا أن يجد الإنسان بعض الوقت من أجل ارتكاب بعض الحماقات اللذيذة، أو بمعنى آخر، أن يدع نفسه للموسيقى تدغدغ من حين لآخر مشاعره.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

في أشهر هذا الخريف تعمقت العلاقة بين الاثنين أكثر وأكثر، سواء على مستوى الرؤى السياسية أو العاطفية، وأصبح لينين وإينيسا إلى جانبه أكثر قوة، وكيف لا يكون الأمر كذلك وهي التي باتت تتصدى لأكثر المشاكل السياسية تعقيدا في حياته. فبعد فترة لونغجيمو، وبعد إعداد الأطر المؤهّلة للعمل السياسي الجديد في إطار الثورة، أصبح الآن أمرا ضروريا الإعلان عن تأسيس المنظمّة الجديدة وقطع أيّة صلة مع «المُصَفّين»، لكن قبل ذلك يجب التوصل إلى طريقة تجعلُ الحزبَ الجديد أمرا واقعا عبر الانفصال عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي القديم، ومحاولة إقناع البعض من أعضائه بالانضمام إليه، لكن يبقى المشكل الرئيس هو معرفة التوقيت الصحيح للقيام بكل هذا، وإلا فإنه سيخسر كل شيء، لا سيما وأن معظم قيادات الحزب القديم ضدّه، بل يوجد حتى من البلاشفة من يعارض طريقته في العمل ولا يوافقه الكثير من الرؤى والأفكار. أمّا إذا تمّ الإعلان عن عقد مؤتمر جديد وفقا للطقوس التقليدية المتعارف عليها، فإن كل مشاريع لينين المستقبلية ستتبخّر تماما وتؤول إلى الضياع المُحقّقِ. لذا، يبدو أنّ كثرة التفكير في هذه التفاصيل ماهي إلا مضيعة للوقت، وأنه قد حان أوان تطبيق ما تمّ التخطيط له منذ زمن، وإن اقتضى الأمر القيام ببعض الحركات غير الأخلاقية من وجهة نظر البعض من الناس: يجب وعلى وجه السرعة عقد اجتماع مفاجئ ببراغ في كانون الثاني ١٩١٢، وبالتالي العمل مباشرة على تأسيس مجموعة جديدة مكوّنة من الأعضاء الذين سيحضرون هذا الاجتماع الطارئ مع الحرص على عدم الاهتمام تماما بما قد يقوله أو سيقوم به المعارضون.

ولكي يحقق الاجتماع أهدافه وجبت مشاركة الأعضاء المقتنعين تماما بالمشروع اللينيني الجديد والذين لديهم القدرة على كسر القواعد، غير آبهين بانتقادات «المصفّين»، ولا بشكوك «الأخلاقيين» الذين انتقدوا لينين ونعتوا أعماله بغير اللائقة فيما يتعلق بقضية تمويل الحزب.

لماذا براغ، ولماذا كانون الثاني، مكانا وزمنا اختاره لينين وإينيسا لعقد مؤتمرهما الجديد؟ ليس الأمر صدفة بتاتا، فكل شيء هنا مدروس بعناية فائقة، فبراغ هي من ضمن المدن الأوروبية التي لا يمكن دخولها إلا بجواز سفر، أما لماذا فصل الخريف، فذلك حتى يصعب أمر دخول معارضي المشروع إلى المدينة، ليس فقط بسبب ضرورة توفرهم على جواز سفر، ولكن بسبب سوء أحوال الطقس أيضا.

أرسلت إينيسّا دعوات الحضور مرفقة بنبذة موجزة جدا عن مشروع لينين الجديد للأعضاء الذين تثق بهم وتعرف أنهم يؤيدون هذه الخطوة التجديدية في تاريخ الثورة الروسية، ولقد كان الحظ حليفها والزعيمَ البلشفي، ذلك أن صديقهما تروكي، وهو مسؤول عن إصدار إحدى الجرائد بفيينا فهم جيّدا ما الذي بصدد الحدوث فما كان منه سوى أن دعا إلى تنظيم اجتماع آخر بعد شهور قليلة مضت على انعقاد الاجتماع الأول.

أمّا بالنسبة للمناشفة فقد قرروا عدم الحضور، ليس لأنهم لم يفكروا في عرقلة كل المشروع، ولكن لأنهم كانوا يعتقدون أن كل ماقام به لينين آيل للفشل المحقق، وأن فعاليات المؤتمر ستكون في كلّ الأحوال محطّ انتقاد من طرف جميع المناشفة بعد أشهر قليلة فقط.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

شارك في مؤتمر براغ ثمانية عشر عضوا فقط، ثمانية منهم كانوا من طلبة معهد لونغجيمو، واثنان من البلاشفة، وبهذه النتيجة حقق لينين هدفه، فلقد تكونت على الأقل اللجنة المركزية للحزب الجديد.

وكما كان متوقعا، تلت مؤتمر براغ مناقشات حادّة، ذلك أن المعرضين استوعبوا متأخرين كيف أن لينين تمكّن من إنجاز مشروعه، وكيف أنه مازال مصرّا على المضيّ قدما دون أن يلتفت لأحد. إنه يريد القطيعة الكاملة معهم، فكان أن ولد حزب جديد بقيادة حازمة، وقوانين داخلية صارمة، وبرئيس هو فلاديمير إيليتش أوليانوف، والذي ردّ على أعدائه قائلا إن ماقام به قانونيّ من الناحية العملية؛ فالحزب الجديد له لجنة مركزية تدير شؤونه جيدا، وله أيضا جريدته الرسمية، واسمها برافدا وهي نفسها الجريدة التي كانت قد تعرضت سابقا للإغلاق بسبب نقص في الدّعم المالي.

مكتبة الرمحي أحمد

كما سبقت الإشارة، فإن إينيسّا كانت أول من تصدى إلى حلّ مشاكل الموارد المالية في الحزب، فمشاركة العمال لم تعد كافية، مما اضطرّها إلى اللجوء إلى معارفها القدامى وكذلك إلى أصدقاء زوجها أليكساندر، فكانت النتيجة أن صدر العدد الأول من البرافدا في ٢٢ نيسان ١٩١٢، ونجح لينين نجاحا ساحقا، لدرجة أن حتى الشرطة القيصرية أصبحت تؤيده، فلا عجب، وقد كان رومانو مالينوفسكي أحد أهم أعضاء اللجنة المركزية للحزب الجديد جاسوسا للبوليس السرّي القيصري وصاحب أكثر الأجور ارتفاعا ضمن لائحة أهم الجواسيس والعملاء القيصريين. رومانو هذا استطاع أن يحصل على ثقة زعيم البلاشفة في وقت قصير، ولقد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان في السابق نقابيا يمثل عمّال المعادن المُكَلَّفين باستخراجها وتعدينها، كما كان خطيبا جيدا، وأصبح فيما بعد منتدبا في مجلس الدوما.

كان النظام يعتقد أنه إذا شجع انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي على نفسه، فإنه سيصبح أكثر تحكما ومراقبة للبلاشفة، وبناء على هذه الفكرة قام باعتقال كل أعضاء اللجنة المركزية الأولى التي عارضت مشروع لينين، كما سهّلت أمر تعويضهم بأعضاء آخرين تثق بهم بشكل أكبر مع الحرص على إعطاء أهمية أكبر لصورة الزعيم وحضوره ودوره السياسي الجديد.

بعد عملية براغ خرج فلاديمير إيليتش من نفق الأفكار المظلمة والكئيبة، فلقد وجد أخيرا الطريقة المثلى للتخلص من «المصفّين» الذين كانوا يزعجونه بشدّة في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وهو الآن وإينيسّا إلى جانبه، يشعر بأمان وسعادة لا يتناقضان أبدا مع التزامهما السياسي.

إن ما يمكن قوله بعد مضي كل هذا الزمن، وبعين النقد والتقويم لحقائق ذات طابع سياسي وتاريخي، إن مشاعر إينيسّا تجاه لينين كانت أكثر منها تبعية عاطفية خالية من أيّ حسّ نقدي، في حين كان حبّ لينين لا يخلو من طابع استغلالي انتهازي.

(١٣)
مهمّة خطيرة

في تمّوز ١٩١٢ عبرت إينيسّا الحدود الروسية متجهة إلى سان بطرسبورغ، كانت تبلغ آنذاك من العمر ثمانية وثلاثين سنة، وكان يرافقها في هذا السفر شابّ أرميني اسمه جورجي سَفَرُوف، وهو من أحد طلاب معهد لونغجيمو المخلصين والأوفياء المقربين إلى لينين. وبما أنّ مهمة هذا السفر كانت خطيرة للغاية فقد كان من الأفضل لهما معا أن يتنكّرا في لباس وهوية أخريين، وعليه أصبحت إينيسّا في أوراق رسمية مزيّفة امرأةً فلاحةً، أصلُها من كراكوف، واسمها فرانشيسكا كازيميروفنا يانكيفيتش، وعمرها ثمان وعشرون سنة.

الطريق من كراكوف إلى سان بطرسبورغ طويل جدا، لذا فإن إينيسا تحاول على الأقل أن تشغل وقتها بالقراءة أو بكتابة بعض الرسائل، إلا أنّها كانت تجد نفسها وبدون سابق إنذار غارقة في أفكارها وتأملاتها غير مبالية بما يحفّ المهمة التي هي بصدد الإقبال عليها مع سفروف من أهوال ومخاطر، فبعد أن هربت من ميزين، القرية النائية التي كانت قد نُفيت إليها سابقا، وبعد العمل السرّي الذي كانت تقوم به لسنوات عدّة في موسكو، أصبحت الشرطة السرّية لا تخيفها ولا تثير قلقها أبدا، وحتى إن حدث شيء ما على سبيل المثال، فإنها ستكون في حماية عائلة أرماند الكبيرة. إنّ الذي كان يشغل بالها حقّا إنّما ذاك الحنين والشوق إلى أبنائها بعد غياب عن روسيا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دام لأكثر من ثلاث سنوات، أي منذ أن ذهبت للقاء فولوديا بنيس الفرنسية أثناء فترة صراعه الأخير مع المرض.

خلال ساعات السفر الطويل، وبينما خلد سفروف إلى النوم العميق غير آبه باهتزازات القطار العنيفة، كانت إينيسّا في المقعد المقابل له تتأمّل عبر النافذة مناظر الطبيعة الروسية الخلابة المتّشحة بألوان الصيف الساحرة، وتستمتع بحقول أشجار البتولا البيضاء الشاسعة والممتدة على مرمى البصر والتي تعلن للمسافر وصوله إلى روسيا.

يعود بها الفكر إلى لقائها الأخير مع فلاديمير إيليتش، وكانت تتخيّل أيضا اللحظة التي ستلتقي فيها به من جديد بعد إنهائها لمهمتها الجديدة هاته.

ذكرياتهما في باريس، وكذا مشاعر الحبّ المفاجئ التي شعرا بها وتقاسماها معاً، والأوقات الجميلة التي قضتها معه، كلّ هذا كان الزّادَ الذي غذّت به روحها خلال هذه الرحلة إلى أن وصلت إلى مدينة كراكوف.

بعد أن أصبح البقاء في باريس أمرا مستحيلا نظرا لتشديد الشرطة السرية مراقبتها لكل حركات البلاشفة وتفاصيلهم اليومية، وكذا لتفاقم العداء تجاه لينين بعد عملية براغ (ليس فقط من طرف المناشفة، ولكن حتّى من طرف قيادات الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي العالمي) أصبح لينين يفكّر في مغادرة فرنسا. وبعد دراسة متأنية لمناطق عدّة، وقع اختياره على مدينة كراكوف وذلك لأسباب استراتيجية عدّة أهمّها؛ كونها توجد في قلب منطقة غاليسيا التي كانت تنتمي إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية وكان يطلق عليها أيضا اسم «بولندا الصغيرة»، ثانيا كونها مدينة نشيطة جدّا إذ

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

توجد بها جامعة هي من أهمّ الجامعات على الإطلاق في المنطقة، إضافة إلى كونها محاطة بسلاسل جبيلة ذات مناظر طبيعية رائعة تشجع على الخروج والقيام بنزهات صحّية تفيد العقل والجسد، لكن ثمة ما هو أهمّ من كل هذه التفاصيل، فالمدينة لا تبعد عن الحدود الروسية سوى بعشرة كيلومترات، وهذا يعني الشيء الكثير بالنسبة للينين، لأنه وبمساعدة من النساء المزارعات اللائي يأتين كل يوم من الضفة الأخرى لبيع منتوجاتهن الفلاحية، فإنّهن سيقمن بإيصال مقالاته بكلّ سهولة إلى جريدة البرافدا مقابل إكراميّة يتفضّل بها عليهنّ.

العيش في كراكوف يعني أيضا القدرة على تنظيم لقاءات واجتماعات بين مختلف أعضاء الحزب الجديد بطريقة أكثر يسرا وأقل خطورة مما مضى، إذ أصبح يكفي فقط عبور الحدود الروسية للوصول إلى المقر الرئيس. كما يجدر بالذكر أن من مجموعة فرنسا لم يبق مقيما في باريس سوى كامينيف، أما أسرة فلاديمير إليتش أوليانوف وكذا أسرة زينوفيف فقدما للعيش والعمل معا في كراكوف، في حين لم تلتحق بهم إينيسا إلا بعد مضي بضعة أسابيع، ولم يكن يدر بخلدها أيّ شيء عن المهمة التي وجدتها في انتظارها.

الأمور في روسيا لا تبشّر بالخير أبدا، كل شيء فيها أصبح يسير بالاتجاه المعاكس: الشرطة القيصرية غدت لا تميّز بين أحد، فبعد أن كانت تستهدف البلاشفة بشكل أكبر، أصبحت تلقي القبض الآن حتى على المناشفة، الذين عبّروا عن استيائهم الشديد من موقف الرفيق مالينوفسكي لاعتقادهم بأنه هو من كان يزوّد الشرطة القيصرية بأسمائهم وبالأماكن التي كانوا يعقدون فيها اجتماعاتهم مع العلم أن فلاديمير إيليتش، كان ممن يعارض بشدة ما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ذهبوا إليه من رأي في رجل يثق به كثيرا ليس فقط لأنه أصبح عضوا مهمّا في الحزب ولكن لأنه من المنتظر أن توكل له وظائف أخرى أكثر أهمية خلال الانتخابات القادمة في مجلس الدوما.

لم تكن فقط الضغوطات والمراقبة المشددة من طرف الشرطة السرية هي ما يشغل بال فلاديمير ويقلقه، ولكن أيضا أمور الحزب البلشفي الجديد، فبعد أن بذل جهدا جبارا لإنشائه وإعادة الحياة إلى جريدة البرافدا اتضح أن النتائج المتوخاة لم تكن تحقق بالضبط تلك القطيعة الكاملة مع الماضي ومع الحزب الاشتراكي الديمقراطي كما سبق وخطط منذ البداية، فهاهي البرافدا نفسها ترفض نشر ما يزيد عن خمسين مقالة كتبها لينين مما دفع بهذا الأخير إلى كتابة رسائل غاضبة يعبّر فيها عن حنقه على هذا الموقف الغريب، وهي الرسائل التي كان يُطلع عليها إينيسا قبل إرسالها متسائلا فيها عن سبب هذا الرفض قائلا في إحداها: «لماذا ألغيتم مقالتي الخاصة بالمؤتمر الإيطالي؟ عموما كان من المفترض أن تعلموني على الأقل بالرفض وقبل اتخاذ أيّ إجراء آخر، لا أعتقد أن هذا كان سيخلق مشكلا لأحد ما، ولا أعتقد أنني أطلب المستحيل. إنه لحقّا أمر محبط للغاية أن يؤول الأمر إلى الكتابة من أجل سلّة المهملات».

حتى الأخبار الخاصة بانتخابات مجلس الدوما لم تكن تبشر بالخير، وإن كان الزعيم البلشفي يعقد عليها الكثير من الآمال والتطلعات، فالبلاشفة وبغض النظر عن عملية براغ وقراراتها كانوا يرغبون في القيام بحملة انتخابية جديدة يشارك فيها المناشفة أيضا، وذلك لأن اتحادا من هذا النوع سوف يساعد ولا شك على نجاح الانتخابات عبر الرّفع من عدد الممثلين

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من كلا الجهتين للاتحاد الاشتراكي الديمقراطي كاملا والذي لم يكن حاضرا من أعضائه في الجلسة الأخيرة سوى تسعة عشر عضوا.

لم يكن لينين يوافق الرفاق في فكرتهم هذه عن الاتحاد بين المناشفة والبلاشفة، لأن ذلك يعني مباشرة إفراغ عملية براغ من محتواها الانفصالي، وبالتالي الطعن في مصداقية أهدافها كاملة، ذلك أن قلة عدد الحاضرين في المؤتمر الأخير ليس بالأمر المهمّ بتاتا، فالذي يهمّ حقيقة هو مدى كفاءة هؤلاء الأعضاء ووفائهم الصادق للحزب. وهذا كله يعني أن لينين كان يفضّل أن يكون لديه ممثلين في مجلس الدّوما ولكن بشرط أن يكونوا ممن يستجيبون لآرائه، ويوافقونه استراتيجياته وخططه السياسية. ولكي يتحقق هذا الأمر، لم يكن أمام لينين من حلّ سوى أن يجد الشخص الملائم لمهمّة الذّهاب سرّا إلى روسيا، قال وهو ينظر محدّقا في عيني إينيسّا مباشرة. وهذا الشخص عليه أن يكون قادرا على تسوية كلّ الأمور التي بقيت عالقة هناك، سواء داخل الحزب أو داخل مقر جريدة البرافدا، وقادرا بالتالي على التدخل وفقا لتعليمات وإشارات لينين، ويكون قبل هذا وذاك على قدر عال من التجربة والخبرة حتى لا يسقط بأيّ شكل من الأشكال في شباك البوليس السرّي القيصري.

كان لينين يعلم بمدى خطورة ما يطلب، فالأوضاع خانقة في روسيا، وهو لا يمكنه القيام بهذه المهمة، لأن أمره سينفضح بسرعة، إضافة إلى هذا فهو لا يريد أن يغامر بأعضاء آخرين مثل كامينيف وزينوفيف، لأن الحزب الجديد سيحتاج فيما بعد لخبرتهما معا حينما تستقر الأمور ويعود الجميع إلى الوطن من أجل تنفيذ الثورة.

إينيسّا هي الشخص الذي اجتمعت فيه كل الصفات التي كان يبحث عنها لينين، فهي عندها حسّ سياسي عميق لركوب الأخطار، إضافة إلى كونها ذات معرفة شاملة بالحالة السياسية المهيمنة حاليا في روسيا، وكذا قادرة على التدخل سواء لدى الرفاق في البرافدا أو لدى مجلس الدوما، لذا فإنها إن وافقته الرّأي فإنه سيبعث معها عضوا آخر يكون رفيقها في السفر وهو الشاب سَفَرُوف الذي عاد حديثا مع زوجته من كراكوف.

لاحظت إينيسّا أن عينا لينين كانتا تلمعان فرحا ومحبّة وهو يحدثها عن هذا السفر الجديد حينما كانا جالسين في المطبخ حول المائدة يحتسيان الشاي معا، وكانت هي تعلم في قرارة نفسها جيدا أنها تريد حقا أن تؤدي له هذه الخدمة، ولمَ لا، وقد اكتشفت أنها تحبه واستطاعت أن تتجاوز من أجله كل مخاوفها وخجلها القديم.

هكذا قررت إينيسّا السّفر وكفى، حتى أنها لم تفكر في إعداد حقيبتها، فمهمتها هذه لا تحتاج في نظرها سوى لركوب القطار. وذاك ما كان بالفعل، لأن لينين بعد مرور بضعة أسابيع على سفرها، أرسل رسالة لكامينيف يقول فيها: «لقد سافر الاثنان، وفي حالة عدم إيقاف الشرطة لهما فإنهما سيكونان قد أديا واجبهما على أحسن وجه وأسديا للحزب خدمة ليس لها مثيل».

وصلت إينيسا وسفروف إلى سان بطرسبورغ دون أن يوقفهما أحد من رجال الشرطة السرية، ليس لأنهم لا يعلمون بأمرهما، ولكن على العكس تماما فكلّ تحركاتهما كانت مراقبة جدا، فمالينوفسكي، الرجل الذي كان يدافع لينين بشدة عن براءته من تهمة التجسس، لم يكن في الحقيقة سوى

عميل للبوليس السري القيصري، وقد أخبرهم بكل تفاصيل هذا السفر والمهمة التي تنوي تنفيذها إينيسا في روسيا. أما عن كون رجال الشرطة لم يقرروا بعد إلقاء القبض عليها هي وسفروف، فذلك فقط لتخويلها حرية الحركة وبالتالي إجراء كل لقاءاتها مع باقي أعضاء المنظمة في سان بطرسبورغ حتى يتمّ القبض عليهم جميعا بعد أن يكونوا قد جمعوا كل المعلومات اللازمة.

وعلى الرغم من أن إينيسّا كانت تشعر بمراقبتهم لها، إلا أنها أصرّت على إكمال مخططها إلى آخر بند فيه، فقد كانت مهمتها تتمثل في تحقيق جملة من الأهداف أهمّها: التواصل مع محرري جريدة البرافدا، ومحاولة إقناعهم بضرورة تغيير توجهاتهم لتصبح موافقة لخطط لينين وتصوراته عن القضية والثورة، وهذا لم يكن بالسهل تحقيقه، وإن كانوا جميعا يعلمون أنه لولا تدخلها وتوسطها لإيجاد مصادر جديدة لتمويل الجريدة سواء عبر لجوئها إلى زوجها إليكساندر أو إلى بعض أصدقائه، لما كانت الجريدة لتعود للعمل مرّة أخرى بعد تلك الضائقة المالية الخانقة التي كانت تعيشها سابقا والتي أدت إلى إغلاق وإيقاف كل نشاطاتها. إضافة إلى هذا كان على إينيسا أن تعيد البلاشفة إلى جادة الصواب، لأنهم على ما يبدو أصبحوا لا يعيرون أية أهمية لمخططات لينين. ولربما لأجل هذا لم تكن مهمتها بالسهلة أبدا، لا سيما أنها حينما وصلت إلى سان بطرسبورغ وجدت أعضاء الحزب منقسمين فيما بينهم ولا يثقون ببعضهم البعض، إضافة إلى أنهم كانوا ممّن لا يستسيغ طريقة لينين في العمل ولا حتى في طرح بعض أفكاره، لدرجة أنهم يرفضون حتى فكرة استقبال مبعوثَيْه القادمَيْن من كراكوف، كما أنهم

يصرون على عدم نشر كل مقالاته لما يرون فيها من خطورة على المجلة والتي من الممكن جدّا أن تتسبب في إغلاقها من جديد.

ما الحلّ إذن، وقد ظهر على السطح مشكل آخر، وهو نفاد المال المخصص للمهمة؟ ما الحلّ إذن وقد حاولت مرارا وتكرارا مع أعضاء هيئة التحرير لدى جريدة البرافدا أن تقنعهم بمدى أهمية عمل لينين ومشروعه الجديد؟!

أمّا وعن مشكل نفاد المال فقد ساعدها في حله زوجها أليكساندر الذي ظلت على تواصل معه عبر المراسلات المكثفة، أمّا المشكل الثاني فلم يبق أمامها سوى اللجوء إلى كونكورديا سامويلوفا وهي سكرتيرة الجريدة والمكلفة بالعلاقات الخارجية، إضافة إلى كونها من المناضلات النسويات، وستكون بدون أدنى شك اليدَ السحرية التي ستساعد إينيسّا على التوصل إلى حلّ وسطٍ مع باقي أعضاء الجريدة. وهكذا حدث أن أصبحت الرؤية واضحة لديها عن الرفاق وعملهم في الجريدة، وعن طريقة تقييمهم ونظرتهم للأمور، فهُم يرون أن مقالات لينين لا تصلح للنشر أحيانا، لأنه على ما يبدو، لا يعرف شيئا عن تطور الأوضاع في سان بطرسبورغ وروسيا، وبالتالي فإنه غير ملمّ أيضا بالكثير من التفاصيل الحساسة، ولعله قد حان الآن الوقت كي يزيح عن عينيه غشاوة الغفلة حتّى يتمكن من معرفة كيف تسير الأمور خارج فرنسا وكاركوف.

هذا من جهة، أمّا فيما يتعلّق بنتائج المشاورات والمفاوضات داخل الحزب فكانت أكثر إيجابية، مقارنة إياها بالمفاوضات مع هيئة التحرير داخل الجريدة، على الأقل في الحزب، وبعد عدّة لقاءات استطاعت هي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وسفَروف أن يؤثران على مسار الانتخابات، بحيث ترشحت لمجلس الدوما وبمعزل عن المناشفة مجموعة من البلاشفة كما طلب لينين. كلّ هذا حدث ورجال البوليس السرّي لا ينتظرون سوى أن يحين الوقت المناسب من أجل إيقاف كلّ ما كانت تخطط إينيسا لتنفيذه بعد النجاح الذي حققته في الشقّ الأول من مهمّتها، وبناء على ذلك، وحينما توصلوا بكل المعلومات التي تفيد بانعقاد اجتماع تنظيمي في إحدى الشقق، حضر رجال الشرطة وحاصروا الشقة وألقوا القبض في ١٤ أيلول على أربعة عشر شخص، ومن بينهم إينيسّا التي كانت تحاول عبثا أن تقنعهم بأنها فرنشيسكا كازميروفنا يانكيفيتش، ولكنها حينما تأكدت من ألا فائدة في التنكر، اضطرت إلى الإفصاح عن نفسها وأخبرت الشرطة بأنها أتت إلى روسيا من أجل رؤية أبنائها وترتيب أمور عودتهم من جديد إلى المدرسة، لكنهم كالعادة لم يصدّقوها، ففي البيت الذي كان يستضيفها وجد رجال الشرطة بعض الوثائق الإعلانية الخاصة بالثورة، إضافة إلى أوراق أخرى لها علاقة بمؤتمر براغ، وهي كلّها أدلّة تدينها وتؤكد نشاطها السياسي السري وغير القانوني. ثم أنهم بغض النظر عن كل هذه الأشياء، متأكدون من مصادر معلوماتهم، ألم يكن وراءهم مالينوفسكي الذي زودهم بكل التفاصيل الدقيقة؟!

وسجنت إينيسّا مرّة أخرى، وبات عليها أن تواجه مجددا الوحدة، والبرد القارس، والأكل الحامض الفاسد، والصمت والغضب، إذ لم يكن مسموحا لها سوى بزيارة أليكساندر لتعرف منه أخبار أبنائها، وكذا بتسلّم بعض الكتب. وبدأت صحتها تتدهور من جديد لكن هذه المرة مع ظهور أولى أعراض داء السلّ.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في السجن وصلتها أخبار النجاح الساحق الذي حققه البلاشفة في مجلس الدوما، إذ تمّ اختيار مجموعة صغيرة من البلاشفة وكان ضمنهم رومانو ماينوفسكي، بالضبط كما سبق واقترح لينين، وعليه فإن وجودها في السجن يهون أمام هذه النتائج القيّمة التي حققتها أثناء أدائها لتلك المهمة الخطيرة.

في الوقت الذي كانت إينيسّا تنتظر أن تأخذ الأمور مجراها في السجن وتنتهي بالتالي مدة حبسها، ظلّ لينين يواصل حياته ويقضيها كالعادة في القراءة، والدراسة وكتابة المقالات والقيام بالنزهات الطويلة إلى أن وصل إليه من بعض الروسيين الذين يعبرون الحدود خبر اعتقال إينيسّا. كما أخبره أيضا أحد مبعوثيه بأنها قبل أن تسجن استطاعت أن تحقق نجاحا منقطع النظير في مهمتها. وفي المقابل حتى مالينوفسكي استطاع هو الآخر أن يقوم بمهمته على أكمل وجه، إذ قدّم للبوليس السري وعلى طبق من فضّة ١٨ مناضلا أصبحوا جميعم في عداد المعتقلين داخل السجون القيصرية.

وإذا كانت إينيسّا قد خبرت من قبل تجربة السجن وأصبحت أكثر قدرة على مواجهة كل الصعوبات بين جدرانه، إلا أن هذا لا يعني شيئا، فالاعتقال داخل السجون القيصرية يبقى دائما تجربة قاسية كان عليها أن تواجهها مرّة أخرى وتتحمّل بشاعتها لمدة ستّة أشهر كاملة، وهذا أمر كان يقلق كثيرا زوجها، ففي كل مرّة يذهب لزيارتها كان يجدها أكثر ضعفا ومرضا وتعبا ممّا مضى، ولذلك حاول أن يستخدم كلّ علاقاته وتدخلاته من أجل السعي من جديد إلى تحريرها ممّا هي فيه. وقد توصّل إلى حلّ وسط مع السلطات القيصرية، ودفع لهم غرامة مالية قدرها ٥٤٠٠ روبل عساهم

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يمهلونها على الأقل إلى أن يحين وقت المحاكمة التي من المفترض أن تكون في شهر آب.

كان المبلغ باهظاً، وهو قيمة الغابة التي باعها أليكساندر في وقت وجيز من الزمن، وتعادل الأجر اليومي لعشرة آلاف عامل في مصانع عائلة أرماند الكبيرة. ولكن كلّ هذا لا يهمّ مادامت إينيسّا الآن حرّة ويمكنها أن تعود للعيش في البيت بقرية بوشكينو، هناك حيث ستجد الجميع بانتظارها بكلّ حبّ وشوق وإعجاب بأعمالها النضالية العظيمة، فالكلّ الآن أصبح يعلم أنها تعمل مع لينين وبأنه يثق بها ثقة عمياء.

بعيدا عن السجن بدأت صحة إينيسّا في التحسّن بشكل كبير، وأصبح بإمكانها أن تحقق حلمها في القيام برحلة إلى مدينة ستافروبول مع زوجها وأبنائها، والخروج في نزهة على ضفاف نهر الفولغا، وهي الرحلة التي جاء ذكرها فيما بعد بإحدى رسائلها الموجهة إلى ابنتها إينّا وتقول فيها: «كم هو جميل نهر الفولغا، وخاصة في الساعات الأولى من الصّباح بمدينة ستافروبول. أتذكّر بشوق وحنين تلك اللحظات التي ذهبت فيها وساشا إلى لقاء فاديا. كان الظلام مازال مخيما، وكانت خيوط الفجر الأولى تنفلت ببطء من بين براثنه، وظللت أمشي، وحينما وصلت إلى ضفاف النهر انتشر ضوء الصّباح، وبدت السماء متّشحة بلون وردي بهيج. كم أحببت حقا تلك العطلة التي قضيناها معا في ستافروبول».

لكن كما العادة على الرغم من هذه السعادة التي عاشتها إينيسّا، وإحساسها بالدفء والأمان مع زوجها وعائلتها، إلا أنّها كانت قلقة للغاية بشأن المنفى، فهي تخشى أن تعود من جديد إلى ميزين، تلك القرية الجليدية

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

النائية التي سبق وفرّت منها ولا تريد أن تعودَ إليها مرّة أخرى بحكم يصدر من المحكمة عليها في شهر آب المقبل، خاصّة وأن كلّ هذا يعني، أنها لن ترى لينين، ولن تعمل معه مجدّدا وهو الذي سيكون في هذه الفترة مع زوجته في بورونينو، وهي قرية على مشارف جبال كراباس التي توجد في منطقة ذات طبيعة رائعة، شأنها في هذا، شأن كل المناطق السويسرية الجبلية.
علمت أيضا أنه سيكون معه زينوفيف وعائلته وكذلك كامينيف، وأنهم بصدد التحضير لعقد اجتماعات في غاية الأهمية، من بينها تلك الخاصة باللجنة المركزية للحزب البلشفي، وهي كلها شوق للمشاركة معهم، ولكن كيف وخطر النفي في تلك الأرض المتجمدة من البحر الشمالي مازال لليوم يحاصرها ويهددُ حياتها؟!

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(١٤)
جبال العشق

وكما العادة وتقديسا منها لحريتها الشخصية، قررت إينيسّا ألا تذهب إلى جلسة المحاكمة التي كان من المفترض أن تتمّ في شهر آب المقبل. وبناء على قرارها هذا فرّت مرّة أخرى من روسيا بمساعدة زوجها الذي لم تكن تعنيه أبدا الخمسة ألف وأربعمائة روبل التي دفعها كغرامة من أجل خروجها من السجن بقدر ماكانت تعنيه سعادة إينيسّا وراحتها النفسية.

عبرت إينيسّا الحدود الفنلنديّة وتركت أبناءها برفقة والدهم وأعمامهم في بوشكينو، وبعد ذلك اجتازت الحدود السويدية والألمانية لتجد نفسها من جديد في غاليسيا، وحينما وصلت في إحدى أمسيات شهر آب إلى بورونينو، تفاجأ الجميع ممن كانوا حاضرين في الاجتماع الصيفي للحزب، والذي شارك فيه اثنا وعشرون عضوا وفيهم أيضا أولئك الذين نجحوا في انتخابات مجلس الدّوما.

وعن هذا الوصول المفاجئ كتبت ناديا تقول في مذكراتها: «لقد عادت من السجن الذي عانت فيه كثيرا من قسوة النظام لدرجة أنّ صحتها تدهورت جدّا، وبدت عليها أعراض السّلّ، لكن هذا لم يؤثر على طبعها المفعم نشاطا وحيوية. لقد كنا جميعا سعداء حقا برؤيتها من جديد».

كانت ناديا محقّة فيما ذهبت إليه، فعلى الرغم من السفر المضني عبر شمال أوروبا، والشهور التي قضتها إينيسّا في السجن، فإنها لم تفقد سحرها ولا

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جاذبيتها، ولم يؤثر ضعف جسدها ونحافته على جمال وجهها بل على العكس من ذلك، فما زالت تقاسيمه تُعبّر عن إينيسّا؛ المرأةَ المتفائلة صاحبة العزيمة القوية، والتي عادت لهم اليوم بعقل محمّل بأفكار أكثر جدّة وعمقا، وبروح أكثر رغبة في العمل، وبقلب يملأه الفخر والاعتزاز بالنجاح الذي حققته، وكذا بتمكّنها من الهرب واسترجاع حريتها بعد فترة عصيبة قضتها بين جدران السجن القيصري.

وفي فترة غياب إينيسّا عنه، غدت حياة لينين مملّة، وبات يقضي وقته إمّا في القراءة، أو في تقصّي بعض الأخبار القادمة من روسيا، أو في كتابة بعض المقالات لجريدة البرافدا. إضافة إلى هذا كان لا يتوانى عن الاعتناء بزوجته التي أجرت عملية في الحنجرة، ومازالت لليوم تعاني من آثارها المؤلمة. غير هذا، وحينها حلّت العطلة الصيفية ذهب هو وناديا إلى جبال تاترا في منطقة الكاربات التي تذكّره بسلسلة جبال الألب، هناك حيث يستمتع بمناظر قمم الجبال المغطاة بالثلوج الناصعة البياض، وكذا بمناظر البحيرات والمساحات الشاسعة الخضراء والقرى الصغيرة، التي تبدو كأنها قادمة من زمن آخر.

حينها عادت إينيسّا، أصيب لينين بدهشة عارمة، وغمرته سعادة كبيرة لرؤيتها بعد طول غياب، ثم أنه كان فخورا بها للغاية وبكل ما حققته من نجاحات مدهشة، فمن ذا الذي يقع بين مخالب البوليس السرّي القيصري، ثم يتمكن من الفرار بكل شجاعة منه؛ وحدها إينيسّا فعلت ذلك ولأكثر من مرّة!

وها هي الآن معه وقد عاد لوجهها بهاء المحبّة والعشق، ولكلماتها العنفوان والحيوية، إنها به تبدو أكثر أناقة وإغراء. أمّا هو فقد عاد إليه

إحساسه بسحرها الفتّان، لا سيما حينما ترتدي قميصها الروسي التقليدي الأحمر ذي الأزرار الجانبية، وتربطه بحبل بسيط تديره حول خصرها النحيل. إنه معجب أيضا حتى بتسريحة شعرها خاصة حينما تجمعه خلف عنقها وتبقى بعض الخصلات متناثرة هنا وهناك هاربة من أسنان المِشْبَك.

وإضافة إلى شعرها الجذّاب، كان لينين في لحظات غرقه اللذيذ داخل بحر عينيها كثيرا ما يتساءل عن لونهما الحقيقي، أتراه أخضر أم رماديا، أم أنّ هذا اللون يتغيّر وفقا لتقلّبات الطقس، وكذا حسب مزاجها وحالتها النفسية. كلّ ما يمكن قوله، هو أن لينين اكتشف حقّا أنه مفتون بهذه المرأة وبحضورها معه، فحتّى الأيام تصبح برفقتها أقلّ مللا، والعمل من أجل الثورة أقلّ قسوة وجفافا، إذ أنه يستطيع أن يتحمّل ثقل ساعات الاجتماعات الطويلة مادامت هي إلى جانبه بروحها المرحة، وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو يتذكر ما قالته له ذات مرّة أثناء اجتماعات الحزب: «إنني على وشك أن أبتلع لساني من شدّة الملل»، وما كانت ردّة فعل الزعيم البلشفي سوى أن كتم ضحكة عالية تعبيرا منه على كونه هو أيضا قد بلغ منه الملل مداه.

هكذا بات لينين لا يفارق إينيسّا، ويبحث عن أيّة فرصة ليقضي معها أطول وقت ممكن، وكانا يجدان في نزهاتهما بين جبال تاترا ما يتيح لهما البقاء لوحدهما لساعات طوال، فهما يعرفان أن رفاقهما لا يحبّون التجوّل بين المفاوز الصعبة والمتعبة، لذا كانا ينتهزان هذا الموقف ويذهبان إلى الأماكن القصيّة التي لا يصل إليها أحد سوى من يحبّ المشي وتسلق الجبال مثلهما بدون أيّ عناء أو مشقة. وحينما كانت تهطل الأمطار الصيفية الأولى، كان

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ذلك يزيد من متعتهما وسعادتهما، لأن الأمر ينفع كذريعة يسوّغان بها تأخرهما عن بقية الأصدقاء بدعوى أنهما بقيا ينتظران إلى أن تتوقف الأمطار عن الهطول. وهذا يعني أن الأوقات التي عاشاها معا في باريس كانت إعلانا عن بداية اشتعال جذوة الحبّ بينهما والتي اضطرا إلى إخمادها مؤقتا إلى أن تمرّ الفترة الحرجة والحاسمة التي كان يعيشها لينين وهو يفكر في إنشاء حزب جديد ينفصل به تماما عن المناشفة و«المصفّين»، أمّا اليوم فهما بين أحضان جبال تاترا الخلابة يحاولان تعويض الزمن الماضي وعيش هذا العشق بكل ما تحمل الكلمة من معنى. وعليه، وأمام هذه المشاعر الفيّاضة والمتدفقة من قلب لينين يبدو أمرا بديهيا طرح السؤال التالي: هل نحن أمام الرجل نفسه، أيْ ذاك الذي أرسل إينيسّا في مهمة خطيرة كان من المحتمل أن تفقد فيها حياتها، وذاك الذي بصدد عيش قصّة غرام جيّاش تجاه المرأة ذاتها؟!

هذا هو السؤال الذي طرحته أيضا المؤرخة هيلين كارير دانكوس حينما كتبت تقول في كتابها البيوغرافي عن لينين: «قد يكون لينين حقا رجلا قاسيا ولا يحب الناس سوى بناء على علاقتهم بالثورة ومدى تأثرهم بها أم لا، كما سبق وقال جوركي، لكن هذا لا يمنع أنّ داخل هذا اللينين القاسي توجد صورة أخرى لرجل مختلف تماما لا يعرفها سوى المقربين منه جدّا، وهي صورة الزعيم المفعم بالمحبّة والحنان والمودّة، لذا فإني أعتقد أنه ليس من العدل عدم الحديث أو الإشارة إلى هذا الجانب من شخصيته وكذا عن كلّ حياته التي بها دخل سواء إلى تاريخ بلده أو تاريخ العالم بأسره خلال نهاية القرن التاسع عشر».

وهو نفسه لينين الذي تحدث عنه المؤرخ سولزينسين حينما كتب يقول: «كان الرجل مقتنعا بأن إينيسّا وُجدت لتكون له وحده، لتسانده وتؤازره هو وحده دونا عن بقية الخلائق، وكأن الأمر فيه حكاية لإنسان وُجد من أجل إنسان آخر فحسب [...] ووحدها لقاءاته معها بما فيها تلك الخاصّة بالعمل كانت تشعره بالسعادة المطلقة بغض النظر عمّا كان في الأمر من صرف لتركيزه الكامل في القضية وكل ما يتعلق بها».

ليس هناك من شكّ في أنه بمرور الأيام أصبحت علاقة لينين بإينيسّا أكثر عمقا وحميمية مما مضى، وبما أن الحبّ أعمى كما يقول معظم الناس، فإن العشيقين أصبحا لا يلقيان بالا لأحد، ولا حتّى لنظرات الشكّ والريبة في أعين العديد من البلاشفة القادمين من بورونينو من أجل حضور اجتماعات الحزب، بل باتا لا يهتمان حتّى لنظرات ناديا المتسائلة في حزن صامت عن هذا الذي يحدث أمامها وأمام أعين الجميع.

ولم يكتفِ الاثنان بهذا فقط بل حتى الأمسيات باتا يقضيانها معا، فلينين وعلى الرغم من أنه لم يكن يحبّ كثيرا الاستماع للموسيقى إلا أنه كان يعشق إينيسا وهي تعزف له وحده مقطوعات طويلة على آلة البيانو لساعة متأخرة من الليل، وحتى في تلك الأوقات التي كان يذهب فيها الجميع إلى النوم بمن فيهم ناديا متظاهرة بالتعب والإرهاق، ومدّعية أنها بحاجة إلى النوم أكثر من أيّ أحد آخر. فقد بدأ صبرها ينفد حتى أنها عند قدوم الصيف مرضت مجددا ولكن هذه المرة بشكل أكثر حدّة وخطورة من ذي قبل، ذلك أن الأطباء شخصوا علّتها وقالوا إنها مصابة بداء بازدو، أو الدّرّاق الجحوظي، الذي بات يتسبب في تسارع نبضات قلب ناديا وضعفه الشديد،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكذا في موجات التعب والإرهاق التي أصبحت تنتابها من الحين والآخر، ولم ينفع معها وجودها في جبال بورونينو بل على العكس من ذلك، فطقس هذه المنطقة الجبلية لمْ يزد من صحتها سوى تدهور وسقم كل يوم أكثر فأكثر، مما دفع لينين إلى تغيير المكان منتقلا بزوجته هذه المرة إلى مدينة بِرْن حيث أجرت ناديا عملية جراحية مؤلمة على مستوى الحنجرة ومازالت لليوم تعاني من آثارها الجانبية، أمّا الآن وقد ظهرت إينيسّا من جديد في حياتها، عادت هي لحزنها وعزلتها، وبدأت تتفادى النزهات الجبلية الطويلة التي كان يقترحها عليها زوجها فلاديمير إيليتش.

وإذا كانت في لونغجيمو قد استطاعت أن تحافظ على صداقتها مع إينيسا دون أن تُبديَ لها أبدا أيّة علامة من علامات الغيرة أو المنافسة، فإنها هنا في بورونينو، أصبحت تراقب كل شيء من حولها في صمت مواصلة مدحها لشخصية منافستها في حبّ لينين: «كلنا نحبّ إينيسّا، فهي تحمل معها السعادة والحياة والحيوية أينما حلّت، وهذا كاف ليجعلنا جميعا متعلّقين بها إلى أبعد الحدود، فحتّى فلاديمير إيليتش في تلك الأسابيع التي قضتها معنا، بات يطلب منها مرارا أن تعزف له سوناتا بيتهوفن (تحت ضوء القمر)».

لقد كانت ناديا تعتقد أن بُعد إينيسا عن لينين طيلة فترة سفرها إلى سان بطرسبورغ وسجنَها سوف يخمدان نار الشوق والعشق في قلبيهما، لكن هيهات هيهات، فالذي حدث هو العكس تماما، إنهما اليوم أكثر حبّا لبعضهما البعض من أيّ وقت مضى، ولا يهمهما في شيء إن ظهرت عليهما علامات هذا العشق أم لا، ولا يعنيهما حتى إخفاء قصتهما عن أعين المتلصصين أو الفضوليين، ولا أدلّ على ذلك من الاسم الجديد الذي بدأ

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لينين ينادي به إينيسّا، اسم استلهمه من حبّها للطبيعة الخضراء الخلابة. أجل، لقد بدأ يناديها بـ (بْراتولينا)، وهو اسم مشتق من مصطلح (بلونا)، الذي يعني في اللغة البولندية العشبَ الأخضر، والكل بعد ذلك من أصدقائها، بدأ يناديها على سبيل الدعابة بهذا الاسم، الذي أعجبت به إينيسا أيّما إعجاب، لدرجة أنها قالت لهم إنها من الآن فصاعدا ستبدأ في توقيع مقالاتها ورسائلها به، وحينما سمعتها ناديا، حاولت جاهدة الابتسام علّها تُظهر للآخرين أنها هي أيضا أعجبت بالاسم والفكرة معا.

في تلك الفترة التي عاشتها إينيسّا مع لينين كانت هذه الأخيرة - وفقا لما رواه المؤرّخ رالف كارتر إيلوود في كتابه عنها- تعتقد أنّ ماحققته من نجاحات منذ عملية براغ ومهمّتها بسان بطرسبورغ كان كفيلا بأن يغيّر من نظرة أعضاء الحزب لها من مجرّد امرأة تحظى بثقة الزعيم المطلقة إلى عضو يكون فاعلا ومحرّكا حقيقيا للأحداث السياسية داخل الحزب، ممّا دفعها إلى إعادة طرح قضية العمل السياسي للمرأة الروسية وعلاقتها بالحزب الجديد، محاولة بذلك إقناع رجال اللجنة المركزية في الحزب البلشفي بمدى أهمية الدور الكبير الذي أصبحت تلعبه النساء العاملات في روسيا، وأنه قد حان الوقت لإشراكهنّ في العمل السياسي حتى لا تستغلّ الأحزاب الأخرى هذه القوى النسوية الصاعدة لصالحهم ويقومون بالتالي بتوجيهها بشكل خاطئ. إلا أنّ إينيسّا بمحاولاتها هذه كانت كمن يصبّ الماء فوق الرّمل، أو كمن يزرع الآمال والتطلعات في أرض جرداء، ذلك أنه حتّى وإن كانت تساندها ناديا كروبسكايا في مقترحاتها حول القضية النسوية، إلا أنّ ذلك لم يحل دون أن تؤول كلّ أفكارها إلى الفشل الذريع في عالم تحكمه العقلية

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الذكورية. ولقد كان لينين نفسه هو أوّل المعارضين والمعرقلين لطموحاتها، لذا قررت أن تغيّر من خطّتها وتركّز بشكل أكبر على الكتابة الصحفية، فلربّما بمقالاتها تستطيع أن تغيّر من نظرة المجتمع الذكوري لفكر المرأة ولعملها السياسي، وعليه كانت أولى مقالاتها بعد وصولها إلى غاليسيا تتحدث عن الحركة العمالية الانجليزية وعن الاضطرابات التي وقعت في إيرلندا، وهي المقالة التي ما إن اطلع عليها فلاديمير إيليتش حتى نصحها بأن تترك الكتابة الصحفية وتهتم بشيء آخر، لأن نصوصها تفتقد للمضمون الجيّد، ولن توصلها إلى أيّ هدف. وما كان عليها سوى أن استسلمت للأمر الواقع والتزمت بالصمت دون أن تعارض أو تظهر غضبها من ملاحظات الرجل التي تحبّ بعمق، وإن كانت تشعر بداخلها بألم شديد تجاه موقفه هذا، ولكنها فضلت ألا تفصح عن أيّ شيء رغبة منها في عدم إفساد علاقتها به خلال هذين الأسبوعين المتبقيين من العطلة قبل العودة إلى كراكوف.

(١٥)

وداعا؟!

بعد عودتهما من بورونينو، اتفق لينين وإينيسّا على أن يلتقيا بمقهى نُوُرُلسكي المطلة على ساحة رينيك غلوني العتيقة. كان ذلك في صباح يوم غائم من صباحات كراكوف، ومن المقهى انطلقا مشيا في اتجاه المرتفع الوعر المؤدي إلى قلعة واويل.

إن لهذه المدينة الوسيطية تأثير خاصّ على لينين لا سيما في فصل الخريف حينما تفتح جامعة ياغيلونيا أبوابها ويبدأ الطلاب يحجون إليها من كل صوب وحدب معمّرين مركز المدينة القديم، حيث المكتبات والأسواق والحدائق المحيطة بالأسوار، وكذا المطاعم الصغيرة التي تقدّم لروّادها أشهى المشروبات والمأكولات البولندية كالبيرا والرافيولي والفطائر اللذيذة. وإلى جانب المطاعم هناك أيضا حيّ كازيميرز الشهير الذي يتعايش فيه بسلام ووئام البولنديون واليهود.

في كلّ مرّة كان يلتقي فيها لينين بإينيسّا، كانا دائما قبل البدأ في الحديث عن العمل ومشاكل الحزب يفضلان الحديث أولا عن جمال هذه المدينة التي استقرّا فيها لفترة من الزمن وعن ذكرياتهما معا في بورونينو، لكنّ لينين هذه المرّة وبعد أن وصلا إلى نهاية المرتفع غيّر صوته وطريقته في الكلام وطلب منها أن تصغي إليه جيّدا لأنه لديه كلام مهمّ لا بدّ أن يبوح به، كلام لا علاقة له بالحزب ولا بالأوضاع في روسيا، كلام يخصّهما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وكفى. وكان أول ما افتتح به حديثه، كلماتُه عن زوجته ناديا وعن مرضها وآلامها الشديدة، وكذا عن رفقاء الحزب المستائين جدّا من علاقتهما، ممّا دفعه إلى اتخاذ قرار لا رجعة فيه قائلا لها إنها لا تستحقه، وإن حبهما لا يمكنه الاستمرار، وأنّ ما ولد في باريس وتوهّج في بورونينو يجبُ أن يُنسى، لأنه أمر خطير عليهما وعلى القضية. وقبل إنهاء الحديث طلب منها أن تتفهّم الأمر بعمق وأن تستمرّ الصداقة والتعاون المشترك، وكأنّ شيئا لم يحدث بينهما مطلقا.

حينما أنهى لينين كلامه كانا قد وصلا إلى القلعة وشرعا في نزول المنحدر، وكانت إينيسّا تحاول احتواء الموقف والتظاهر بالهدوء، قائلة في نفسها: -ليته لم ينبس ببنت شفة، ولكن ألا يبدو أنني وفي كل الأحوال كنت أنتظر منه نهاية بهذا الشكل؟- ولقد كانت محقّة فيما ذهبت إليه، لا سيما وأنها كانت تراقب منذ أيام مضت تلك السحب التي بدأت تتجمع وتتكاثف في سماء علاقتها بلينين معلنة عن قرب حدوث إعصار ماطر يضرب كلّ لحظات السعادة التي عاشتها معه.

وقد انفجرت العاصفة حقا، وانتهى كل شيء، لكنّ إينيسّا مازالت صامدة ولا شيء يخيفها من أمر كانت تتوقع حدوثه، لذا قررت في البداية الذهاب للعيش بمنزل كامينيف بكراكوف كمحاولة أولية منها لاستعادة ذاك الاستقرار الذي كانت تنعم به أثناء إقامتها في باريس بشارع ماري روز، كما فكّرت في استقدام أبنائها الأصغر سنّا من أجل العيش معهم، بالضبط كما سبق ووعدتهم قبل الفرار من المحاكمة ومن روسيا برمّتها، لكنّها كانت واهمة في كل ما حاولت تنفيذه من مخططاتها الجديدة،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فسعادتها لم تعد ذاك الحلم الجميل الذي عاشته مع لينين وكانت تتمنى بكل ما فيها من قوة أن يصبح واقعا وحقيقة، وهذا أثّر بشكل كبير على توازنها العاطفي، وجعلها أكثر هشاشة لدرجة أنها أصبحت تتخبط في كل قراراتها ولا تعلم بأيّها ستبدأ ولا كيف ستستجمع أنفاسها وقواها من جديد.

قبل أن يفاتحها لينين في موضوع انفصالهما ببضعة أيّام، كانت قد لاحظت العديد من العلامات التي كانت توحي بأنّه لم يعد الرجل الذي تعرفه، فلقد أصبح شديد الصمت ولا يتحدث معها إلا قلما ندر، أمّا ناديا فازدادت آلامها وأوجاعها، والرفاق الذين تبعوا لينين واستقرّوا معه في كراكوف أصبحوا يشعرون بنوع من الإحراج تجاه علاقته بإينيسّا التي باتت هي الأخرى عصبية المزاج جرّاء ما كانت تراه حولها من أجواء خانقة ومقلقة، لدرجة أنه كان يخيل إليها أنها أصبحت تمشي فوق طريق منزلق وتخشى الوقوع بين الحين والآخر.

والآن وقد أصبح لينين أكثر وضوحا معها، بات لزاما عليها أن تفكر جدّيا فيما عليها أن تفعله: هل ستبقى معهم في كراكوف وتستمر في العمل وكأن شيئا لم يحدث بينهما؟ نعم، هي تستطيع ذلك، لكن الأمر سيكون نوعا ما محرجا للجميع، وإذا حدث، فإنه سيكون فيه الكثير من الزيف والكذب. وماذا إن حاولت مرّة أخرى أن تناقش لينين في العدول عن قراره؟ وماذا لو تحدثت أيضا مع ناديا، وشرحت لها بأن حبّها للينين لن يؤثر بأي شكل من الأشكال على زواجها به؟ ولكن هب ناديا وافقت، ماذا ستقول للرفاق الذين باتوا يشكّكون في كل شيء؟ لا، يبدو أن المسألة حقا عويصة، وقصّة

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حبها هذه إن لم توقفها هنا بسرعة فإنّ هـذا سيؤثر بـدون شـكّ حتـى عـلى العلاقات السياسية مع أعضاء اللجنة المركزيـة والـذين أصبحوا لا يثقـون بأحد أبدا.

وأخيرا استقرّ رأيها على أن تفاتح لينين مـرّة أخـرى في الموضـوع، لكـن بدون جدوى، لقد واجهها بثباته على قراره بشكل أكثر حزما وصرامة، فهو لا يريد، ولا يمكنه أبدا الاستمرار معها، وعلاقتهما كانت مجرّد خطـأ يجـب إصلاحه، وهي كمناضلة عليها أن تتفهّم الموقف ومـدى خطورتـه وبـدون أدنى تردد.

هكذا حُسم الموقف ولم يبق أمام إينيسا سـوى أن تـضمّد جراحهـا عـبر الكتابة إلى إليكساندر صديقها الأوحـد والأمـين عـلى أسرارهـا، فجـاءت رسائلها كدليل على ماكانت تعيشه حقيقة من حزن واضطراب شـديدين لم يعد باستطاعتها السيطرة عليهما لدرجة أنها كانت في كلّ مرّة تحدّث زوجها السابق عمّا تنوي القيام به، ثمّ تُغيّر رأيها في الرسائل الأخرى. فمثلا قالت له في البداية إنها قررت البقاء في كراكوف وطلبت منـه أن يرسـل لهـا أبناءهـا الصغار لأنها اشتاقت إليهم جدّا فهي لم ترهم منذ عدّة شهور ولا يمكنها أن تنظّم حياتها بدونهم، ثم بعد ذلك غيّرت قرارها هذا، واعترفت له قائلـة إن المشكلة تكمن في كونها لا تعرف أين ستسكن، لأنها لليوم مازالـت تبحـث عن منزل تستقرّ فيه، ولربّما ستغادر قريبا كراكوف وتعـود إلى بـاريس. ثـم بعد ذلك قلبت كلّ مخططاتها رأسا على عقب وأخبرته إنه من الأفضل هـذه المرة أن يرسل الأبناء إلى فيينّا لأنها ستكون هناك. وهاهي مرة أخـرى تنفـي ما قالته وتعود لتقول من جديد إنها ستستقر بغاليسيا لبعض الوقت، وعليه،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لا بد من إرسال أبنائها إلى كراكوف، ثم بعد ذلك تراجعت عن قرارها وصرّحت له من جديد بأنها مازالت لم تجد بيتا تستقرّ فيه، عندئذ استنتج أليكساندر أنه ثمّة شيء ما يقلق إينيسّا ويربكها لهذه الدرجة، لكنه على الرغم من ذلك عاهد نفسه على أن يسايرها في قراراتها المتذبذبة ويؤازرها بشكل أو بآخر مرسلا لها بعضا من الحلوى الأمريكية، والكافيار الأحمر، ثمّ قبل هذا وذاك، المالَ الذي تحتاجه للعيش والاستقرار.

كان لينين يعتقد أن زوجته التي عوّدتهُ على تفهّمها العميق لكلّ مواقفه الحياتية قد تقبّلت بروح رضيّة علاقته مع إينيسّا، لكنّ تدهور حالتها الصحية الشديد أصبح الدليل الأكبر على أنّ ناديا كانت تتألم وتتعذب في صمت ولم تعد قادرة بالتالي على تحمّل المزيد، فكان أن طلبت منه مرّة أخرى الخروج من حياته لتفسح له المجال كي يعيش قصته مع إينيسا التي حاولت للآن أن تحافظ على صداقتها دون أن تظهر لها أيّة علامة تشير إلى أيّ نوع من مشاعر الغيرة والتنافس على حبّ رجل واحد. وهنا فقط، اكتشف لينين أن كلّ اعتقاداته وحساباته كانت خاطئة، فعذاب ناديا النفسي كان العامل الرئيس في ما آلت إليه من مرض خطير، وهذه حقيقة عاينتها عن قرب حتى إينيسّا، لذلك لم يعد هناك من حلّ منصف للجميع سوى أن تخرج من حياتها وإلى الأبد.

الحبّ بالنسبة للينين ضعف إذا ما أصاب إنسانا أتى عليه كاملا، لذا فهو أمر لا يليق برجل مسؤول مثله ومازال أمامه الشيء الكثير حتى تتحقق أهداف الثورة. وكل من يترك نفسه لشلال الحبّ يجرفه حيثما شاء، فهو لا يستحق ثقة الآخرين به، هكذا كان يقول لينين، بل حتى مجرد الهوايات

البسيطة كلعبة الشطرنج التي كان يحبّها كثيرا وكذا التزلج على الجليد تخلى عنها لأنه كان يرى فيها عائقا سيحول دون تحقيقه لأهدافه التي تستوجب فكرا يقظا وثاقبا لا تشغله العواطف، ولا تثنيه المشاعر الجيّاشة عن خدمة القضية على كافة المستويات، فالشطرنج مثلا كما سبق وروت زوجته لإينيسّا كان من وجهة نظره لعبة «تسلب الإنسان نفسه، وتضيّع الكثير من وقته، وتبعده بالتالي عن كلّ ما له علاقة بالثورة»، أمّا التزلج فكان يرهقه جسديا ويجلب له النعاس، ويضيّع عليه بالتالي فرصة الدراسة والبحث والقراءة حينما كان يعود إلى البيت.

رجل مثل لينين، كان من الطبيعي أن يأتي وقت ويطلب فيه من إينيسّا أن تنسى تلك القصة التي عاشاها معا، وإن كان حبّهما نافذة صغيرة هبّ منها نسيم عليل خفف نسبيا من طابعه المنغلق التملّكيّ، ذلك أنه كان قد بدأ يتغيّر فعلا بعد وقوعه في غرام إينيسّا، هذه الأخيرة التي أخطأت كثيرا في تقدير الأمور حينما اعتبرت هذا الحبّ خالدا وحرّا من كل القيود، بل قادرا على مواجهة كلّ الصعوبات، إذ «لا يمكن أن يجمع الإنسان في قلبه بين حبّين»، هكذا قال لها لينين خلال نزهتهما ولحظة وصولهما إلى قلعة واويل، فتلك الحكاية الجميلة التي عاشاها على جبال تاترا لم تكن تشبه رواية (ماالعمل؟) لصاحبها شيرنيشفسكي، ولا هي تشبه قصتها مع زوجها السابق أليكساندر، ولا حتى مع حبيبها الراحل فولوديا.

وبعد شدّ وجذبٍ وطول تفكير، قرّرت إينيسّا العودة إلى باريس كمحاولة أخيرة منها لترتيب أمور حياتها من جديد بعيدا عن الجميع، وهو القرار الذي لم يعارضه أبدا لينين، بل على العكس من ذلك تماما فقد بدت

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عليه علامات الارتياح والاسترخاء وكأنه تحرّر من همٍّ كبيرٍ كان جاثما على صدره. أمّا ناديا فقد تكفّلت بشرح أمر هذا القرار لبقية الرفاق مؤكدة لهم أن إينيسّا ستسافر لأنّها لم تجد ما كانت تبحث عنه في هذه المدينة التي باتت تذكّرها ببرودة ميزين وعزلتها وكآبتها، وقيودها التي حرمتها من التعبير عن مكنوناتها الدفينة ومشاريعها السياسية الثورية.

وأخيرا غادرت إينيسّا كراكوف، ولكنها لم تذهب مباشرة إلى باريس، وإنما فضّلت أن تقوم أولا بجولة في ربوع سويسرا من أجل زيارة أصدقائها المهاجرين هناك، وعليه ذهبت إلى مدينة أروسا المتواجدة بمنطقة جريسنس والتي التقت فيها، ولكن هذه المرّة بشكل سرّي تماما، فلاديمير إيليتش، الذي كان هناك هو الآخر من أجل حضور بعض الاجتماعات السياسية، لكنه قبل المغادرة أحبّ أن يلتقي بها لأنه يعلم مسبقا أن تلك ربّما ستكون المرة الأخيرة التي سيراها فيها.

وافقت إينيسّا على طلب اللقاء هذا لأنها كانت تعتقد أنه مازال ثمة أمل في الوصال بعد طول الهجر والقطيعة، لكن لينين أكّد لها مرّة أخرى في لقائهما القصير ذاك، أن ما من سبيل أبدا للرجوع عن قراره، وهو الموقف ذاته الذي جعلها تُعجّل بسفرها إلى باريس للاستقرار فيها بشكل نهائيّ في كانون الأول ١٩١٣، لكنّ حتى هذا الهرب والبُعد المُجَدَّدَيْنِ لم يمنحاها تلك الطمأنينة التي كانت تبحث عنها، لا سيما وأنها اليوم تعيش بمدينة كل شيء فيها يذكرها بتلك الأوقات السعيدة التي قضتها فيها مع حبيبها. وهاهي الآن أكثر من أيّ وقت مضى تشعر بحاجة ماسة للتواصل معه، ليس من أجل أن تعاتبه على ما فعله معها، ولكن فقط لتعيد معه نسج تلك

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الخيوط التي قطعها البعاد وطول المسافات بينهما، ولم تجد من حلّ سوى أن تجلس إلى مكتبها مع بدايات سنة ١٩١٤ لتكتب له رسالة تعبّر فيها عن كلّ ما يخالجها تجاهه.

(١٦)
الرسالة المخفية

من ذا الذي يذهب إلى موسكو ولا يزور أرشيف الحزب الشيوعي السوفيتي من رجال التأريخ والبحث العلمي؟! إنه الأكبر في العالم، وكل من يريد اكتشاف دهاليزيه ما عليه سوى أن يعبر بوّابته الكبيرة التي هي أشبه بمدخل لملجأ من ملاجئ الطوارئ الحربية، ثم المرور عبر أنفاق تؤدّي مباشرة إلى المقرّ الرئيس للجنة المركزية للحزب الشيوعي. ولقد كان المؤرّخ الرّوسي دميتري فولكوغونوف، - وهو رجل شيوعي سابق والذراع اليمنى لرئيس الفيدرالية الروسية بوريس يلتسن - أوّل من دخل إلى هذا الأرشيف أو المكتبة الضخمة سنة ١٩٩٢، لم تكن آنذاك قد مرّت سوى بضعة شهور على إنزال العلم السوفيتي الذي ظلّ خفّاقا فوق قصر الكرملين، وكان قد تمّ تفكيك اتحاد الجمهوريات الاشتراكية كاملا.

حينما دخل فولكوغونوف ألغى طابع السرّية عن الأرشيف، وجعل كل وثائقه عمومية يمكن للجميع أن يتصفّحها. لقد كان هذا الأمر في بدايته مثيرا للجدل والدهشة. وهكذا أصبح يحجّ إلى أرشيف موسكو العديد من البحّاثة المهتمّين بالتاريخ من كلّ صوب وحدب بهدف دراسة وثائق ظلّت سرّية لما يزيد عن مئة سنة: إنه لحقا شيء رائع أن يطّلع المرء على حقائق تخصّ الثورة والسنوات الأولى من حكم الجمهوريات السوفيتية، وكذا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قرارات المكتب السياسي، والوثائق المتعلّقة بالثورات في كلّ أنحاء أوروبا، وآسيا وإفريقيا!

وكما توقّع العديد من رجال التأريخ ظهرت فعلا أوراق لم يسبق لأحد أن اطّلع عليها بما فيها تلك الخاصة بالعلاقات بين أهمّ شخصيات الحركة الشيوعية، وأصبحت بعض الأخبار حقيقة مؤَكّدَة، وتوضّحت أمور شتّى بشأن بعض القضايا التي لم يكن قد حسم في أمرها بعد، وطفت بالتالي على السطح أسرار ظلت لأمد طويل محجوبة عن الجميع.

في دهاليز هذا القصر الكبير كان يوجد أيضا أرشيف لينين زعيم البلاشفة، وكان يحوي وثائقه ومؤلفاته، وكتاباته ورسائله والأوراق التي كان يسجلّ فيها بعض ملاحظاته أو إشاراته. وإضافة إلى هذا وخلال رحلة البحث والتنقيب تمّ اكتشاف رسالة لم يسبق لأحد أن اطّلع عليها أبدا، لأنها كانت مخفية في علبة، وهي رسالة حبّ وعشق، كتبتها إينيسّا أرماند للينين في كانون الثاني ١٩١٤، رسالة تظهر للجميع ذاك الذي حاول النظام ورجال التاريخ السوفييتي إخفاءه وإنكاره بالكامل: العلاقة العاطفية التي كانت تجمع بين مؤسس الاتحاد السوفيتي والمرأة التي ظلّت لسنوات عدّة إلى جانبه، أو المرأة التي كانت بالنسبة له: «نور حياته الوحيد، وشمسها الساطعة»، كما سبق وقال فولكوغونوف في حوار صحفي أجرته معه جريدة (لو نوفيل أوبسرفاتور) بمناسبة افتتاح هذا الأرشيف الكبير.

قبل الإعلان عن محتويات الأرشيف كممتلكات يمكن لعامّة الناس تصفّحها، قام المهتمّون من رجال التأريخ بنشر بعض رسائل فلاديمير

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إيليتش إلى الرفيقة أرماند في كتاب يضمّ كل أعماله، مع الحرص تماما على عدم الإفصاح عن الرسائل الأخرى التي كان من شأنها أن تسيء إلى شخصية هذا الزعيم أو سمعته بأيّ شكل من الأشكال.

ولقد كانت الرسائل المنشورة في كتاب الأعمال الكاملة تشهد على ما كان يجمع بين الاثنين من عمل سياسي مشترك وصداقة عميقة دون الإشارة أبدا إلى الجانب الغراميّ في حياتهما معا، ذلك أنه تمّ حذف كل ما يمكن أن يحمل مضمونا يدلّ على أيّ شيء يثير الشكّ أو الفضول.

ما يمكن قوله عن هذه الرسالة إنّ إينيسّا كتبتها حقا للينين، لكنها احتفظت بها دون أن ترسلها إليه، ولربّما تكون ابنتها إينّا هي من وضعتها عن قصد في تلك العلبة التي بقيتْ فيها إلى أن تغيّرتِ الظروف السياسية وظهر للجميع ما حرص لينين على إخفائه أثناء حياته متجسدا في رسالة هي الدليل القاطع على أنهما كانا عشيقين يحبُّ أحدُهما الآخرَ، وهذه كلماتها:

«هأنذا من جديد في مدينة النّور وبداخلي شعور مريع بالاشمئزاز من كل شيء، حتى جدران الطرقات والمنازل لا تعجبني بلونها الرمادي، وكلّ ما حولي فقد بريقه في قلبي، ولم تعد تعجبني فساتين النساء البهيجة ولا الأحاديث الصّاخبة، ولا حتى اللغة الفرنسية، فأنا متعبة جدّا وبي حالة رهيبة من الملل.

وحينما وصلتُ إلى شارعَيْ سان ميشيل وأورليان هاجمتني الذكريات من كل جانب، وانتابني إحساس بالوحشة والحزن لمجرّد أنه عادت لمخيّلتي تلك اللحظات السعيدة التي عشناها معا في هذه المدينة، وتمنّيت لو عدنا لسابق عهدنا، وأنّى لنا ذلك والماضي الجميل لا يمكنه أن يعود أبدا، فتلك

أيّام شباب كان كل شيء فيها عذبا، وكان الفكر خاليا من المشاكل والمتاعب.

كم هو مؤسف حقّا ألا نستمرّ في النظر إلى الأمور بنفس عقلية الأمس، وهاهي الحياة تتسرّب من بين أصابعنا ونحن لا نستطيع لها شيئا. إنه لحقّا أمر محزن للغاية، لأنّ لقاءنا في أروسا لم يكن سوى لحظة عابرة. صحيح أننا كنّا قريبيْن من كراكوف، وكانت الأمور نسبيا تبدو أقلّ قسوة، لكنني اليوم في باريس والقطيعة باتت نهائية وبدون أدنى بصيص من الأمل.

افترقنا يا عزيزي، أنتَ وأنا افترقنا! آهٍ كم هي مؤلمة هذه الحقيقة بالنسبة لي، وأعرفُ جيّداً بأنك لن تعود إلى باريس أبداً.

وبرجوعِي إلى أماكننا في هذه المدينة، اكتشفتُ كمْ كُنْتَ ولم تزلْ مهمّا في حياتي، كل شيء كنتُ أقوم به في باريس كان مرتبطا بكَ وبأفكاري التي لمْ تكن تدورُ سوى حول شخصيتكَ، طبعا لم أكنْ آنذاك أحبّكَ بنفس الدرجة التي أحبّكَ بها اليوم، ولكن يبدو أنني كنت قد وقعتُ في غرامك منذ الأيام الأولى التي قضيناها معا. وماذا عن قبلاتك يا عزيزي، أيمكنني الاستغناء عنها كما كنت أفعل في السّابق؟ نعم، لأنّ أكبر أمنياتي أصبحت أن أراك وأجلس معك لا غير، أتبادل وإياك أطراف الحديث لا أقلّ ولا أكثر. آه لو تتحقق هذه الأمنية! سأكون سعيدة للغاية ولا أعتقد أن الأمر سيجرح مشاعر أحد ما أبدا.

لماذا حرمتني من رؤياك إذن؟ وتسألني إذا ما كنت غاضبة أم لا من قرار القطيعة؟ طبعا لا، لأنني أعتقد أنك لست أنت من أراد حقّا هذه القطيعة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في باريس كانت علاقتي مع ن.ك جيّدة، وازدادت تعمّقا بعدما اعترفت لي في أحاديثنا الأخيرة أنها تُعِزّني بشكل خاصّ وتشعر أنني أقرب إليها من أيّ شخص آخر. وأنا أيضا بادلتها الحبّ ذاته منذ البداية، إنها امرأة لطيفة وجذّابة وجديرة بالثقة. وحينما كنت أذهب من حين لآخر إلى باريس كنت أقوم بزيارتها والبقاء معها في غرفتها والجلوس إلى طاولتها والحديث معها في كلّ شيء، سواء أكان مهمّا أم لا. في حين كان الأمر مختلفا تماما معك، ذلك أنني كنت أشعر بالحياء الشديد تجاهك، وكم كنت أحبّ الاقتراب منك لكن خجلي كان يمنعني، فقد كنت أفضّلُ الموت على أن أطرق باب مكتبك، وحينما كنتَ تأتي إلى غرفة ن.ك، كنت أبدو مرتبكة للغاية، وفي وضع مضحك وبليد، حتّى أنني كنت أحسد الآخرين على ما كانوا يملكونه من شجاعة للدخول إلى مكتبك دون أدنى تحفّظ أو تردّد. في الحقيقة لم أتعوّد عليك إلّا في لونغجيمو، أيْ في خريف السنة الموالية حينما قمت بتلك الترجمات التي طلبتها منّي آنفا.

كنتُ أحبّ الاستماع إليك وأعشق النّظر إلى وجهك وأنت تلقي خطاباتك، لأن تعابير وجهِك كانت تتغيّر وتحتقن كاملة، وكنت تنسى كلّ من حولك، لدرجة أنك كنت لا تنتبه إليّ وأنا أراقب كلّ حركة تصدر عنك».

كانت هذه هي الرسالة التي كتبتها إينيسّا بعد أن تركت كراكوف ببضعة أسابيع فقط، حينذاك كانت كل الأخبار قد انقطعت عنها، أمّا تلك التي تتعلق بلينين والتي كانت تصلها عن طريق بعض الرفاق فلم تكن

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كافية لملأ ذاك الفراغ المهول الذي باتت تشعر به إينيسا في بعدها عن حبيبها فلاديمير.

إنها الآن جريحة وتجد صعوبة كبيرة في استيعاب ما حدث، وتتمنى لو تتواصل مع حبيبها ولكن ما من طريقة، لذا فلم يبق أمامها سوى القلم، صديقها الوحيد الذي سيساعدها على التخفيف من أحزانها عبر الكتابة والبوح بما يجول في خاطرها من آلام دفينة. وعليه بدأت تكتب في إحدى الصباحات دون أن تشعر بالرغبة في التوقف، ذلك أنها في رسائلها تلك كانت تتحدّث عن إحساسها بالمرارة والذّنب تجاه صديقة شابّة عزيزة عليها أقدمت على الانتحار، ثمّ تلا هذا الخبر الحزين اعتذارها عن كونها جعلت من خطاباتها فرصة للحديث فقط عن عواطفها، لذا اقترحت على لينين ألا يقرأها كاملة إذا كان يعتقد أنّ هذه الرسائل ستأخذ من وقته الكثير.

فقط في الأسطر الأخيرة بدأت تتحدث عن «السياسة»، وعن الأشخاص الذين تعرّفتْ عليهم، وعن العلاقات التي ربطتها من جديد في إطار عملها من أجل القضية، وهي نفسها الأسطر التي صرّحت فيها بأنه على الرّغم من البعد والمسافات، وعلى الرغم من جراحها العميقة وعن الحبّ الذي مازال ينبض حيّا في قلبها فإنها مستعدّة للعمل من جديد معه وإلى جانبه، لأنّ العمل من أجل الثورة يبقى دائما وأبدا فوق كل الاعتبارات.

كان من المفترض أن تبعث برسالتها تلك إلى لينين، لكنّ الظروف حالت دون ذلك وفضّلت أن تحتفظ بها لنفسها، لا سيما وأنها علمت أنه

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سيأتي في أواخر شهر كانون الثاني إلى باريس رفقة صديقه مالينوفسكي الذي يثق به إلى أبعد الحدود على الرغم من تحذيرات الجميع له منه، لذا، ارتأتْ أنه من الأصوب ألّا تفسد عليه هذه الزيارة بتلك الرسالة التي كتبتها في لحظة من لحظات الضعف والألم.

وبالفعل حينما التقى الاثنان، لم يُقِمْ لينين بينه وبين إينيسّا أيّ جدار من التحفّظ والحيطة. إنه هنا في باريس من أجل حلّ بعض مشاكل الحزب وإلقاء بعض المحاضرات، والبحث عن بعض المصادر لتمويل الحزب، ولقد نزل ضيفا على عائلة مازانوف صاحبة الفندق الذي تقيم فيه إينيسّا أيضا، وهو الأمر الذي سهّل أيضا عليهما البقاء معا لبضعة أيام وتحت سقف واحد.

وعلى الرغم من أن نتائج المحاضرات لم تكن مُرضية بالشكل الذي كان ينتظره لينين، إلا أن هذا الأخير كان يبدو على غير عادته أكثر هدوءا وسعادة. فدفء أجواء الفندق العائلية، والمدينة التي تعرفّ فيها على إينيسّا، وإحساسه بأن إينيسّا ليست غاضبة منه بسبب قرار القطيعة، كلّ هذا شجّعه على أن يترك العاطفة تجرفه حيث شاءت، وإينيسا كذلك تبنت نفس الموقف محاولة في الوقت ذاته ألا توهم نفسها بحدوث المستحيل، فهي لا تنتظر منه أن يتراجع عن قراره، ويكفيها أنها تستطيع على الأقلّ أن تستمرّ في حبّها لهُ مع علمهما معا أن الأمر برمّته لن يكون سوى فترة عابرة لن تغيّر من سير الأحداث شيئا.

وبينما هما مأخوذان بمشاعر الحبّ الملتهب، بقي مالينوفسكي مراقبا لكلّ شيء، مع العلم أنه في تلك الأيّام القليلة التي قضاها لينين في باريس استلم

رجال البوليس السرّيّ القيصريّ بفرنسا رسالة مفادها أنّ إينيسّا هي عشيقة زعيم البلاشفة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(١٧)
امرأة متعدّدة المهامّ

من كراكوف بدأ لينين يغرق إينيسّا بالرسائل، وهو الرجل الذي قرر القطيعة وأرادها بكل ما فيه من قوة، وهاهو الآن في رسائله يطلب منها تنفيذ العديد من المهامّ محاولا إقناع نفسه والآخرين بأن الأمر لا يدخل سوى في إطار رغبته بالحفاظ على عضوة تساعده في العمل ويمكن الوثوق بها، خاصّة وأنها استطاعت سابقا أن تنفذ من المهامّ أصعبها ونجحت في ذلك بامتياز. هكذا هي إذن أخلاق المناضل الحق، فالعمل عنده يجب أن يكون فوق كلّ الاعتبارات، وإن كان الأمر يتعلق بالعواطف والعلاقات الخاصّة.

إن مراسلات لينين كما سبق وذكر المؤرّخ رالف كارتر إيلوود في كتابه (إينيسّا أرماند: المرأة الثورية والنسوية)، «تعكس الدّور الجديد الذي أصبحت تمثله في الحزب، فلينين كان يرى فيها فتاته التي عليها أن تقوم بكلّ ما يكلّفها به من مهامّ، ويجب بالتالي الإفادة من كلّ خبراتها اللغوية، ومن إقامتها الآن في باريس. ولذا فإنها ستكون الوسيلة التي سيعيد بها البلاشفة إلى جادّة الصواب، كما أنه يمكن أيضا استخدامها من أجل إرسال خطاباته الشديدة اللهجة إلى معارضيه السياسيين، وكذا من أجل حلّ كلّ المشاكل التي يفضّل عدم التصدّي لها بنفسه».

هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فالمهامّ التي كان لينين يطلب من إينيسّا تنفيذها لم تكن كلّها ذات قيمة عالية، فبعضها كان أيضا بدون أيّة فائدة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تذكر، كأن تشتري له مثلا بعض الجرائد، أو تترجم له بعض الكتب التي يريد قراءتها، وكذا خطاباته إلى اللغتين الفرنسية والألمانية، لدرجة أنه طلبَ منها ذات مرّة أن تجمع له المجلّدات التي سبق وأن تركها هو وكامينيف في مناطق مختلفة من باريس، ومرّة ثانية طلب منها أن تتدخّل له لدى جريدة (الاشتراكي الديمقراطي) لأنها لم تنشر من وجهة نظره معلومات صحيحة. إضافة إلى كلّ هذا، كان غالبا ما يعبّر لها عن غضبه من سوء عمل منظمة المنفيين التي كانت إينيسّا مسؤولة عنها في فترة سابقة من حياتها. وأحيانا أخرى كان ينفجر فيها حانقا على كل تلك الأشياء التي لا تسير وفق رغبته أو لا يستطيع أن يحققها أو يعالجها كما يريد مستخدما في رسائله كل صيغ السلطة والأمر والنهي والقسوة بدون أدنى مبرر.

وعلى ضوء ما سبق قوله هناك سؤال لا بدّ من طرحه الآن: ما الذي يجعل امرأة مستقلّة وحرّة كإينيسّا تقبل على نفسها هذا النّوع من التبعية؟ بل ما الذي يجعلها يا ترى تتحمّل أوامر لينين بما فيها تلك التي كان يصدرها بطريقة غير مهذّبة، وهي المرأة التي تحدّت البوليس السرّي وكذا السلطات القيصرية دون أن تطأطأ رأسها لأحد، لا حينما كانت في السجن ولا حينما كان محكوما عليها بالإقامة الجبرية؟!

الأجوبة متعددة، أولها أنها قبل كلّ شيء امرأة بلشفية وتعرف كما لينين أن العلاقات الشخصية والعاطفية عليها أن تبقى بعيدة عن واجبات العمل من أجل القضية والثورة، لذا فإنها تتفهّم جيّدا مواقف لينين بشكل لا يمكن للآخرين استيعابه، وعليه فإنّها تحاول دائما أن تجد الأعذار له، فهو من جهة مستاء من كاوتسكي، وغاضب من قرارات اللجنة المركزية، وحانق

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أيضا على قلّة الموارد المالية، ومن جهة أخرى قلق جدّا على الأخبار التي ترده من روسيا لا سيما تلك التي تتعلق بقضية اعتقال أعضاء اللجنة المركزية وجريدة البرافدا، إضافة إلى خبر اعتقال صديقه المقرّب الجورجيّ جوزيف ستالين.

وإلى كل هذه الأعذار، كانت إينيسّا تضع في الاعتبار الضغوطات التي كان يعاني منها لينين وهو يحاول أن يفهمها أن علاقتهما قد انتهت بشكل لا رجعة فيه، وكانت هي تعتقد أنّ هذا الأمر من الممكن أن يؤثر جدّا على عملهما معا من أجل الثورة، لكن العكس هو الذي حدث، لأنه للآن مازال يبحث عنها ليكلّفها بأعمال غير ذات قيمة، ممّا جعلها تتأكّد من أنّ الرجل الذي ادّعى رفضه لها، مازال متعلقا بها ومنجذبا إليها ويريد التقرّب منها مرّة أخرى. لكن على الرغم من كلّ هذا، فهي مازالت تشعر بالحزن والتعاسة، لأنها بدأت تتغيّر في الآونة الأخيرة، ولم تعد تلك المرأة المستعدّة لأن تتحمّل كل شيء، بل لم تعد عندها القدرة بتاتا على الركض من حيّ لآخر في باريس فقط من أجل أن تلبّي أوامر فلاديمير إيليتش حتى بعد أن انتهت علاقتهما العاطفية، لا سيما وأنها بدأت تلاحظ ذاك الفرق الكبير في المعاملة من جهته بينها وبين باقي مدراء الحزب، لذا، قررت أنها من الآن فصاعدا سوف تركّز اهتمامها على الأشياء التي تروقها، وليس على ما يطلبه منها لينين، فانخرطت في مشروع ثقافي ونضالي جديد، وأسست بموجبه هي ومجموعة من النساء البلشفيات مجلة أطلقن عليها اسم (رابوتنيكا) أو المرأة العاملة، وتبقى أهمّ العضوات فيها كونكورديا ساموليوفا من سان بطرسبورغ، ونادیا كروبسكايا، وليليانا

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

زينوفيفا من كراكوف، ثم إينيسّا وليودميلا ستال من باريس، أو الصديقة التي كانت تقضي معها إينيسّا في مقهى سان- ميشيل ساعات طوال من أجل تنسيق المقالات وتنضيدها ثم مناقشتها وإعدادها للنشر، وهو العمل الذي كانت تنتظر القيام به منذ أمد طويل بدل إضاعة الوقت في الانشغال بأمور لا تغني ولا تسمن من جوع.

وعلى الرغم من علم إينيسّا مسبقا بأن رجال الحزب سيعارضون مشروع هذه المجلة النسائية، إلا أنها فاتحت لينين في الأمر، لأنها كانت تعرف جيدا أنه لا يملك أن يرفض، أليس هو القائل إنّ النساء أيضا يجب عليهن الكفاح من أجل الحصول على نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجال؟ أليس هو من قال إنّ مساهمة النساء في العمل النضالي مهمّ جدّا للثورة؟!

(رابوتنيكا)، مجلّة مهمّة للغاية، ففي هيئة التحرير توجد المناضلات اللائي أصبحن فيما بعد رائدات المناداة بتحرير المرأة والفتاة في الاتحاد السوفييتي، وقد كتبت عنها باربارا إيفان كليما قائلة في كتابها (المرأة البلشفية): «المجلّة تمزج بين الفكر الماركسي وقضايا المساواة بين الجنسين من أجل نسج الأفكار الرئيسة التي ستحدد فيما بعد قضية النسوية البلشفية»، وهي القضية التي لا تنبني على الفكرة القائلة بأن الرجال هم السبب الرئيس للميز والحيف اللذان تعاني منهما المرأة، وإنّما تعتبِرُ عدم المساواة الحاصلة في هذا الإطار ماهي إلا تحصيل حاصل لقسوة سياسات ومناهج العمل داخل المصانع المعاصرة. وهذا الظلم لا يمكن رفعه إلا عبر تحالف المرأة مع شريكها الرجل داخل الحزب العمّالي من أجل تغيير جذري لواقعهما المعيش.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على صفحات (رابوتنيكا)، نشرت إينيسّا مقالتين؛ الأولى ناقشت فيها قضية الحقوق الانتخابية للنساء، والثانية تطرّقت فيها لساعات عمل المرأة داخل المصانع، ولقد كانت فخورة بهذا النجاح الذي حققته من خلال عملها بالجريدة.

نعم، لم يكن لينين راضيا على هذا المشروع الجديد، وكان يعتبره مضعية للجهد والمال والطاقة التي من الأفضل توجيهها نحو مشاريع أكثر جدّية، لكنه هذه المرّة لا يستطيع أن يعبّر عن رأيه بصراحة مخافة أن يثير حساسية إينيسّا وكذا زوجته ناديا، وحاول أن يجد وسيلة أخرى يمنع بها إينيسّا من الاستمرار في الاهتمام بأشياء لا فائدة منها، فبدأ يغرقها من جديد بالأوامر والطلبات التي كانت تجدها في كثير من الأحيان غير ذات جدوى، ولو أنه كتب ولو مقالة واحدة يدعم بها مجلة رابوتنيكا بصفته زعيما للبلاشفة لكان أفضل من أن يستمرّ في إغراقه إياها برسائله المملة، وهو الموقف الذي جعلها تعيد ترتيب أفكارها وتقرر معاملته وأوامره بنوع من اللامبالاة وعدم الاهتمام.

وأخيرا رأت (رابوتنيكا) النّور، وصدرت رغما عن الصعوبات الشديدة في الثامن من آذار ١٩١٤، بالضبط كما أرادت لها إينيسّا، إلا أنّها استُقبلت بشكل صاخب وعنيف في سان بطرسبورغ حسب ما رواه المؤرّخ الفرنسي جان فريفيل في السيرة البيوغرافية التي كتبها عن حياة إينيسّا، إذ يبدو أنّ ذاك الترخيص الحكومي الذي حصلت عليه المجلة من أجل ممارسة نشاطاتها لم يكن في الواقع سوى فخّ نصبه رجال البوليس السرّي من أجل إلقاء القبض على المحرّرات فيها جميعا، وذاك ما تمّ بالفعل، ففي الثامن من

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

آذار جاء رجال الدرك القيصري، وقبض على المناضلات الخمس، وصادر المجلة. وحينما وصلن إلى سجن فيبورغ وجدن في انتظارهن خمسا وعشرين مناضلات أخريات كان قد ألقي القبض عليهن سابقا بسبب نشاطهن السياسي: «يا لتعاسة حظّنا»، كتبت تقول فيما بعد كونكورديا ساموليلوفا؛ «كان كلّ حلمنا أن نفتح أبواب السجون القيصرية، ونشعر ولو ليوم واحد بأننا مواطنات يتمتّعن بحريّتهنّ في هذا العالم، لكن الذي حدث، هو أننا سقطنا جميعنا؛ ثلاثون امرأة في سجن القيصر».

لكن الأخبار المتعلقة بـ (رابوتنيكا)، لم تنتهِ بسجن نسائها المناضلات فقط، فقد علِمَتْ فيما بعد العضوات اللائي بقين خارج أسوار السجن سواء بباريس أو بكراكوف أنّ عملهن لم يذهب سدى، ففي الثامن من آذار تظاهرت السجيناتُ ضد القمع القيصري، وعلى الرغم من أن الشرطة تدخّلت بشكل سريع لإخماد مظاهراتهنّ، إلا أن شعلة الثورة تجاوزت جدران السجن ووصلت إلى الشوارع، حيث خرجت نساء أخريات بشوارع سان بطرسبورغ تضامنا معهنّ، وتطوعت مناضلات جديدات من أجل العمل في المجلة، وكانت النتيجة أن صدر أخيرا أول عدد من (رابوتنيكا).

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(١٨)
عطلة «خفيفة وترفيهية»

إذا كانت إينيسّا قد استمرّت خلال الأشهر الأولى من سنة ١٩١٤ في تنفيذ أوامر لينين مُخفية انزعاجها من الأمر، فإنه الآن قد حان الوقت الذي بدأت لا تستجيب فيه لطلباته بالمرّة، وأكبر دليل على ذلك أنّها قررت الذهاب لرؤية أبنائها وقضاء فترة العطلة معهم على سواحل البحر الأدرياتيكي، على الرغم من أنّ الحرب باتت على الأبواب، والتي لم تنفجر حقيقة إلا بعد عملية اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانس فيرديناند بسراييفو في ٢٨ حزيران ١٩١٤، وهي ذاتها الفترة التي وقعَ فيها من الأحداث ما عجّل بانهيار الأوضاع السياسية بالبلقان غداة انضمام البوسنة للنمسا، وبظهور الحملات الاستعمارية التي شنّتها الدول القوية على غيرها من الدول الأخرى عبر أساطيلها العسكرية التي أصبحت ممتلئة عن آخرها بالأسلحة. أمّا لينين فكان يرى في كلّ هذا عوامل أخرى إضافية للتعجيل بحدوث الثورة، ودفع الشعوب إلى التمرّد على حكّامها، ولا سيما روسيا التي أصبح الوقت مناسبا فيها لقلب نظام الحكم القيصريّ. لكن إينيسّا لم تهتمّ لكلّ هذا وغادرت باريس رغما عن كل شيء، فهي لم ترَ أبناءها منذ ما يزيد عن السنة وهي اليوم متحمّسة أكثر من أيّ وقت مضى لقضاء عطلة وصفتها بـ«الخفيفة والمسلّية وغير المكلفة»، مع أبنائها الذين أصبحوا الآن رجالا، فأليكساندر الأكبر يبلغ عشرين سنة، وفيدور يناهز عمره الثماني عشرة سنة، والصغير أندريه بات يبلغ من العمر عشرة أعوام، أمّا فارفارا وإينّا فما زالتا مراهقتين يافعتين.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التحقوا بها جميعا، وقضوا أسابيع جميلة وهنيّة بالقرب من مدينة تريست. إنها الآن أمٌّ سعيدة، وتعتبر أنّ جوّ هذه العطلة هو ممتع حقا، ومُسَلٍّ للغاية بعد أحزان الخريف الباريسي: «لقد كنّا نريد أن نستمتع معا بكلّ شيء: الشمس والبحر». هكذا كتبت إينيسا فيما بعد بمذكراتها عن هذه العطلة.

التقطت إينيسّا وأبناءها بعض الصور، ثم أرسلتها إلى أليكساندر، وكان يظهر فيها الصغير أندريه واقفا بحنان بجانب والدته، التي كانت تبدو رائعة بقبّعتها الجذّابة والخارجة عن المألوف، وبقربها توجد أيضا فارفارا، باسمة وأنيقة هي الأخرى.

على شواطئ البحر الأدرياتيكي، تخلّصت إينيسّا من تعب تلك الشهور التي قضتها وهي تركض بشوارع باريس، أو وهي تنظم وتشرف على الاجتماعات الطويلة، وتحاول أن تحاور بشكل ديبلوماسي معارضي فلاديمير إيليتش. نعم، لقد تبخّر كلّ شيء الآن أمام إشراقة شمس أيار ووسط زرقة هذا البحر الجميل. إنه نوع من الهروب والتمرّد هذا الذي باتت تواجه به إينيسّا لينين، ذلك أنّها لم تعد راضية أبدا على المهام التي كان يكلّفها بها في الفترة الأخيرة، وهي اليوم أكثر من أيّ وقت مضى مصابة بخيبة أمل كبيرة بسبب اللامبالاة والبرود اللذان بات لينين يعامل بهما جريدة رابوتنيكا أو (المرأة العاملة)، لكن ثمة شيء آخر جعلها تفقد السيطرة على نفسها تماما، وتغضب بشكل جدّي وصارم، وهو تكليفه لها مؤخرا بالعمل على الاقتراب من الاشتراكيين الديمقراطيين الأوكرانيين من أجل خلق شرخ في الحزب ضدّ السكريتير ليف يوركيفيش، والتوصل

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالتالي إلى إنشاء مجموعة جديدة أكثر اتحادا مع البلاشفة. إلا أنّ الذي حدث، هو أنّ الخطة فشلت تماما، ولم يتحقق الانقسام الذي كان يصبو إليه لينين، فأعلن بشكل صريح عن غضبه من إينيسّا، وقال لها إنها تعاملت مع المهمة التي كلفها بها بشكل ساذج، وتصرّفت كما لو كانت «القديسة العذراء»، وهو النعت الاستخفافي الذي لم تتحمله منه، لا سيما وأنها قامت بكل ما في وسعها من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

وإلى كلّ هذا يضاف أمر آخر، يمكن القول عنه إنه أدّى إلى تدهور العلاقة بين الاثنين: فإينيسّا قبل الشروع في تنفيذ مهمّتها تلك، قررت أن تحيط ببعض تفاصيل القضية الأوكرانية فقرأت رواية (زافيتي أوتكوف) لكاتبها فينّيشينكو، وهي رواية عُرِفَ عنها أنها قد لاقت نجاحا ملحوظا في الآونة الأخيرة، إضافة إلى كون كاتبها هو في الوقت ذاته أحد أهمّ الأعضاء المُسيّرين للحزب الأوكرانيّ، ولقد اهتمت بها إينيسّا لأنها تناقش قضايا الدّعارة والجنس بدون تحفّظ أو رقابة. وبناء على كلّ هذا كتبت للينين بعد أن انتهت من قراءتها، تحدّثه عنها، وأرسلتها له كاملة ليطّلع عليها هو أيضا، إلا أنّ ردّ الزعيم كان سيّئا للغاية ومثيرا للغضب: «يا لها من خزعبلات! كيف يمكن الجمع بين كل هذه الأشياء المقرفة التي لا يتقبلها عقل في رواية واحدة؛ فسق وفجور، وزهري، وجرائم وابتزازات عاطفية، وكل هذا ممزوج بانفجارات هيستيرية، واستعلائية من أجل أن يبرر الكاتب رأيه الخاص تجاه تقنين الدعارة وعمل العاهرات. يا له من متبجّح وغبيّ، هذا الفينّيشينكو، الذي جمعَ كلّ ما يثير الرّعب في قصّة بدون قيمة ولا فائدة، بررر... بررر... ماهذه العفونة! خسارة ما بعدها خسارة أن يضيّع الإنسان وقته الثمين من أجل الاطلاع عليها!».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لماذا تصرّف لينين بهذه الطريقة الحانقة؟ وما سرّ غضبه العارم هذا؟ لا أحد يعرف، لكن إينيسّا يساورها شعور عميق بأنّ تلك الكلمات كانت موجهة لها هي، وليس لكاتب الرواية الذي لم يكن سوى ذريعة من أجل تمرير خطابات لينين الساخطة، حتى يعبّر بالتالي من خلالها عن رأيه الصريح في قضايا حرية الحبّ والجنس مع علمه تماما بمدى اهتمام إينيسا بها. وليس هذا فحسب، فهو بهذا الموقف أراد أن يقول لها مرّة أخرى، إنها ليست هذه هي الأمور التي يجب على الثوار الاهتمام بها، في هذا الوقت الذي تعيش فيه أوروبا حالة مزرية من الفوضى والاضطراب، دون نسيان أن روسيا نفسها لا شيء يبشر فيها بالخير، وقد بات التمرّد على سلطة القيصر أمرا قريبا، ممّا جعلها تشعر بالإهانة، فلم تردّ على رسالته، ولم تدخل معه في جدالات عقيمة، لأنّ صورة لينين إيليتش باتت تتغير في عينيها، ولم يعد هذا الأخير يُجسّد ذاك الرجل القويّ المطلق، وبناء على استنتاجها هذا قررت أن تسافر إلى ترييست وبأسرع وقت ممكن، وهو السفر الذي حينما علم به فلاديمير إيليتش، ثارت حفيظته، ووجد نفسه يتساءل في قرارة نفسه عن جدوى هذه الرحلة أثناء هذه الفترة القاسية والحرجة من تاريخ الحزب! لا شكّ أن الأمر برمته ما هو إلا نوع من الرفاهية التي ليس من حقها أن تتمتع بها الآن، وبالذات في وقت تعاظمت فيه مسؤوليات الحزب ومشاكله. قد يكون بالغ نوعا ما في الحديث معها بشأن القضايا الأخيرة، لكنه في الوقت ذاته لم يكن غبيّا حتّى لا يفهم سبب سفر إينيسّا جيّدا: إنها وللمرّة الأولى تقول له: لا. إنها تريد الانفصال عنه، فلقد تغيّرت، ولم تعد المرأة التي كان يعرفها لوقت قريب.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من موقف إينيسّا تجاه لينين استلهمت أليكساندرا كولونتاي - وهي المرأة التي كانت تعرفهما معا جيّدا، كما كانت على علم بعلاقتهما العاطفية- أحداث روايتها (حبّ كبير) والتي نُشرت سنة ١٩٢٧، وإن كانت قد غيّرت فيها العديد من التفاصيل والأسماء، إلا أن الأحداث والتشابه الكبير بين بطلي القصة وبين إينيسّا ولينين يؤكّدان أن كولونتاي لم تكن تتحدث حقيقة في روايتها هذه سوى عن زعيم الثورة وحبيبته إينيسّا بشكل لا مجال فيه للشكّ والجدال.

تدور أحداث رواية (حبّ كبير) في فترة ما قبل الثورة، ونتاشا هو اسم البطلة الروسية التي تعيش في المنفى، وهي امرأة ذكية، ورغم أنها تعمل بنشاط وحماس في الحزب، إلا أنها تشعر بأنّها مقيدة ولا تستطيع العطاء بكامل حريتها في ظل العقلية الذكورية التي تحكم الحزب والسياسة الروسية آنذاك.

أمّا بطل الرواية فاسمه سينيا، وهو كما تصفه الكاتبة رجل مهم، ذو ثقافة واسعة، ويكرّس حياته لتحقيق أهدافه وطموحاته السياسية، لكنه في الوقت ذاته رجل تعيس في حياته الزوجية، أو على الأقل هذا ماروواه لحبيبته نتاشا، مع العلم أنه ليست لديه أيّة نية في قطع كل ما يربطه بزوجته.

تُقدّم أليكساندرا كولونتاي في روايتها سينيا كرجل أنانيّ، لا شيء في الحياة يهمّه سوى تنفيذ رغباته وتحقيق أحلامه، أمّا عن العشق، فيعيشه كلّ من البطلين بطريقة مختلفة تماما، فنتاشا مثلا تعيش قصتها بكل حبّ وتفان وإخلاص، أمّا سينيا فيعيشها بعقلية الرجل المتخلّف، الذي يستغلّ عمل المرأة العاشقة وتضحياتها من أجل مصالحه الخاصّة، كما لا يخلو الأمر من أنه

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لديه أيضا الاستعداد للتصرّف بنوع من النذالة إذا دفعته الظروف إلى ذلك. لكن نتاشا التي قضت سنوات عدّة من حياتها في العمل، وتقديم التضحيات وتحمّل الإهانات من الرجل الذي أحبته بكل إخلاص وتفان، تستيقظ الآن من غفلتها، وتفهم للعمق طبيعة هذا الرجل الذي وقعت أسيرة لسيطرته لدرجة أنها قبلت أن تعيش معه في سجن العشق السرّي، والملل والوحدة التي لم تزدها سوى حزنا واكتئابا، ممّا دفعها إلى أن تأخذ زمام حياتها بيدها وتقرر أن تكرّس عملها لما تحبّه حقيقة: القضية والثورة، بدل أن تقضي بقية عمرها سجينة حكاية عاطفية كاذبة قيّدت وأوقفت كلّ ما بداخلها من حماس وقدرات فكرية ومهنية عالية جدا.

نعم، لقد قطعت صلتها بحبيبها، ولكن بشكل هادئ دون حقد ولا خصام ولا أيّ شيء من هذا القبيل، ممّا جعل سينيا يشعر بفظاعة ما ارتكبه في حقّ حبيبته، من إهانات وسوء فهمه لطريقتها في الإخلاص سواء في عملها أو في الحبّ الذي وهبته إياه، فقرر أن يستعيدها بعد أن استوعب جيدا أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها، لأنها هي وحدها بهجة حياته والأمل والمعنى العميق لكلّ شيء يحيط به، وبها وحدها ترتبط وتكتمل سعادته. وكما سبق وأشرتُ فليس من الصّعب أبدا القول إنّ أليكساندرا في روايتها هذه، لا تتحدّث عن نتاشا وسينيا، وإنما في حقيقة الأمر تتحدث عن إينيسّا ولينين، وعن ما عاشاه معا من أحداث خلال سنة ١٩١٤

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(١٩)

إهانة في بروكسل

في صيف ١٩١٤ أصبح فلاديمير إيليتش متقلّب المزاج، كثير الشكّ، عنيدا وملحّاً في طلباته، وابتعاد إينيسّا عنهُ بات يزيد من قلقه واضطرابه، وهو الآن لا يعرف كيف يتصرّف إزاء قرارها هذا، ولم يبق أمامه سوى أن يكتب إليها رسائل كان يخطّها تارة بنبرة سلطوية آمرة، وتارت أخرى يصبُّ فيها عليها جام غضبه، ويمطرها بالإهانات، وأحيانا ثالثة كان يكتب لها رسائل يعتذر فيها عمّا صدر عنه قائلا: «أرجوك، لا تغضبي منّي، أعلم أنني سبّبْتُ لكِ ألما كبيرا». لكنّ إينيسّا لا تردُّ عليه، ولا تتواصل معه أبدا، وبدل أن تراسله مباشرة بدأت تراسل زوجته في محاولة منها لاستعادة صداقتهما القديمة وهو الأمر الذي زاد من انزعاج لينين، لا سيما وأن ناديا أصبحت تريه ما يصلها من خطابات إينيسّا والتي كانت تحدّثها فيها عن أبنائها وأيام العطلة التي يقضيانها معا، داعية إياها للكتابة إليها باستمرار كما يظهر من هذه الجمل المقتطفة من إحدى رسائلها: «لا تخجلي من كونكِ لم تتذكّريني في هذه الفترة، اكتبي لي قريبا. لقد سعدت كثيرا برسالتك الأخيرة، وإن لم يرقني أسلوبها المقتضب جدّا، فأنت لم تحدثيني فيها عن أيّ شيء يتعلق بكِ. أريد أن أعرف كل شيء عنكِ. ماذا تقرأين؟ وماذا تفعلين؟ وكيف حالك؟ وهل تقومين ببعض النزهات؟ أرجو أن تكتبي لي يا عزيزتي».

في هذه الرسائل كان خطاب إينيسّا واضحا جدّا بالنسبة للينين: إنها تسعى إلى إحياء صداقتها مع ناديا، ومن يدري ربّما أصبحت تتمسك بها أكثر مما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تمسك بصداقتها معه هو شخصيا، مما جعله يشعر بفراغ كبير من حوله، إنه يريد الحديث معها، ويريدها أن تكون بقربه؛ فهي وحدها يمكنها أن تستوعب مدى قسوة الظروف التي يمرّ بها، لا سيما وأنه قد تأكّد له أخيرا أن مالينوفسكي، الذي وثق به ثقة عمياء هو من رجال البوليس السرّي القيصريّ، وهذا في حدّ ذاته يسبّب له الكثير من الحرج مع رفاقه في الحزب إذ هو من سمح له بالحصول على أرقى المناصب وكلّفهُ بالعديد من المهمّات الحسّاسة، في حين لم يكن هذا الأخير يدّخرُ جهدا في تمكين البوليس السرّي من اعتقال العشرات من البلاشفة والمناشفة، حتّى وإن كان بعض من أعداء لينين من فريق «المصفّين» قد حذّروه منه سابقا، ولأكثر من مرّة. وليت الأمور وقفت عند هذا الحدّ، فمن يدري، فلربما يكون مالينوفسكي على علم أيضا بغلاقته مع إينيسّا. وماذا سيحدث ياترى لو أعلنت الشرطة السرية عن هذا الأمر بشكل رسميّ؟! لا شكّ أنها ستكون الضربة القاضية التي ستقصم ظهره، وتفقده مصداقيته أمام الحزب ولدى الأممية. وكلّما فكّر لينين في كل هذه التفاصيل تضخّمت مخاوفه، وهو الأمر الذي جعله يتصرّفُ كأيّ رجل يجد نفسه في هذه الوضعية الحرجة والمقلقة، إنه يريد من إينيسّا أن تعيد إليه كل رسائله، لأنها لا تحتوي فقط على أشياء تهمّ العمل السياسي، ولكنها لا تخلو أيضا من عبارات حميمية، لذا فمن الأفضل التخلص منها قبل أن يعرف بأمرها أحد. وبناء على قراره هذا، اتصل بإينيسّا وطلب منها الرسائل بأسلوب مهذّب وهادئ، فلا هو يريد أن يهينها مرة أخرى، ولا أن يفقدها إلى الأبد، بل على العكس من ذلك، إنه يريد أن يشعرها بالأمان والمحبّة والاحترام.

ونحن لا يسعنا سوى أن نقرأ بتمعن وعمق كلماته التي يطالبها فيها باستعادة رسائله؛ والتي افتتحها أولا بردّه على عتابها له فيما يتعلق بعبارة كان قد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كتبها لها سابقا قائلا فيها إنه لم يحترم في حياته كلها سوى ثلاث نساء أو امرأتين على الأكثر، وهي الجملة التي اعتبرتها إينيسّا إهانة لبنات جنسها ولا يجب أن تصدر أبدا عن رجل سيحكم شعبا كاملا من النساء والرجال فور ما يكتمل المسار وتتحقق الثورة. ولكي يدافع عن نفسه قال لها: «لم أكتب أبدا أنني لا أحترم سوى ثلاث نساء، ولكنني قلت إن صداقتي الحقة واحترامي المطلق وثقتي الكاملة، لم أهبها إلا لامرأتين أو ثلاث نساء في حياتي، وهذا أمر مختلف تماما عمّا أشرت إليه في رسالتك. أرجو أن نلتقي بعد المؤتمر لنتحدث بشأن هذه المسألة»، ثم بعد ذلك يصل إلى الجزء الأهمّ في رسالته: «أرجو أن تحملي معك كلّ رسائلنا، لا ترسليها عبر البريد، لأنه من الممكن جدا أن يفتحها الأصدقاء أو غيرهم، وبعد ذلك سنتحدث في الأمر بشكل أكثر تفصيلا».

كان كلامه في هذه الرسالة ينمّ عن قلق وارتباك، أمّا هي فقد قامت بما كلفه بها، وجمعت كل الرسائل ثم أعادتها للينين الذي تخلّص منها كاملة في محاولة منه لمحو أيّ أثر قد يدلّ بشكل أو بآخر على ما كان يحمله تجاهها من مشاعر عارمة.

في بدايات تموز، وبعد أن مرّ أسبوعان فقط على طلب استعادة الرسائل، أقامت اللجنة التنفيذية للأممية الاشتراكية في بروكسيل مؤتمرا كان الهدف منه إيجاد خطة جديدة توحّد بين الاشتراكيين الديمقراطيين الروس، ولأنّ الحزب كان عليه أن يساهم في هذا المؤتمر ويبعث مفوضا ينوب عنه، فإن لينين قرر أن يرسل إينيسّا، فهو يرفض تماما هذا الاتحاد، ولا يريد أن يكون حاضرا بين الاشتراكيين الديمقراطيين ولا أن يعطيهم الفرصة لكي يمطروه بالاتهامات والانتقادات والتي لا شكّ ستصدر عن بليكانوف، وتروكي وروزا لوكسمبورغ، لذا فمن الأفضل أن يذهب أحد آخر غيره ويكون ناطقا رسميا باسمه، ولا يمكن أن يقوم بهذه المهمة سوى إينيسّا، ولهذا طلب منها أن توقف

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عطلتها وتترك أبناءها وتغادر تريبست لتذهب إلى بروكسل. وهو في طلبه هذا يحاول أن يكون حذرا للغاية معها، إذ لا يريدها أن تغضب منه مرّة أخرى، وحرص على أن لا يقول لها مباشرة ما يفكّر به حقا من قبيل «اقطعي تلك العطلة عديمة الفائدة، واذهبي إلى بروكسل»، لذا، فهو يحاول أن يبدو متفهّما معها وسموحا، واختار لمخاطبتها عبارات أكثر لطفا قائلا لها إنه عليها أن تهتم بأمور أبنائها قبل السفر؛ لأنها ستتركهم فقط لفترة وجيزة جدّا ليس إلّا، ولا أحد يمكنه أن يمثله في ذاك المؤتمر سواها، ثم ختم في الأخير رسالته بعبارة من الترجي والتمني قائلا: «أرجوك، قولي لي إنك موافقة».

لم تكن إينيسّا راغبة في الذهاب إلى بروكسل، ولها كل الأسباب الوجيهة التي تبرر رفضها هذا، فهي لا تريد أن تترك أبناءها ولا سيما الأصغر فيهم، لأنه مريض، كما أنها فهمت جيدا أن لينين غارق في المشاكل من رأسه إلى أخمص قدميه، ويريدها مرة أخرى أن تتدخل من أجل أن تحلّ هذه الأوضاع المعقّدة، ويستعملها كما العادة كواجهة يدرأ بها الصدمات والكدمات، فقضية الجاسوس مالينوفسكي أصبحت على كلّ لسان، ويعلم بها حتى أعضاء الأممية الاشتراكية. وبناء على كل هذا فهي تعرف جيدا ما الذي ينتظرها في بروكسل: نظرات الشكّ والانتقادات بسبب مواقف لينين الانفصالية. وهي الآن ليس عندها أيّ استعداد لتصبح كبش فداء البلاشفة، وليس عندها حتى القدرة على مواجهة هذا التحدّي الصعب أثناء فعاليات هذا المؤتمر، ولا أن تجيب على أسئلة الكبار المجتمعين هناك، وكلهم شخصيات وزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين، ولأجل هذا كان جوابها قاطعا: لا، لن أذهب. وردّ عليها مرّة أخرى وهو يحاول معها فرصته الأخيرة: «لكم يؤسفني جدّا رفضك الذهاب إلى بروكسل،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهذا يضعنا في موقف ووضع مستحيل تماما، لماذا لا تذهبين وتحضرين ولو ليوم واحد، خذي معك أندريه، إذا اقتضت الضرورة ذلك».

وفي التاسع من تموز، استجابت إينيسّا على مضض لإلحاح لينن الذي أجابها قائلا: «أنت من أولئك الأشخاص الذين إذا وُجدوا لوحدهم في موقف المسؤولية ازدادوا نضجا، وأصبحوا أكثر قوة وثقة بأنفسهم، أنا متيقّن من هذا الأمر، لذا فإني أرفض تماما أن أصدّق أقاويل الآخرين تجاه مهمّتك الجديدة، فما هم سوى مجرد متشائمين ويعتقدون أنه ستصادفك صعوبات جمّة تحول بينك وبين الوصول إلى الهدف المنشود. يا لها من ترّهات، أنا لا أصدّقهم، وأعتقد أنك ستحققين نجاحا ساحقا»، ثم وهو في لحظة فرح عارم تخلّى عن خوفه من أن تكون رسائله مراقبة وواصل كلماته قائلا: «عزيزتي، صديقتي الغالية، ليتني معك لأقبّلكِ ألف قبلة، وأرجو لك نجاحا باهرا قبل سفرك. أنا متأكد من أنك سوف تنتصرين».

وصلت إينيسّا، ووجدت ذاك المؤتمر جحيما لا يطاق. كان يرأسه كلّ من فاندرفيلده، وهويْسمان، وكاوتسكي، ثم الاشتراكي الثوري روبانوفيش، في حين كان يمثل العديد من المنظمات والفصائل الاشتراكية الديمقراطية كلّ من مارتوف، تروكي، أكسيلرود، بليكانوف، أليكسينكي وروزا لوكسمبورغ. وكان يصل عددهم إلى اثني وعشرين مندوب، ويمثلون جميعهم إحدى عشر منظمة، وكلهم غاضبون من رئيس البلاشفة. وفي تلك اللحظات كان على إينيسّا أن تتحمل أولا حنق من وَجد في غياب لينين نوعا من الاستفزاز، وثانيا غضب المشاركين حينما تحدثت معهم بلغة فرنسية طليقة، وبصوت منخفض عن شروط البلاشفة التي أوصاها لينين بإبلاغها إياهم فيما يتعلّق بموضوع الوحدة. وهي الشروط التي لم يقبل بها أحد، لا سيما وأن لينين يُشَكِّك بموجبها

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في صدق انتماء كل من يعارض مواقفه إلى الاشتراكية، معتبرا إياه مارقا عن النظام الداخلي للحزب، ومضمرا لنيته في تدمير المنظمة السرية ورغبته في إنشاء «حزب عمالي بورجوازي»، إضافة إلى تواطئه مع المخططات والأهداف البورجوازية من أجل القضاء على برنامج الثورة.

ورقة لينين، تلك التي قرأتها إينيسّا على مسامع الجميع اخْتُتِمت بنوع من التحدّي: من يريد البقاء معه، عليه أن يقبل بشكل مطلق كل قرارات مؤتمر براغ ويصادق على الهيئات التي تمّ انتخابها هناك. وهي نفسها الخاتمة التي علّق عليها بليكانوف قائلا: «لينين يريد الوحدة ولكن كشيء يُبتلع مع قطعة من الخبز».

وعند قرب انتهاء أعمال المؤتمر وبعد استماعهم جميعا لاستفزازات لينين، كان على إينيسّا أن تتحمّل أيضا حقد المشاركين الذين قدّموا استنتاجات عامّة وحلول أخرى لم يقبل بها الوفد البلشفي.

فشل المؤتمر، وحقّق لينين هدفه، وخرجت إينيسّا من مهمتها محطّمة بكل ما في الكلمة من معنى: لقد قدّمت الكثير من أجله، إلا أن عطاءها هذه المرة تجاوز كل حدود المنطق والمعقول، ولم تكن فرحة الرئيس بانتصاراتها كافية لتعيد لها الهدوء والطمأنينة، أو لتطفأ نيران غضبها منه، ولا حتى تلك الكلمات التي قال فيها: «عزيزتي، وصديقتي الغالية، لقد قدّمتِ خدمة عظيمة للحزب. وأنا أشكركِ جدّا لأنكِ مثّلتني أحسن تمثيل... اكتبي لي. هل أنت متعبة؟ كئيبة، غاضبة منّي لأنني أجبرتك على السّفر؟».

وبالفعل كانت إينيسّا كما توقّع لينين متعبة للغاية، ومكتئبة وحانقة عليه لدرجة أنها قررت على إثر هذه الأحداث أن ترسل أبناءها إلى روسيا، ورفضت اقتراحه بالذهاب معه من أجل قضاء العطلة في بورونينو هو وزوجته ناديا، ولأول مرّة توقّفت عن الردّ على رسائله.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(٢٠)
مرارة الإقامة في سويسرا

انقضى الصيف، وعادت إينيسّا على الرغم من كلّ شيء، إلى حياتها العادية مع لينين وزوجته بدون خلافات ولا مشاكل، في الوقت الذي كان الصراع العالمي في بداياته الأولى، بكل دمويته وعنفه اللذين تفاقما حينما اقتحمت النمسا صربيا، ودخل الألمان إلى بلجيكا ولوكسمبورغ، وأعلنوا الحرب على روسيا بهدف التوسع أكثر وأكثر في شمال فرنسا، ولم يتوقفوا إلا في أيلول ١٩١٤ بعد أن منيوا بهزيمة ساحقة في معركة المارن الأولى الشهيرة.

لم تُغيّر الحربُ التي مات فيها ١٦ مليون شخص؛ -٩ منهم من الجنود و٧ من المدنيين-، كثيرا من حياة لينين وزوجته، ولا حتى من حياة إينيسّا التي ذهبت للعيش معهما في سويسرا المحايدة، بل كانت أيامهم تبدو غير متأثرة تماما بالمعارك المندلعة في أوروبا التي لم تكن تفصلهم عنها سوى بضعة كيلومترات.

في بِرْن، كان الثلاثة يعيشون في منزليْن متجاوريْنِ، ويتبادلون الزيارات اليومية مستمتعين بحياتهم الخاصّة بالضبط كما كانوا يفعلون سابقا أيام الإقامة في باريس وكراكوف وبورونينو. ولم تدّخر ناديا جهدا للكتابة عن أيام بِرْن في مذكراتها قائلة بنفس صيغة المحبة والهدوء المعتاد لديها: «في تلك السنة، كان الطقس رائعا، وكنّا نعيش في قرية صغيرة هادئة اسمها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ديستلفيغ، محاذية لغابة بِرْن الممتدة على مسافة شاسعة من الكيلومترات. وكانت إينيسّا تعيش أمام بيتنا، وعلى بعد خمس دقائق عائلة زينوفيف، وعلى بعد عشر أخرى كانت تقطن عائلة شكلوفسكي. وكنا نتجول في طرقات الغابة المغطاة بالأوراق الميتة لساعات طوال، وغالبا ما كنّا نقوم بهذه النزهات نحن الثلاثة فقط: فلاديمير إيليتش، إينيسّا وأنا. وكان إيليتش يعرض علينا خطة الكفاح في الجبهة العالمية، في حين كانت إينيسّا كعادتها تتحمّس لكل عمل سياسي مُساهمةً في تطور النضال من أجل القضية عبْرَ اهتمامها بالمراسلات وترجمة الوثائق إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، مع الحرص على التواصل مع كافة الجماهير. وكان يحدث أيضا أن نظلّ جالسين لوقت طويل فوق المنحدر المغطّى بالأعشاب لنستمتع بأشعّة الشمس، فيما كان لينين يحرر مسودات بعض خطاباته ومقالاته، وأنا إلى جانبه أدرس اللغة الإيطالية في كتيّب دي توسان، وإينيسّا منهمكة في حياكة تنّورتها لتدفأ جسدها لأنها لم تكنْ بعد قد استرجعت عافيتها بشكل كامل بعد فترة السجن».

وأمام ما كتبته ناديا، فإنه يبدو وكأن العواصف العاطفية مرت بسلام دون أن تؤثر بشكل سلبيّ على صداقة الزمن الماضي، وهو الأمر الذي يدفع إلى طرح التساؤل التالي: ما الذي حدث حقيقة، فعجّل بعودة الأصدقاء الثلاثة إلى العيش مع بعضهم البعض من جديد؟

اليوم كما في الماضي، يمكن القول بأنّ تطور الأحداث التاريخية هو الذي جمع الكلّ ودفعهم إلى العيش في مكان واحد، فتواجد عائلة أوليانوف بمنطقة بِرْن، لم يكن اختيارا حرّا تلقائيا، ذلك أنّ لينين على الرغم من توقّعه

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المبكّر لاندلاع الحرب العالمية، إلا أنه لم يتصوّر أبدا أنّ إعلان الحرب على روسيا، سيضطره إلى مغادرة كراكوف، التي كانت قبل ذلك جزءا من الإمبراطورية النمساوية المجرية، وأصبحت اليوم أرض العدو. وعلى ضوء هذا التغيير الجديد حدث أن تحوّل لينين إلى رجل مُراقَبٍ بشدّة، ومُتَّهَمٍ بالجاسوسية، ممّا عجّل باعتقاله من أجل التأكد من هويته، ولمْ يُفرَج عنه إلا بعد مرور خمس عشرة يوما، والفضل في ذلك يعود إلى تدخّل البرلمانيين الاشتراكيين النمساويين، الذين أكّدوا على ضمانتهم الشخصية للجهات المعنية بأن لينين هو عدوّ للقيصر ولا يمكنه أن يُشكّل أيّ خطر على الإمبراطورية. وعليه ما إن خرج من السجن قامت إينيسّا بجمع ما استطاعت من المال، وذهبوا جميعا للعيش في سويسرا.

لم تكن حياة لينين وحدها التي تأثرت بالتغيير الذي حصل بعد إعلان الحرب على روسيا، فإينيسّا أيضا أصبحت حياتها صعبة للغاية، خاصة بعد عودة أبنائها إلى أرض الوطن؛ فهي الآن كمواطنة روسية تعيش على أرض نمساوية، بات يُنظر إليها كعدوّة، والشأن نفسه كان سيحدث في باريس، لذا فضّلت ألا تذهب إلى فرنسا التي أصبحت حليفة لروسيا. فمن الطبيعي جدا أن تصبح امرأة بلشفية مثلها ومعادية للقيصر، تحت مراقبة البوليس السريّ المستمرة هناك. ولتفادي هذا كلّه، ذهبت للعيش في مونترو فوق الجبال المقابلة لبحيرة جنيف التي تحبّها بشكل خاص، مع الحرص على إقامة حاجز ومسافة من البعد بينها وبين لينين.

في تلك القرى الصغيرة الممتدة بين الجبال والمياه، كانت تشعر أنها في بيتها، ويمكنها أن تقوم وقتما شاءت بنزهاتها المعتادة، وتذهب إلى مكتبة

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

روبكان، حيث كانت تُلْقى بعض المحاضرات وتقام بعض الأمسيات الموسيقية، وحيث كانت تلتقي ببعض المثقفين البلاشفة المنتمين إلى جماعة اسمها (بوجي)، نسبة إلى منطقة قريبة من المكتبة.

وعلى الرغم من هذا كله إلا أنّ إينيسّا لم تكن على ما يرام في أواخر صيف ١٩١٤، ليس فقط بسبب ما حدث لها في بروكسل من إهانة، ولكن لأنها كانت تعلم أن الرجوع حاليا إلى روسيا بات أمرا مستحيلا، وهي الآن قد اشتاقت جدّا إلى أبنائها الذين لم ترهم منذ مدّة طويلة، ولا يمكنها أن تقضي معهم عطلة «خفيفة» وترفيهية كتلك التي قضتها معهم في الآونة الأخيرة، وهذا أمر يزيد من حزنها وآلامها لدرجة أنها لم تعد عندها القدرة على إرسال خطاباتها التي بدأت كتابتها في اليوم نفسه الذي غادرتهم فيه. ولم تعد ترغب في التواصل مع لينين بشكل خال من الحزازات، لأنها تعتبره المسؤول الوحيد عن كلّ ما حدث لها في بروكسل. لينين الذي على عكس المتوقع كان يستمرّ في إرسال رسائل قصيرة جدّا لها، كتلك التي كتبها لها مباشرة بعد أن دخلت روسيا الحربَ، قائلا: «أهنّئك بالثورة التي بدأت في روسيا، يا صديقتي الغالية جدا».

بعد ذلك علمت إينيسّا من كامنيف أنه قد تمّ اعتقال لينين، وأن ناديا قلقة جدا على مصيره، وأن الاشتراكيين النمساويين سوف يفعلون ما بوسعهم لإطلاق سراحه، وأنه بحاجة ماسة للمال من أجل ضمان انتقاله من غاليسيا إلى سويسرا، وهو المال الذي لم يجمعه ويرسله له أحد سوى إينيسّا، التي التحقت مباشرة لتعيش معه وزوجته في بِرْن.

وإلى هنا يبدو صحيحا كل مارسمته ناديا كروبسكايا في لوحتها الجميلة وهي تتحدّث في رسالتها عن النزهات الهادئة، والطقس الشتائي

الجميل والصداقة التي زادت ظروف الحرب وصعوبات الحياة من عمقها وقوتها.

ولأننا نعرف جيدا بالخلافات التي توجد بين لينين وإينيسا، فإنه يجب علينا ألا نثق كثيرا بما كتبته ناديا، لأن الواقع يقول إنّ الإقامة في سويسرا لم تكن بذاك الشكل العدني الذي تتحدث عنه في مذكراتها، فإذا كانت المعارك الضارية المشتعلة إبّان الصراع العالمي الأول لم تؤثر على سير حياتهم، فهذا لا يعني بتاتا أنه لم تكن هناك مشاكل أخرى تقلق النفوس وتقضّ المضاجع. فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك خلاف حادّ وشائك بين الاشتراكيين الديمقراطيين الأوربيين حول مدى وجوب تدخل روسيا في الحرب أم لا، وإن كان لينين يعدّ الصراع في حد ذاته أمرا جيدا لأنه سيقود روسيا إلى الهزيمة، وسيعجّل بانتصار الثورة بشكل آليّ. وعليه فإن مهمّة البلاشفة هي العمل على تحقيق هذه الهزيمة، في حين تصبح مهمة الثوريين الأوروبيين هي التمرّد على الأنظمة الحاكمة في بلدانهم. وهي النظرية اللينينية التي لم يتقبّلها الاشتراكيون الديمقراطيون لأنّها تعبّر عن «وجهة نظر انهزامية»، وهو الموقف الذي تؤكده هيلين كارير دانكوس في كتابها قائلة: «لم يوافقه الرأي فيما ذهب إليه لا أعضاء الأممية، ولا حتّى أبناء وطنه. وحدث أن انفصلت الأممية عنه أثناء مؤتمر بروكسل في ٢٩ و٣٠ تموز، دون أن تقرر أيّ شيء من شأنه أن يمنع وقوع الحرب، التي كانت قد اندلعت حقيقة، فتخلى على إثر ذلك الاشتراكيون الأكثر تحمّسا عن بلاغتهم في التعبير ذي الطابع الأممي، وفي ٤ آب، صوّت اشتراكيو رايخستادت الديمقراطيون لصالح اعتمادات الحرب، في حين دخل فاندرفيلده إلى الحكومة البلجيكية، واتسع

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في فرنسا الاتحاد المقدس، وأصبحت سلطته تشمل كلّ الأحزاب، أمّا الاشتراكيون...» تكمل المؤرخة هيلين في كتابها (لينين)، «الذين كانوا على استعداد دائم لشجب أعمال الحكّام، فقد اكتشفوا أن حكّام الأنظمة المعادية، كانوا هُمُ المسؤول الأول عن اندلاع الحرب، وبناء على هذا أصبح الاشتراكيون الألمان ينظرون إلى الحرب على أنها وسيلة دفاعية، في حين اتحد الاشتراكيون الفرنسيون مع رفاقهم البلجيكيين في الرأي القائل بأن "العدوان الألماني" هو السبب المباشر في اندلاع الحرب، وظهر ما يسمى بمفهوم "الحرب العادلة" في مقابل "الحرب المرفوضة"، ووحدهم فقط الاشتراكيون الديمقراطيون الرّوس، عارضوا هذا الصراع العالمي ورفضوا بالإجماع التصويت على اعتمادات الحرب».

ولا شيء أصبح يشغل لينين سوى التفكير في هذه الوضعية الجديدة الشائكة التي أصبحت تحكم الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، والتي من أجلها بدأ في كتابة العديد من الرسائل والمداخلات، والنصوص الإرشادية. وإينيسّا إلى جانبه تدعمه بحماسها وطاقتها وحيويتها المعهودة، وتساعده على تخطيط استراتيجياته وتسهر على تنفيذ معظم جوانب العمل وتفاصيله. فكثيرة كانت النصوص التي يجب على زعيم البلاشفة أن يرسلها إلى أوروبا كافّة، وكثيرة هي الرسائل التي أصبحت تصله، وإينيسّا مستمرة في عملها بشكل أثار إعجاب الجميع، لا سيما وأن فلاديمير إيليتش أصبح في هذه الفترة يعطي أفضل ما عنده، ويجذب أكثر وأكثر الأنظار إليه، ويعرف كيف يقدّم أفكاره بشكل أكثر وضوحا وتركيزا.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إينيسّا أيضا كانت من المقتنعين بفكرة إمكانية ولادة الثورة من رحم الحرب، فهي تعرف جيدا روسيا، وتعلم أن معظم الشعب أصبح لا يطيق جبروت القيصر، وأن الحرب ستؤجج مشاعر المقاومة والنضال لدى الناس، وهذا كله كان يزيدها ثقة بضرورة العمل بشكل صارم لا هوادة فيه، مع «التزامها المعهود» بالوقوف دائما إلى جانب لينين، كما سبق وقالت عنها ناديا.

في بِرْن اشتعلت أيضا حرب المشاعر بين لينين وإينيسّا، فهي وإن كانت تحاول أن تبدو هادئة، أو أن تتصرّف كما كانت في كراكوف، أيْ حينما كانت تقوم بأيّ عمل يطلبه منها لينين كسفرها مثلا إلى سان بطرسبورغ أو إلى باريس حيث كلّفها بأشياء كان من الممكن أن يقوم بها أيّ أحد غيرها، بدل أن يتعمّد إرهاقها بالتسكّع في الشوارع من أجل أن تجمع له كتبه المتفرقة والضائعة هنا وهناك. لكن الأمر في بِرْن الآن يختلف تماما، صحيح أنها مازالت تكنّ لزعيم البلاشفة عميق التقدير والاحترام، وتعلم جيدا أن علاقته بها لم تنته بشكل قاطع، وأنها ما زالت تحبه، لكنها لم تعد قادرة على الاستمرار معه كأن شيئا لم يحدث بينهما، وهذا أمر اكتشفته خلال تلك النزهات الطويلة التي سبق ووصفتها ناديا بالهادئة في الغابات المحيطة ببِرْن.

لقد باتت إينيسّا تشعر بأن ذاك التفاهم والتناغم الذي كان يطبع في البداية علاقتهما، لم يعد له أيّ وجود بينهما الآن، وأن أفكارها في تلك الأصبوحات الشتائية باتت تتخذ اتجاها آخر لا علاقة له بلينين، إنها تبحث عن الحرية في العمل معه، وتريد أن تقرأ كتبا أخرى، وتكتب ما يختلج بخاطرها من آراء. إنها بصريح العبارة تريد أن تبقى لوحدها، ولم يعد عندها أيّ استعداد في تحمّل دور الصديقة المخلصة للعائلة الذي سجنها فيه

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هو وزوجته. تلك الحياة الثلاثية الأطراف أصبحت تُحرجها، لأنها تضطرّها إلى إخفاء مشاعرها تجاه لينين أمام الآخرين، كما أنها لم تعد تتحمّل معاناة ناديا التي وإن كانت تحاول التغاضي عن الأمر، إلا أنها لا تستطيع أن تكبت ألمها الدّاخلي، وإينيسّا لم يعد لديها أية نية في رؤية المزيد من كلّ هذه الأشياء، ولا في رؤية لينين وهو يمثل دور العاشق الذي لا يعنيه من أمور حبيبته شيئا. إنها وضعية شائكة للغاية وسيّد الموقف فيها هو النفاق الذي بات يتعامل به الجميع. إضافة إلى فضول الرفاق ونظراتهم المستفسرة التي باتت تزعجها كثيرا، خاصة وأن وجودها من جديد مع ناديا وزوجها أصبح يثير العديد من التساؤلات لديهم، ولأجل هذا بدأت تفكّر جدّيا في ترك العمل، والاهتمام بمشروع آخر، لطالما داعب مخيلتها وفكرها.

نعم، إنها تفكّر في ترك العمل، وتقضي وقتها في ترتيب أفكارها وتسجيل ملاحظاتها، وقراءة بعض الكتب التي تفيدها في تطبيق ما ترنو إلى تحقيقه، وتنتظر كل يوم الوقت الذي تنتهي فيه من العمل مع لينين من أجل أن تنفرد بنفسها وأفكارها، لا سيما وأنها تعلم جيدا أنه بعد الحرب ستنتفض روسيا، ولأن النصر سيكون حليف الثورة، ومن الضروري التفكير في وضعية المرأة ودورها داخل الحزب والدولة الجديدة، مما يعني أنه يجب تغيير كل شيء من أجل نساء الاتحاد السوفييتي. كل هذه الأفكار كانت تراودها حتى وهي بصدد التنزه بغابات بِرْن وأمسياتها الشتائية الماطرة، وكلها أصبحت حبرا فوق ورق كتبتها وهي تتذكر انفعالها العفوي تجاه كاتبها المفضّل تولستوي حينما نعت بالأنوثة فقط كل امرأة متزوجة في إطار حديثه عن بطلة روايته ناتاشا.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وإلى جانب هذا، كانت تفكر أيضا في قضية الدعارة بموسكو، وفشلها سابقا في القيام بشيء ما من أجل مساعدة النساء العاهرات.

تذكّرت أيضا النساء العاملات اللائي تعرفت عليهن خلال تجربتها كمناضلة اشتراكية ديمقراطية، وطاعتهن لأزواجهن، وتذكرت أيضا كيف كانت امرأة ثرية وتتمتع بالعديد من الامتيازات وذات مكانة مرموقة ومحترمة، لكنها لم تنس واقعة مريرة كانت قد حدثت لها حينما كانت آنذاك سيدة متدينة ومؤمنة بالله: كانت قد ذهبت للكنيسة من أجل المشاركة في احتفال ديني، وعند الباب مُنِعت من الدّخول لعدم طهارتها كامرأة حبلى.

إينيسّا وإن مرّت كل تلك السنوات على هذا الحادث، لم تنس ذاك الشعور بالدونية ولا الغضب الذي انتابها وهي أمام الكنيسة، ولو أن واحدة من ابنتيْها سألتها عن اليوم الذي أصبحت فيه مناضلة نسوية، ستقول لها إن ذلك كان في اليوم الذي منعت فيه من الدخول إلى الكنيسة بسبب لا يقبله عقل ولا منطق.

وتذكرت أيضا عملها في رابوتنيكا (المرأة العاملة)، الذي كان على قدر عال من الأهمية ويجب أن تستمرّ في رفدها بمقالاتها مع الحرص على خوض مواضيع أكثر أهمية وعمقا كقضيتِي الزواج والحبّ، لأن الحزب عليه أن يفكّر في هذا أيضا إذا أراد أن يبني مجتمعا إنسانيا جديدا، لا سيما وأنه في مناطق أخرى من العالم هناك نساء أخريات يفكرن ويخضن نفس المعارك الفكرية التي تريد أن تواجهها إينيسا في هذه الفترة من حياتها، وإن كان البلاشفة لا يعيرون الاهتمام لما تطرحه عليهم من قضايا متحججين في ذلك بأن الحزب عليه أن يعتني بأشياء أكثر أهمية من قضايا المرأة وما إليها، لذا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فضلت ألا تدخل معهم في جدالات لا فائدة منها ترجى، وتركز على كتابها الجديد الذي سطرت فيه معظم النقاط المتعلقة بوضعية المرأة، والذي تحدثت بشأنه مع ابنتيْها المراهقتين اللتين أصبحتا تسألانها عن الحبّ والعلاقة مع الرجال، وما كان على إينيسّا سوى أن ردّت عليهما قائلة إنّها ستهديهما مُؤَلَّفَها الجديد، لأنها تعتبر أنّ أسئلتهما كانت من بين الأسباب المهمّة التي دفعتها إلى كتابته. وليس هذا فحسب، فكتابها هذا لن يفيد فقط إينّا وفارفارا، ولكنه سيساعد لينين أيضا على فهم العديد من الأشياء التي كانت غائبة عنه في قصته مع إينيسّا، فهو يعلم جيدا كيف أنهما حاولا أن يعيشا معا حكايتهما بشكل حرّ لا مكان فيه للأحكام المسبقة، لكنهما فشلا في ذلك تماما لأنهما اكتشفا استحالة إظهار مشاعرهما أمام قوانين العالم البورجوازي. وهي الآن بكتابها هذا تحاول أن تقول للينين ما لم تستطع البوح به لا في لحظات الصفاء، والانسجام ولا في لحظات الألم والفراق، وبناء على كل هذا قررت أن تفاجئ لينين وناديا، فانسحبت من حياتهما وغادرت بِرْن، وعادت لتعيش لوحدها في بيتها بين أحضان الجبال السويسرية.

وبينما كان الجليدُ يغطّي القمم والطرقات كانت هي تملأ كتابها ورقة ورقة بالأفكار، وحينما اكتمل أرسلته إلى لينين لتعرف رأيه بشأنه، فقد حان الوقت ليسمعها بعد أن كانت هي من تحاوره وتستمع إليه طيلة هذه السنين.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(٢١)

حبّ بورجوازي أم بروليتاري؟

الطقس جميل ودافئ، وإينيسّا في هذا اليوم خرجت في نزهة بالطرقات المحاذية لبحيرة جنيف، وعند العودة إلى البيت وجدت رسالة وصلتها من بِرْن؛ إنه فلاديمير إيليتش الذي كتب لها ردّا على رسالتها بهذه السرعة ليحدّثها عن رأيه في منشورها الخاصّ بقضية المرأة. لكن سعادتها بسرعة الجواب لم تدم طويلا، بسبب كلماته التي أصابتها بإحباط وخيبة أمل منذ الأسطر الأولى التي بدأها بمخاطبته إياها بصيغة الجمع زيادة منه في الحذر الذي أصبح يعتمده في مراسلاته منذ اندلاع الحرب: «الصديقة العزيزة، حاولوا صياغة منشوركم بشكل أكثر دقة وتفصيلا، وإلا فإن العديد من الأفكار ستبقى مبهمة. كما أني أودّ أن أقول شيئا آخر: أنصحكم بحذف الفقرة الثالثة والتي تتحدثون فيها عن مطلب الحرية في الحبّ، لأنها لا تعني الفكر البروليتاري في شيء، وإنما هي مجرد مطلب بورجوازي. ثم ماذا تقصدون بهذا المطلب، وما هي النقاط التي يناقشها؟ وفي أي مضمار يمكن الأخذ بها؟».

كيف يمكنها أن تحذف هذا الجزء من المنشور؟ تساءلت إينيسّا بمرارة. بل كيف يمكن الحديث عن النساء في عالم جديد دون الإيمان بحريتهن في الحبّ؟ على زعيم البلاشفة أن يفهم هذا جيدا، بل عليه أن يستوعب أن المطالبة بالحبّ الحرّ تستوجب المساواة التي يدّعي هو و«رفاقه» في الحزب الإيمان بها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الرسالة طويلة، ولينين لن يتوقف فقط عند الأسئلة والشروحات التمهيدية، وإنما غايته تحليل المنشور ومناقشته نقطة نقطة، لذا قامت إينيسّا من مكانها وبدأت تمشي في الغرفة جيئة وذهابا دون أن تفارق عيناها الخطاب الذي ضمّنه لينين فيما تبقى من فقرات أسئلة أخرى مطالبا إياها بأن تشرح له ما الذي تعنيه بالحرية في الحبّ كحق يجب أن تتمتّع به النساء؟ هل تقصد التحرر من الحسابات الاقتصادية والمالية؟ أم من الأفكار المادية؟ أم من الأحكام الدينية المسبقة؟ أم من اعتراضات الآباء؟ أم من الوِصاية الاجتماعية؟ أم من البيئة المحيطة بهنّ؟ أم من قيود القانون والمحاكم والشرطة؟ أم من الجدّية والالتزام في الحبّ؟ أم من الحمل؟ وهي الأسئلة الاستفزازية التي فهمت منها أن لينين بصدد سؤالها عمّا إذا كانت تقصد حريةَ ارتكاب الزنا والخيانة الزوجية، وهذا يعني أنه قد انزعج كثيرا من كُتَيِّبها هذا إلى درجة أنه ختم رسالته قائلا: «أشدّ على يديكم، وأحيّيكم من باب الصداقة»، وهي عبارة جافّة وقاسية لا شيء فيها سوى الرغبة في إقامة حدود ومسافات بينهما. وهكذا حدث أن اقتنعت إينيسّا بأنّ لينين يحاول أن يجهض كل ما ترمي الوصول إليه عبر مناقشتها لمواضيع يراها غير صالحة له ولا تصبّ في خطّه وطموحاته السياسية أبدا، وهو التصرف الذي كان يواجه به دائما القضايا التي كانت تطرحها عليه بشأن الجنس والدعارة والأسرة حتّى حينما كانت في لونغجيمو، أيْ عندما اقترحت عليه القيام بدورة دروس حول النساء العاملات، ومشكلة الدعارة، لكنه منعها، فاعتقدت لسذاجتها آنذاك أنه كان محقا في رأيه لأنها لم تكن بعد تعرفه جيّدا، فلقد كانا معا في بداية علاقتهما العاطفية، ثم أنها لا تنسى أبدا كيف تعامل معها حينما عرضت عليه رواية فينيّشينكو، وعليه فهي لا تسامح نفسها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأنها وثقت به مرّة أخرى، واعتقدت أنه سيؤيّدها ويدعم منشورها الجديد الذي عرضت فيه ولكن بأسلوب مختلف وطريقة أكثر عمقا وتفصيلا تلك الأفكار التي سبق وناقشتها معه لأكثر من مرة.

مازال لينين متصلّبا وثابتا على موقفه إلى درجة الخبث والأنانية، وهاهو من جديد يشحن قلمه ويستعد لمواجهة إينيسّا بحيله وخدعه المنطقية والبلاغية والجدالية المعهودة فيه، مما جعل كلماته تلك تبدو في عيني غريمته فارغة ولا شيء فيها سوى البرود الذي يلغي كلّ عاطفة وذكرى جميلة، لا سيما وأن إينيسّا تعرف جيدا أنهما عاشا معا قصّة حبّ حرّة وخالية من كل شرط أو قيد، لذا فهي تطالبه أن يكون على الأقلّ صادقا مع نفسه، بدل أن يطلب منها الخضوع إلى القوانين الجامدة المحكومة بفلسفة الصراع الطبقي. إنها تدافع هذه المرة عن نفسها وعن أفكارها بدون أدنى تردد، ولا تجد أمامها من حلّ سوى أن تجيبه بكلّ صراحة وكأنها تريد في الختام أن تنتهي بينهما تلك العلاقة التي جمعتها به إلى اليوم. وهو من جهته يحاول تدارك الموقف لشعوره بأنه أهانها من جديد، هي التي لا تريد أن تقتنع بأن ما جمعها به كان خطأ واستسلاما لأخلاقيات الطبقة البورجوازية. لذا، ارتأى أنه من الأفضل لو يغيّر من أسلوبه ويلطّف من كلماته حتى يستطيع عرض الأفكار ذاتها ولكن بطريقة مختلفة تمكنه من الاعتذار عمّا بدر منه سابقا وشرح وجهة نظره التي يعتقد فيها أنّ «طريقة عرض الحديث عن المطالبة بالحريّة في الحبّ لم تأت واضحة بما فيه الكفاية، وبغض النظر عن رأيكم ورغبتكم، فإنّ هذا الأمر يظل مطلبا بورجوازيا لا بروليتاريا. أعلم أنكم لا توافقوني الرأي، لذا فإني أقترح فحص القضية من جديد».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يبدأ لينين في استعراض أفكاره مرّة أخرى، ويبدأ من النقطة الأولى إلى السّابعة التي تطرق فيها سابقا إلى قضية التحرر من (الحسابات الاقتصادية والمالية، من الأفكار المادية، من الأحكام الدينية المسبقة، من اعتراضات الآباء، من الوِصاية الاجتماعية، من البيئة المحيطة بهنّ، من قيود القانون والمحاكم والشرطة»، ويقول إنه إلى هنا يمكن أن يغض الطرف ويَأْخذ بكلّ هذا في إطار الكفاح البروليتاري، لكنه لا يمكنه أبدا أن يوافق على تحرير المرأة من التزامها الجدّي في الحبّ والحمل، ولا على التساهل في مسألة الخيانة الزوجية، لأن هذا لا يتناسب ومبادئ الفكر البروليتاري، ولأنه بدون شكّ مطلب بورجوازي «فهل تعتقدون حقّا أن الحبّ الحرّ يمكنه أن يتوافق مع الخيانة الزوجية؟ هل تعتقدون أنه يمكننا أن نطرح هذا الأمر على البروليتاريا الروسية؟».

وأمام محاصرته لها بالأسئلة تجيب إينيسّا بأنها لم تقصد أبدا بمنشورها إدخال الخيانة الزوجية ضمن مطلب الحرية في الحبّ، وإنما يتعلق الأمر باستنتاج تعسّفي استخلصه هو لوحده وأسقطه على أفكارها بدون وجه حق. إلا أن ردّها هذا لم يكن كافيا بالنسبة للزعيم البلشفي الذي واصل شروحاته وتعليقاته قائلا إنّ النساء البورجوازيات لا يلتزمن جدّيا في الحبّ، ولا تعنيهنّ الأمومة في شيء، ويقدّسن الخيانة الزوجية، «أنتم لا تقولون هذا في منشوركم السياسي، ولكن النتاجات الأدبية تشهد بذلك، وتوثق حياة هذا النوع من النساء»، ونسي وهو في فورة حديثه أنه بصدد توجيه خطابه لإينيسّا، ولم ينتبه أنه يقصد انتقاد كلّ اختياراتها وقراراتها العاطفية الحميمة: فشل زواجها، حبّها لأخ زوجها فولوديا، ثم المشاعر

القوية التي تجمعها به منذ عدّة سنوات رغما عن القطيعة التي اقترحها عليها في كراكوف. وهنا أيضا يمكن القول إن تفكيره العقلاني أخذه إلى طريق خاطئ، الشيء الذي حدا بإينيسّا إلى الردّ عليه مهاجمة إياه بدون شفقة ورحمة قائلة له: «يبقى العشق، أو العلاقة العاطفية العابرة أكثر طهرا وشاعرية من القُبَل الزوجية الخالية من الحبّ تماما». وقد كانت تشير هنا ولأول مرة إلى زواجه بناديا وتنتقده نقدا جارحا وصريحا.

وأمام موقفها هذا، لم يستطع زعيم البلاشفة أن يردّ عليها وهو الذي يعلم أنها محقة فيما ذهبت إليه، إلا أنه اختار طريقة أخرى يعتمد فيها على الحجج المنطقية والبراهين الدامغة قائلا لها: «نعم، أنتم محقون فيما ذهبتم إليه بشأن القُبَلِ المُتْعَبة والخالية من الحبّ، فهي حقا غير صادقة أو طاهرة، لكن ما الذي تقترحونه كبديل؟ عشقا عابرا وزائلا، أليس كذلك؟ (لماذا أقول إنه ليس حبّا؟)، (لماذا عابرا؟). النتيجة هي أنكم تعترضون على القُبَلِ (العابرة) الخالية من الحبّ، أمام القُبَلِ الزوجية التي لا حبّ فيها أيضا، أليس الأمر غريبا؟ ألم يكن من الأفضل أن يعترضَ كُرّاسُكِ الشّعبي على الزواج البورجوازي الصّغير، الزراعيّ المثقفّ، الذي لا حبّ فيه والجامع لكلّ صفات الحقارة والتعفّن، والدّفاع في المقابل عن الزواج المدنيّ العمّالي القائم على الحبّ؟ (وفي حالة إذا كنتم تتمسكون بضرورة التعبير عن فكرتكم، فيمكنكم إضافة أن العشق أو الحبّ المؤقّت، يمكنه أن يكون طاهرا وملوّثا في الوقت ذاته. إنّ ما اقترحتموه لا يدخل في باب المعارضة الطبقية، وإنما يتطرّق إلى حالة شخصية يمكن معاينتها كثيرا على أرض الواقع. لكن هل علينا أن نهتمّ بالحالات الشخصية والخاصّة؟ إنها تصلح

من وجهة نظري لأن تكونا موضوعا لرواية ما، (لأنّ ما فيها يتعلّق بمساحة فردية معينة، وبقدرة الشخص على تحليل الحالة النفسية الفردية لأبطال الواقعة)، فهل علينا أن نقوم بهذا أيضا أو تطبيقه في منشور سياسيّ؟».

لم تردّ إينيسّا على رسالته، لأنها أيقنت بأنه لم يعد هناك مجال للحوار أو النقاش معه. وصمتها هذا زاد من قلقه، لذا فإنه حاول أن يخفف على مضض في رسالته الجديدة من نبرته قائلا لها إنه لم يقصد من وراء خطابه ذاك سوى المحبّة والتقدير: «حقيقة، ليس عندي أيّة رغبة في جدالات شائكة، لذا فإنني سأترك برحابة صدر التعبير عن أفكاري كتابةً مقترحا عليكم مناقشتها في أول لقاء يجمعنا، كما أني أريد أن يكون هذا الكرّاسُ جميلا ومنسقا بحيث لا يمكن لأحد أن يقتطف منه مقاطعَ تسيء إليكم (لأنه في بعض الأحيان تكفي عبارة واحدة ممزوجة ببعض الحقد والحزازات...)، لتجرّد منشوركم وتفرغه من قيمته الحقّة»

ويخبرنا التاريخ أن هذا الكرّاس الذي كان محطّ جدالات ثقافية وفكرية وسياسية بين الاثنين، لم يرَ النّور أبداً، ولا يمكننا أن نعرف إذا كان هذا الأمر متعلقا بانتقادات لينين لمنشور إينيسّا، أو لأنها كما يقول البعض فضّلت أن تركّز اهتمامها على العمل في الحزب. أمّا جان فريفيل فيقول بدون تردد إنها «بعد محاولاتها الأولى في تبرير أفكارها والدفاع عنها، اقتنعت بوجهة نظر لينين، وتراجعت عن المشروع برمته».

ما من شكٍّ في أن تلك الجدالات المريرة بين الاثنين أثّرت كثيرا على علاقتهما الشخصية، فإينيسّا كانت تدافع عن حبّ صادق طاهر، ولأنه غير مقيد بإطار شرعيّ، فهي تعتبره النموذج الأمثل الذي يجب اقتراحه على

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الثورة، وما عداه فهو مجرد نفاق وكذب. أمّا لينين فعلى الرغم من اختلاف وجهات نظرهما، فهو يحاول ما أمكن ألا يمعن في إهانتها حتى لا يبعد عنه المرأة التي مازال يحبّها وإن بطريقته الخاصة، مفضّلاً، أن تبقى قصّتها داخل دائرة حياته الشخصية الخاصة جدّاً.

وكما يحدث في الروايات، يقول لها إنّ قصّة حبّهما حالة استثنائية، ولا يمكن تقديمها كنموذج للفكر البروليتاري. إلا أنّ إينيسّا تستمرُّ في الدّفاع عن قيَم حياتها وزواجها، وعن قصص حبّها وحرّيتها وطرحها الجديد لفكرة الثورة في الجانب العاطفي من حياة الإنسان. في حين ظلّ لينين يدافع هو الآخر عن وجهة نظره وقراراته: فزواجه بناديا العميق والتضامنيّ قد يكون خاليا من تلك المشاعر المنفلتة التي تتحدث عنها إينيسّا، لكنه لن يصلح لأن يكون النموذج الأمثل الواجب اقتراحه على البروليتاريا الثورية.

بعد هذه المشاجرة الرسائلية بين الاثنين، قررت إينيسّا أن تنعزل عن لينين وألا تذهب أبدا للقائه، مما زاد من قلقه الشديد وشكوكه في كونها تريد أن تقطع معه بشكل نهائي. وبالفعل ذاك ماحدث، فهي لم تعد كما كانت في السابق رهن إشارته، وأصبحت لا تردُّ على رسائله، أو في أقصى الحالات تؤجّل الردّ عليها إلى حين آخر. وفي بعض الأحيان تردّ مجبرة أمام إلحاحه المستمر، ولا تكتب له إلا بعض الأسطر التي لا تحوي سوى عبارات التحية الرسمية، حتى في تلك اللحظات التي كان يقترح عليها فيها العودة للعيش معه في بِرْن سائلا إياها عن سبب تفاديها للتواصل معه أو الحضور للقائه، فهل هذا يعني أنها راغبة في الانفصال عنه عاطفيا، لاسيما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بعد أن أصبحت تقضي أمسياتها في مكتبة روبكان مع تلك الجماعة التي يترأسها بوكران، وتضيّع وقتها معهم في الحديث عن جرائد تافهة، وعن الحرب والقضية الوطنية واستقلال الشعوب، لماذا إذن لا تعود للعمل معه؟ إنها كلّها أسئلة يوجهها لينين لها كمحاولة منه لفهم ما الذي يحدث لها، فهو يعرف جيدا تلك الجماعة البلشفية التي لا يتوانى أعضاؤها عن انتقاد أفكاره وتوجهاته، فهل يا ترى أصبحت إينيسّا هي الأخرى مثلهم؟ من يدري، فلربما تريد أن تعاقبه، فهو يعلم كم هي عنيدة، وقد يتقبّل منها هذا الأمر ويقترح عليها أن تحاول تجاوز كلّ شيء والعودة إلى سابق هدوئها في التعامل معه، والانسجام والعمل الدؤوب.

لم تعد العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه، حتى وإن توقفا عن المخاصمات والجدالات العقيمة التي حدثت طيلة سنة ١٩١٥. صحيح أنّ ما جمعهما هو العشق، وصحيح أيضا أن علاقتهما نضجت خلال سنوات عملهما معا، لكنّ الذي حدث هو أن لينين لم يستطع أن يستوعب جيّدا موقف إينيسّا من الحبّ، فهي لا تعتبره مجرّد ترف رومانسي، ولكنه بالنسبة لها مشاعر أكبر من ذلك بكثير، لأنها مبنية على أفكار وتجارب عميقة جدا، فـ «الحُبّ» تكتب إلى ابنتها إينّا، «هو أيضا نتاج الثقافة والتحضّر، والحيوانات والبدائيون لا يعرفون عنه شيئا، ولذا يجب التعامل بكثير من الحذر مع ما يظهر في المجتمعات الحالية لما قد يعتبره الآخرون حبّاً، لأنه غالبا ما يحدث أن يتصرّف البعض من الناس، لا بل معظمهم تجاه الحبّ ككائنات بدائية، ومن يتزوج منهم، إنما يقوم بذلك لكي يلبّي رغبة ما، وقلّة هُم أولئك الذين يتبادلون مشاعر الحبّ الحقيقيّ فيما بينهم».

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فلاديمير إيليتش يخافُ من الحبّ، ولا ينظرُ إليه كمظهر من مظاهر الحريّة بل كخطر مُحدق لا بدّ من درئه، لأنه مُضرٌّ جدّا بالثورة، وهي الهواجس التي عبّر عنها قائلا بشكل أكثر وضوحا في إحدى اللقاءات الصحفية التي أجرتها معه كلارا زيتكين: «فيما يتعلّق بقضية الأمن والحزم والصّرامة في النضال، لا يمكنني أن أثق بالنساء اللائي تختلط حياتهن الشخصية والعاطفية بأمور السياسة، ولا حتى بالرجال الذين يركضون خلف كلّ تنورة مستسلمين لأول فتاة يصادفونها. لا، هذا أمر لا يتوافق مع الثورة تماما».

الثورة بالنسبة للينين «تحتاج إلى تركيز عميق ومكثّف، وقوة صارمة...المبالغة في الحياة الجنسية ما هي إلا علامة من علامات الانحلال والانهيار البورجوازي. البروليتاريا هي طبقة في حالة صعود مستمرّ، وليست بحاجة إلى من يخدّرها أو يثيرها جنسيا. ولا هي تسعى إلى من يُسكرها بالكحول ولا بالمبالغات والانحرافات الجنسية، بل على العكس من ذلك تماما، إن هدفها هو ضبط النفس والأفعال، وعدم الركون إلى العبودية حتى وإن كان ذلك باسم الحُبّ».

إن الثورة تحتاج إلى الوضوح، والمسارات الخالية من الأوهام والتخيلات. أمّا الحرّية في الحبّ فما هي سوى الاستسلام إلى الشكوك والأفكار الواهية. وإينيسّا وإن كرّست هي الأخرى حياتها للثورة فإنّها لا تخاف من تقلّبات المشاعر في الحبّ، ولا من الحنان والعواطف والأحاسيس الاندفاعية فيه. أمّا لينين فإنه يعتبر كلّ هذا أمورا ثانوية بالنسبة للبروليتاريا، ومضيعة للوقت والطاقة، لذا، فمن الأفضل بدل الاهتمام بهذا

النوع من المشاكل التركيز أكثر على العمل الجادّ من أجل الثورة والقضية. نعم، فالاهتمام مثلا بالعاهرات يعدّ مشكلة ثانوية، ولينين لن يفهم أبدا لماذا إينيسّا وغيرها من النساء المناضلات كأليكساندرا كولونتاي، وكلارا زيتكين، وروزا لوكسمبورغ يتشبّثن ويعتنين كثيرا بمصير هؤلاء النساء، «لماذا؟ ألا توجد في ألمانيا نساء عاملات في المصانع بحاجة إلى التنظيم والتوعية عبر جريدة ما، ليَتِمّ جذبهن إلى النضال والكفاح من أجل الثورة؟» قال لينين في إحدى أسئلته الموجهة إلى كلارا زيتكين؛ لأنه يعتبر هذا الأمر نوعا من «الانحراف المَرَضيّ، إنه شيء أشبه بموضة تلك الروايات الأدبية التي كانت تطفو على الساحة وتجعل من كل عاهرة امرأة فاضلة قديسة». مؤكّدا هكذا ما ذهب إليه دائما بشأن ضرورة إبعاد الجنس والحبّ عن الثورة، حتّى في ذلك الشتاء الذي ابتعدت فيه عنهُ إينيسّا وتركته فريسة للقلق والحيرة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

(٢٢)

الفراق

وبعد أن أيقنت إينيسّا أن قصّة حبّها مع لينين قد انتهت، أو على الأقل هكذا كان يخيّلُ لها، ذهبت لتعيش وحيدة بين الجبال علّها تنعم بلحظات من الأمان والهدوء على الرغم ممّا كان يختلج في دواخلها من شوق وحنين. لكن هذه العزلة لم تدم طويلا فهاهي الحرب قد اندلعت في القارّة العجوز، وأصبح لزاما عليها أن تنتقل لقضاء صيف ١٩١٥ في سورنبرغ لمواصلة العمل والنضال من أجل أن يتحوّل الصراع إلى تمرّد، والتمرّد إلى ثورة الشعوب كما يقول لينين.مكتبة الرمحي أحمد

في سورنبرغ كانت الرفيقة إينيسّا كما لينين تقيم بفندق ماريونتال، وهو المكان الذي استطاع فيه زعيم البلاشفة أن يحافظ على كلّ ما يضمن له مواصلة عمله وأبحاثه ونزهاته الجبلية. في حين وجدت إينيسّا نفسها - حتى قبل أن تصل إلى سورنبرغ- غارقة في عملها السياسي وحملت معها العديد من الرسائل والطرود البريدية، والكتب وحتى الموادّ الخام من أجل إعداد الحبر السّرّي.

وعن هذه الفترة تقول ناديا في مذكراتها: «كنّا نستيقظ باكرا، ونبدأ العمل في الحديقة، كلّ لوحده، إلى أن تدق الساعة منتصف النهار، معلنة على الطريقة السويسرية حلول موعد الغداء. وفي كثير من الأحيان كانت تقوم إينيسّا بعزف بعض المقطوعات الموسيقية على آلة البيانو، ممّا كان يضفي على عملنا جوّا من المتعة والعذوبة.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وبعد فترة الغداء كنا نذهب إلى الجبل، ولا نعود منه إلى أن يحلّ المساء. وكم كان يستمتع لينين بصعود تلك المفاوز إلى أن يبلغ قمة جبل الروثورن، هناك حيث يمكنه من الأعلى تأمّل منظر السهول الخلابة التي كانت تبدو كسجّادات مغطاة بالثلج الورديّ».

وكما كان يحدث في الماضي، عاد الجميع إلى العيش في جوّ من الانسجام والهدوء حتّى وإن كانت إينيسّا متمسّكة بموقفها في الحفاظ على نوع من المسافة بينها وبين فلاديمير إيليتش بعد ما نشب بينهما من جدالات ونقاشات حادّة بشأن «الحرّية في الحبّ»، وهي هكذا تحاول أن تبقى ملتزمة بقرارات رئيس الحزب، وفي الوقت ذاته برغبتها في أن تكون لها حياتها الخاصة والمستقلة عنه. لكن هناك شيء آخر يقض مضجعها بشكل أكثر إلحاحا: إنها مشتاقة لأبنائها، والعمل من أجل القضية لا يسمح لها حاليا بالسفر إليهم، وهو الشوق الذي لم تستطع الحدّ من شدّته لا الموسيقى، ولا النزهات في جبل الروثورن، ولا السويعات التي كانت تجني فيها نبات الفطر البرّي، ولا حتّى المناظر الطبيعية السويسرية الخلابة الممتدّة حتى الجبل الأبيض. ويبدو أنّ سلوانها الوحيد كان في تلك اللحظات التي تقضيها في كتابة بعض الرسائل لأبنائها كما هو واضح في هذه الكلمات التي تقدّم من خلالها وبكل محبّة وحنان، بعض النصائح لابنتها إينّا محاولة أن تكون خير عون ودليل لها فيما يخصّ علاقتها بالآخرين، ومقترحة عليها أن تثق بنفسها وبقدراتها، ولا تهتمّ كثيرا برأي الآخرين بها، لأن قوّة المرأة الحقيقة تكمن في أنوثتها.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ومن يعيد القراءة بعين التأمّل لتلك النصائح العميقة الموجهة لابنتها، سيكتشف بدون شكّ أن إينيسّا إنما كانت في الحقيقة تتحدث في تلك الرسالة إلى نفسها من خلال ابنتها.

في نهاية آذار تمّ انعقاد ثلاث محاضرات اشتراكية بِبِرْن، وشارك فيها زعيم البلاشفة ببيان اقترح فيه تأسيس فيدرالية خاصّة بالدول الأوروبية، لكن المفاجأة التي لم يكن ينتظرها أحد من أهمّ أعضاء الحزب، هي ردّة فعل إينيسّا التي استطاعت ولأول مرّة أن تعترض أمام الجميع على كلمات لينين متهمة إياه بقصر النظر وعدم تقييم الأمور بشكل واقعيّ، إذ كيف له أن يتقدّم باقتراح الوحدة الأوروبية في فترة تعيش فيها هذه الدول حالة حرب موسّعة وتحكمها صراعات سياسية وأخرى اقتصادية يعلمُ بها الجميع؟!

وأمام هذا الموقف لم يستطع لينين أن يجيبها سوى بالصّمت والجمود التامّ وإن كان تصرفها هذا قد أثار حفيظته بشكل عميق، هو الرجل الذي يكره أن ينتقده أحد، لا سيما إذا كان من الرفاق المُقرّبين، ممّا دفعه إلى اتهامها أمام الجميع بالفوضوية الأناركية، وهي صفة جارحة جدًا لدى من ينتمي إلى المجموعة الرئاسية البلشفية. وكان ينتظر منها أن تتراجع عمّا قالته، لكنها لم تفعل وأجابته ببرود قاس ولامبالاة مطلقة.

وبعد فترة وجيزة من الزمن، اقترح عليها لينين بطريقته الخاصّة نوعا من المصالحة طالبا منها أن تُعِدّ معه وزينوفيف وثيقة نهائية دون الإشارة فيها إلى الدول المتحدة الأوروبية.

في أيلول وأثناء مؤتمر زيمّيروالد توترت الأجواء بينهما من جديد، ففي الوقت الذي كان الاشتراكيون يبحثون عن خطة مشتركة للحرب، وبدأت

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آراء ومواقف لينين ورفاقه البلاشفة تجاه الحرب تلقى نجاحا كبيرا بين الناس، خاصّة وأنه كان ينادي بضرورة «تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية»، وجدت إينيسّا نفسها مرّة أخرى معرّضة لإهانة جديدة في هذا المؤتمر الذي كرّست له كل وقتها ومجهوداتها أكثر منهم جميعا: لقد بدا واضحا لها أنها لا تعني لهم في الحزب أيّ شيء، والدليل على ذلك أنهم اختاروا زينوفيف ولينين من أجل تمثيل البلاشفة، وهو التصرف الذي اعتبرته طعنة قاسية منهم، واجهتها بالصّمت المرير، أيْ أنها قامت بما يجب أن تقوم به أية مناضلة في مكانها. وحينما عاد فلاديمير إلى فندق بوسيجور، حاول التقرب منها طلبا للصلح، لكنها رفضته بشكل قاطع وسدّت دونه كل الأبواب، لأنها باتت لا ترى في كل قراراته واختياراته إلا ما يهينها، ويثبت لها أن لينين لا يُقدِّرُ عملها بشكل عادل، ولا يعطيه ما يستحقُّهُ من اهتمام وقيمة، وإن كان هو يرى أن وجودها إلى جانبه مهم وضروري للحزب، ولا يستطيع أن يستوعب حقّا سبب ماتعيشه الآن من غضب ومرارة وإحباط، فتلك كانت قرارات الحزب وما عليها سوى التأقلم معها. وهو يعلم جيدا أنها تشعر بعدم تقديره لعملها بالشكل اللائق بها، لكنه يظنّ أن كلّ هذا ماهو إلا حالة نفسية عابرة ستذهب لحال سبيلها أمام التزامها بالقضية، بل من أوّل مهمة سياسية جديدة سيكلّفها بها.

وذاك ماكان فعلا، فمهمة إينيسا الجديدة هي الدخول بشكل سرّي إلى فرنسا باسم مزيف جديد هو صوفي بوبوف، وعليها أن تعمل على إقناع الاشتراكيين بعدالة القضية البلشفية. المهمة تبدو صعبة ومستحيلة منذ البداية، خاصة في هذه الفترة الحرجة التي انضمّ فيها الاشتراكيون

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الفرنسيون إلى حكومة الوحدة الوطنية، واغْتِيلَ رئيسهم جان جوريس بعد مرور ثلاثة أيام على اندلاع الحرب نظرا لمواقفه السلمية. لكنّ لينين يبدو غير مبال بكلّ هذه التطورات، ويحاول مجددا إقناع إينيسّا بالذهاب إلى فرنسا باعتبار أنها الشخص الأكثر ملاءمة لهذا العمل لما تتمتع به من كفاءات وقدرات ثقافية وسياسية ولغوية وديبلوماسية عالية، إضافة إلى كونها امرأة، وهذا سيبعد عنها لحدّ ما أعين الأوكرانا.

لكنّ إينيسّا التي باتت تعرف جيّداً كيف تُقيّم الأمور والأعمال التي يكلفها بها لينين، لها رأي آخر، فهي تعتبر هذه المهمّة الجديدة غير ذات فائدة تذكر، «كما أنّ عبور الحدود بأوراق مزوّرة من أجل النداء هناك بالانهزامية في زمن الحرب بين صفوف حزب يؤمن بشرعية الدفاع الوطني، يُعدُّ أمرا خطيرا، ومغامرة لا تُحمد عقباها»، كما سبق وصرّح بذلك مؤرخها الإنجليزي إيلوود وهو يتحدّث في كتابه عن سيرة إينيسّا.

سافرت إينيسّا إلى باريس رغم كل الشكوك والأخطار المحدقة بها، وعلى عكس ما تصوّره لينين، كان رجال الأوكرانا يعرفون بكلّ تحرّكاتها وخطواتها. أمّا الفرنسيون فلم تكن لديهم أدنى رغبة في مشاركة البلاشفة موقفهم من الحرب. في حين قررت قمة الحزب الاشتراكي لمنطقة ماوراء جبال الألب اتباع خطة الدفاع الوطني، وباءت إثر ذلك لقاءات إينيسّا معهم بالفشل الذريع، وتأكّد لها بذلك أن المهمة التي كُلّفت بها خطيرة جدا، ولا فائدة منها، وهي الآن غاضبة للغاية من لينين ومتحسّرة على كل هذا الوقت الثمين والمجهود المكثف المهدورين عبثا وبدون نتائج أو مكاسب تذكر، الشيء الذي دفعها إلى أن تركن إلى صمت عنيد ودفين،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مقررة بذلك عدم الردّ على رسائل لينين المتلاحقة والتي يحاول فيها أن يفهم سبب تصرفها هذا، كما هو واضح في هذا المقطع المقتطف من رسالة يقول لها فيها: «أنا مندهش جدّا، لم يصلني منك للحظة أيّ خبر. أعترف لك أنني ظننتُكِ في البداية منزعجة أو غضبى منّى لأنني لم آت لوداعك شخصيا قبل السفر. نعم أعرف أنني بدون شك مخطئ فيما ذهبت إليه»، لكنّ إينيسّا لم تردّ عليه، وفي ١٩ كانون الثاني، كتبَ لها مرّة أخرى قائلا: «إنها البطاقة البريدية الثالثة التي لا تردّين عليها، ولقد كتبت لكِ باللغة الفرنسية تيسيراً منّي لعمل الرقابة: إنني قلق جدّا عليكِ».

وعلى الرغم من إلحاحه المستمرّ إلا أنّها مصرّة على صمتها، فالمهمّة التي كلّفها بها صعبة للغاية ولا يمكنها أن تتصرف بكامل حرّيتها، إلا أنها حاولت أن تسلك طريقا آخر للتواصل معه والتعبير له عن مدى انزعاجها منه، لقد كتبت هذه المرّة إلى زوجته ناديا قائلة لها إن محاولة الحديث أو نشر خطاب مناهض لمفهوم الوطنية في بلد طحنته الحرب ويبكي موتاه كل يوم ويكره عدوّه، لا يمكن أن تكون له سوى نتائج معاكسة تماما لما خططت له، والدليل على ذلك أنّها حينما حاولت في إحدى اجتماعات الحزب الاشتراكي الفرنسي أن تقترح فكرتها حول إمكانية حثّ الجيش على الثورة، لم ينلها سوى غضب أعضاء الحزب منها ومعاداتهم لها، فهنا «الطرقات حزينة، وكثيرات هنّ النساء اللائي يرتدين ثوب الحداد»، تقول في رسالتها لصديقتها ناديا والتي ردّ عليها لينين، لأنه تفهّم جيّدا وضعيتها والحالة النفسية التي تمرّ بها، مُكتفيا ببعض الكلمات اللطيفة كما هي عادته حينما يكون هو المخطئ في تقديره لعواقب الأمور.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مرّت بضعة أيام أخرى على رسالتها تلك، ولم تفقد إينيسّا الأمل في قدرتها على فعل شيء ما من أجل خدمة القضية، وهاهي الآن قد تمكّنت من جذب وضمّ منظمة شبابية ونقابتين إلى الحزب البلشفي وإقناعهم بالتالي بمواقف لينين من الحرب، وارتأت بعد ذلك أنه من الأفضل أن تكتب إليه لتخبره بهذا الانتصار الذي حققته، لكن زعيم البلاشفة لم يُقدّر أبدا ما قامت به، فهو لا يريد أناسا من الطبقة العاملة ولا من بين الشعب، وإنما يريد إلى جانبه قمّة الحزب الاشتراكي الفرنسي، لذا فإن ما تتحدث عنه إينيسّا في رسالتها لا يعنيه في شيء، ولا يوافق طموحاته، ولا يراه انتصارا ولا أمرا يدعو إلى التباهي أو الافتخار.

وأمام موقفه هذا وجدت الرفيقة إينيسّا أرماند نفسها مجبرة على الكتابة إليه لتعبّر عن غضبها قائلة في بطاقتها البريدية: «أيمكنُ أن يحدث هذاْ؟ لماذا لا تحاول أن تفهم صعوبة الوضعية؟ لماذا هذا العناد والتحجّر الطفولييْن؟»، وكان جوابه أن قال لها مظهرا لها انزعاجه من طريقتها في الكلام معه: «إنّ ما يحدث لا يشجّعُ أبدا على مواصلة المراسلة بيننا»، لكنّهُ عاد وغيّر رأيهُ وراسلها بعد بضعة أسابيع مُهنّئا إياها على ما قامت به من مهامّ أثناء رحلتها إلى باريس، لكنّ تهنئته هذه جاءت متأخرة جدّا، وإينيسّا لا تريد أن تصفح عنه بأيّ شكل من الأشكال، هو الذي يسمح لنفسه بالحديث معها بهذا الشكل والحُكم على عملها بتلك الطريقة الدّونية بدون وجه حقّ، غير مُقدّر الأخطار التي كانت تحيط بها من كل جانب بما فيها البوليس السري الذي كان يراقبها باستمرار ونجت منه بأعجوبة في الوقت الذي كان يخطط فيه لاعتقالها في باريس. وبناء على هذا الموقف المشين منه قررت إينيسّا أن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تتعامل معه عند العودة بشكل محدود جدّا لدرجة أنها حينما شاركت في مؤتمر الأممية الاشتراكية بكيينتال كمندوبة عن الحزب البلشفي، لم تُلقِ أيّة كلمة واكتفت بترجمة خطابات لينين وزينوفيف.

وحينما حلّ الصّيف كان الجميع يتوقّع منها أن تقضي عطلتها كما العادة مع ناديا وزعيم البلاشفة، لكنها هذه المرّة لم تفعل، وذهبت للإقامة عند أسرة زينوفيف. وفي تشرين الثاني ١٩١٦ انتقلت إلى بوجي (كلارنس) بالقرب من بحيرة جنيف، وأقامت في منزل قريب من المكتبة الروسية التي تجتمع فيها مجموعة بوجي التي لا يحبُّها لينين، مما جعل هذا الأخير يشعر بحزن عميق، ويعود لمحاولاته اليائسة في معالجة ما حدث في علاقته بإينيسّا من شرخ كبير عبر كتابة العديد من الرسائل والبرقيات التي قابلتها بعنادها وصمتها المعهوديْن، إلى أن وصلتها منه ذات يوم مكالمة هاتفية غيّرت مجرى الأحداث بينهما.

(٢٣)
مكالمة هاتفية

في البيت المتواجد عند سفح الجبل، كانت المدفأة مازالت مشتعلة، وإينيسّا بالقرب منها منهمكة في القراءة، والساعة تشير إلى وقت متأخر من الليل، حينما رنّ الهاتفُ كاسرا ذلك الصمت المُخيّم على المكان، ومعلنا عن مكالمة من لينين الذي كان في الجهة الأخرى من الخطّ بزيورخ يتحدّثُ بصوت عالٍ مفعم بالحماس والعنفوان والفرح قائلا: «لقد انفجرت الثورة، وطرد الشّعبُ القيصرَ»، تفاجأت إينيسّا من الخبر، وإن كانت قد وصلتها في الأيام الماضية بعض الإشارات التي تفيد باندلاع الثورة، لكنها لم تلق لها بالا، لأنّ الحياة علّمتها ألّا تثق كثيرا بما يقوله المنفيون الرّوس ويتناقلونه فيما بينهم من أخبار.

هل من الممكن أن يكون الحلم قد تحقق أخيرا، وفي هذا الوقت الذي لم يتوقعه أحد؟!

كثيرة هي الأسئلة التي تريد طرحها، لكن لينين كنهر في حالة فيضان جارف لا يترك لها المجال لتنطق ولو بنصف كلمة، فهو مازال يستمر في حديثه قائلا لها إنه كان يفكّر في كتابة رسالة يحدثها فيها عن هذا النّبأ السعيد، لكنّه تراجع عن ذلك مخافة ألّا تصلها في الوقت المناسب، وفضّل بالتالي أن يكلّمها هاتفيا، لأنها الطريقة الأمثل والأسرع.

صحيح أنه لم يكن هو الآخر يتوقع هذه السرعة التي حدث بها كلّ هذا، لكنهم يجب عليهم أن يتحرّكوا على الفور، فبعد أن تحقق حلم الثورة،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أصبحت الآن تنتظرهم العديد من المهام والقرارات التي يجب اتخاذها وبأسرع وقت ممكن.

مازالت إينيسّا تنصت إليه في صمت، ولا تستطيع أن تتدخّل لتقول له إنها أصبحت تعلم جيّدا ما عليها أن تقوم به الآن، فهو مازال يتكلّم بشكل حماسيّ وانفعاليّ كبير، إلى أن مرّ بعض الوقت وانتبه إلى صمتها، فقطع الحديث منزعجا، لأنه اعتقد أن صمتها ذاك لا يعني سوى برود من جهتها ولا مبالاتها بما يقوله، لكنه عاد من جديد وهو يصرخ فيها هذه المرة: «هل سمعتِ ما قلته لكِ؟! لقد انتظرنا طويلا هذه اللّحظة، والآن علينا أن نتصرّف، بل علينا أن نسافر على جناح السرعة. ما رأيكِ؟ هل تريدين أن تفكّري في الأمر؟ هل عندكِ أسبابُكِ الخاصّة؟ هل أنت مُتعَبة...».

كان لينين في تلك اللحظات لا يستطيع أن يستوعب سبب برود إينيسّا وعدم مشاركتها لحماسه وفرحه بالحدث، ولا لماذا فكّر في مكالمتها هاتفيا بمجرّد أن علم بالخبر؟ من يدري فلربّما أراد أن يتقاسم معها أفكاره ومشاريعه في تلك الفترة التي كانت الخلافات العاطفية قد هدأت فيما بينهما نسبيا. ومهما كانت الأسباب فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الحديث معها، وهاهو يعود من جديد لنفس كلامه بشكل أكثر إصرارا وتأكيدا: «أمامنا الكثير من الأشياء التي علينا القيام بها»، وكان يعني أن الثورة أصبحت واقعا وحقيقة، لا حلما بعيد المنال. ودون أن ينتظر ردّها طلب منها أن يلتقيا من جديد، فهو يرى أنه من الضروري أن تستأنف مرّة أخرى عملها معه، إذ هناك الكثير مما يجب القيام به، كتنظيم المقالات وإرسال البرقيات، وتنسيق المعلومات، وترجمة الجرائد الأجنبية، ومن غيرها هي وحدها يستطيع القيام بذلك، لربّما اقتضى الأمر تكوين مجموعة من

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأشخاص للقيام بهذا، لكنّ إينيسّا في عيني لينين تبقى الأكفأ والأقدر على القيام بكل هذه المهمات وعلى أحسن وأكمل وجه!

ضحكت إينيسّا، وهي ترى كيف أن فلاديمير إيليتش مازال هو نفسه الرجل الذي عرفته منذ سنوات مضت، إنه مازال يفكِّرُ بها ويرى فيها صورة الرفيقة التي تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، وتشرف على كلّ مشاريعه ومخططاته، والحلول التي يقترحها من حين لآخر، وأنّهُ كلّفَ نفسه عناء مكالمتها هاتفيا والحديث بشكل مفصّل ومطوّل عن ذلك اليوم التاريخي، وإن كان هو وزوجته يعيشان في حالة من الفقر والضيق.

بعد أن تناول لينين وجبة غداء سريع في غرفته التي استأجرها من أحد إسكافيّي شارع سبيجيغلاس الكائن بزيورخ القديمة، قرر الخروج طلبا لهواء نقيّ بدل ذلك الذي يلوثُ ويخنق الغرفة بالروائح الكريهة القادمة من معمل صنع السجق القريب من المنطقة التي يقيم بها. وفي الوقت الذي كانت زوجته منهمكة في بعض الأشغال المنزلية وكان هو متجها إلى المكتبة، رنّ جرسُ الباب. فتح لينين ووجد أمامه الشابّ البولندي برونسكي وهو يلهث من شدّة الركض، وقبل أن يسأله عن سبب الزيارة، انطلق برونسكي في الحديث وهو يقول: «هل علمت بالأمر؟ لقد اندلعت الثورة في روسيا!».

«هل تتذكّرين، كم مرّة قلت لكِ هذا، وكم مرّةً كتبتُ لكِ عنهُ؟!» قال مخاطبا إينيسّا دون أن ينتظر منها أيّ جواب.

«لقد كنتُ أعرفُ أن الشّعبَ الرّوسي سيثور بعد سنة ١٩٠٥، وها قد حدث بالفعل ما توقّعتُه سابقا. وأعترف لكِ أنني في بداية الأمر لم أصدّق حديث برونسكي بشكل قاطع، وكان كلّ ما استطعتُ أن أفهمه آنذاك، أن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الخبر قد نُشر على جريدة «نويه زورخر زايتونغ» اليومية. عندئذ قررتُ ألّا أنتظر أكثر إلى أن أشرب شاي الظهيرة، وطلبتُ من ناديا أن ترتدي معطفها، ثمّ خرجنا معا نركض إلى محلّ بيع الجرائد. وتأكّد لنا أن كلّ ماقاله الرفيق برونسكي كان حقيقة لا مجال للشكّ فيها».

في تلك الليلة، لم تغلق إينيسّا جفناً، فإذا كان الخبر صحيحا فهذا يعني أن العديد من الأشياء سوف تتغيّر في حياتها، وأن لينين مُحقّ فيما ذهب إليه، ذلك أن أول شيء عليهما القيام به هو إيجاد طريقة للذهاب إلى موسكو، وإذا وصلا هناك فإنهما سيعودان للعيش معا. وعليه فإنّ الأسئلة التي حرمتها من النّوم بدأت تتكاثر اللحظة بعد الأخرى: هل أصبحت روسيا مستعدّة حقّاً للتغيير؟ هل سيتولّى البلاشفة الحكم بالشكل الذي كان ينتظره الشعب منذ زمن بعيد؟ كيف سيكون استقبال الناس لهم؟ وكيف ستكون علاقتها بلينين؟ وما مصيرهما هناك في روسيا الجديدة؟

مازالت إينيسّا تتساءل قلقة، وهي تفكّرُ في سنوات العمل والتعب، والليالي التي قضتها في الترجمة، والأسفار التي لا تنتهي، ولحظات الكفاح والنضال والخلافات.

ومن حين لآخر كانت تجلس إلى مكتبها، لتتأمّلَ عبر زجاج النافذة البحيرة الكبيرة، أو لتلقي نظرة على رسائل لينين المرتبة فوق الطاولة؛ إنها كثيرة، وهذه المرّة لن يطلب منها لينين أن تعيدها إليه كما فعل منذ ثلاث سنوات مضت، لأنه الآن أصبح حذرا للغاية، وحريصا على ألّا يُضمّن رسائله أيّ شيء قد يُشيرُ إلى ما بينهما من مشاعر، وإن كان هذا لا يمنع من أن يكتب لها من حين لآخر بعض العبارات اللطيفة والحنونة، خاصة حينما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان يتعلق الأمر بحالتها الصحية كما هو واضح في هذا المقطع الذي يقول فيه: «كم أحبُّ أن أقولَ لكِ بعض الكلمات المعبّرة عن عمق صداقتنا، وأحييك بقوة. لقد كتبتِ لي تقولين إن أطرافك منتفخة من شدّة البرد. إنه أمر مريع. أتذكّر أنه قد حدث هذا معك في فترة سابقة وأصبحت يداك آنذاك متجمّدتين. لماذا الوصول إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تمارسين بعض التمارين الرياضية؟ هل تذهبين للتزلّج؟ عليكِ أن تقومي بذلك...إنه لحقا شيء ممتع فوق الجبال خلال الشتاء... هناك ستتنسّمين عطر روسيا!

في رسائلكِ الأخيرة، كنت حزينة جدّا، لدرجة أنني شعرتُ بالذنب تجاهكِ، ولا أستطيع للآن أن أجد بعض الهدوء والاطمئنان. أرجوك، لا تنغلقي كثيرا على نفسكِ في تلك المدينة الصغيرة الخالية من مظاهر الحياة الاجتماعية...حاولي أن تخرجي من وحدتكِ، ومن ذاك المكان» كان لينين يتفهّمُ جيّدا حالة الإحباط التي تمرُّ بها إينيسّا، وكان يعلمُ أيضا أنها تتجنّبُ رؤيتهُ، وهذا الأمر كان يزيد من تعاسته. وإضافة إلى الرسالة السابقة هناك رسالة أخرى تحبّها إينيسّا بشكل خاصّ، يقول فيها وقد تحرّر نسبيا من مخاوفه: «تجنّبي الإقامة في منزل بعيد جدّا عنّي، لا تجعلي الوصول إليك مهمّة مستحيلة. أرجوكِ لا تتعمّدي ذلك، فالأمر يصبح حقّا غريبا ومثيرا للضحك، إذا كنت فعلا تقصدين اشتراط إقامتك بمدى إمكانية تواجدي أو حضوري في المكان ذاته!».

لكن إذا كان لينين يبدو في هذه الرسالة عطوفا ولطيفا، إلا أنه في رسائل أخرى كان يكتب لها بأسلوب جافّ، وبكلمات شديدة الاقتضاب ولا يطلب منها شيئا سوى أن تقوم بعملها بأسرع وقت ممكن، وأحيانا كان

يوبّخُها إذا ما تأخرت عن تنفيذ أوامره، مظهرا انزعاجه من الانتقادات التي كانت تتجرّأ على توجيهها له بين الفينة والأخرى.

وكما العادة كانت إينيسّا تواجه موجات غضبه وحنقه في تلك الشهور الماضية بالصمت المطبق، لأنها كانت تعرف جيّدا أنه الأكثر تأثيرا فيه من أيّ جواب آخر مهما كان عنيفا أو ساخرا. ولقد كانت محقة في تصرّفها هذا، فلينين لا يطيق صمتها أبدا لدرجة أنه كتب في إحدى الرسائل يسألها: «لماذا لم أستلم منكِ منذ مدّة ولو سطرا واحدا؟ لقد سبق ووعدتيني بأنك ستكتبين لي "غدا"، وهذا كان منذ أسبوع مضى، وإلى الآن لم تصلني منك ولا حتى كلمة واحدة»، لكن إينيسّا لم تردّ حتى على هذه الرسالة، وحينما فهم بأنّ صمتها هو نوع من التعبير عن غضبها وانزعاجها من طريقته في إصدار الأوامر وتوبيخه لها باستمرار كتب قائلا: «أيُعقلُ أن ينزعج أحد من أشياء تافهة كهذه؟ إنه أمر لا يُصدّق فعلاً! ثمّ إنّ صمتك المطبق هذا...شيء غريب جدّاً».

إن رسائله ومكالماته تلك لم تكن إلا بدافع من شعوره بالإحباط وعدم القدرة على التصرف ومواجهة الواقع الجديد. وهي لم يعد لديها أيّ استعداد لمسايرته في أفكاره المجنونة، لا سيما تلك الأخيرة التي اقترح من خلالها السّفر بجواز مزوّر لرجل سويدي يكون أبكم وأصمّ، حتى لا يتحدّث معه أحد على الحدود، ويفلت بالتالي من المراقبة.

حتّى ناديا التي تعيش معه وتنصت إلى أحاديثه صباح مساء باتت تسخر من اقتراحاته وأفكاره، فحينما عرض عليها فكرة الرجل الأصمّ الأبكم، ضحكت بكلّ ما فيها من قوة وقالت له: «وقد يحدث أنْ تخلد للنوم أثناء

السفر، ويأتيك المناشفة في إحدى كوابيسك، عندها ستصرخ فيهم قائلا: "أيها المحتالون"، وهكذا تفشل خطّتكَ».

لم يعد لدى لينين القدرة على تحمّل المزيد، ولا على الوقوف هكذا مكتوف الأيدي أمام ما تقولانه إينيسّا وناديا، فهو لا يرى من حوله سوى الجمود وعدم القدرة على فعل أيّ شيء، لذا صرخ فيهما قائلا: «أنا لا أفهمكما، ولكنّي أعتقد أنه علينا أن نجتمع على رأي واحد: السّفر بسرعة. ولا أعرف ما الذي ينتظره الجميع».

إنه منزعج جدّا، وعلى وجه التحديد من موقف إينيسّا، ولا يعرف لماذا هذه المرأة التي استطاعت أن تواجه مشاكل وقضايا أكثر تعقيدا وصعوبة، لا تريد أن تسعى اليوم من أجل حلّ مشكلة السفر إلى روسيا؟ من يدري لربّما خلف حذرها هذا يوجد خوفها من العودة إلى ماكان يجمعها به في الماضي القريب من تفاهم وانسجام وعمل جنبا إلى جنب. نعم، إنها ليست خائفة فحسب بل ترفض الرجوع إليه لدرجة أن خبر انتصار الثورة لم يؤثّر فيها، ولا استطاع حتّى أن يهدم ذاك الجدار القائم بينهما منذ فترة من الزمن.

كانت الظروف التي عاشاها معا في الفترة الماضية صعبة للغاية؛ هو كان يقيم مع زوجته في غرفة واحدة بزيورخ لضيق الحال وشدة الفقر، لا سيما بعد وفاة والدته ووالدة زوجته اللتان كانتا تساعدانها على تحمّل أعباء ومشقات الحياة، في حين ذهبت أخته للعيش في المنفى بأستراخان، وقد كانت هي الأخرى متضامنة معه وتساعده في كثير من الأمور والمهمات.

في هذه الفترة كان لينين يشعر بأن شيئا ما بصدد الوقوع في روسيا، وكان يشعر أيضا بتضخّم القلق بداخله بشكل لم يعد قادرا على التحرر منه إلا من

خلال غضبه الذي كان يصبّه على الجميع، وكتابة مقالاته الحانقة، والمبارزات السياسية الحامية وعديمة الفائدة مع كل من يعترض طريقه، لأجل هذا كانت تطلق عليه ناديا اسم "الذئب الأبيض" وكانت تتحمّله بصبرها المعهود. أمّا إينيسّا فكانت تحرص على أن تبقى بعيدة عنه، وكان هذا الانفصال يؤثّر عليه كثيرا، ولم يكن يجد من حلّ للتقرّب منه سوى أن يقترح عليها ترجمة بعض المقالات أو المشاريع، وكان كثيرا ما يُعبّرُ لها عن انزعاجه منها، فهو يرى أنها قد جرحته كثيرا بلامبالاتها وكأنه أصبح بالنسبة لها مجرد أثر من الماضي.

لم يكن لينين وحده من قاسى الأمرّين في تلك الفترة، فإينيسّا أيضا عانت من اكتئاب شديد، والحزن والإحساس المرير بالفشل قاداها إلى الانعزال بين البحيرة والجبال. ولمن يسأل عن أسباب تعاستها هذه فهي كثيرة جدّا، فهي أولا وقبل كل شيء لم ترَ أبناءها منذ عدّة سنوات، وكانت كثيرا ما تفكّرُ بألم وحرقة في ابنها الأصغر أندريه الذي أصبح مراهقا ويحتاج للعناية - وفقا لما تقوله الرسائل القادمة من بوشكينو- أمّا فارفارا وإينّا فأصبحتا امرأتين صغيرتين بأحلام ومشاريع كبيرة تداعب مخيّلتيْهما، وإينيسّا تعلم من رسائلهما أنهما بدأتا تكتشفان الحياة في غيابها عنهما. وليس هذا فحسب، فهي لم تستطع أن تتابع في سنوات المنفى الأخير اختيارات ومسارات كلّ من ساشا وفيدور، والحال هذه فهي تعتقد أنها قدّمت الكثير للثورة وللينين، ولم تندم على ذلك أبدا، إلا أنها لا تستطيع أن تتحاشى تقييم حياتها كاملة، لتجدها أنها مجرّد سلسلة من الفشل الذريع، والدليل على ذلك هو أنها الآن وحيدة في المنفى السويسري، ولا تستطيع العودة إلى الوطن.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

(٢٤)

في القطار إلى سان بطرسبورغ

انطلق القطار من زيورخ، وإينيسّا التي على متنه في مقصورة من الدرجة الثانية، تعرفُ جيّداً المحطّات التي سيقطعها خلال هذه الرحلة؛ ذلك أنها بعد فترة من الزمن ستتوقّفُ في زاسنيتس، وستعبر البلطيق على ظهر باخرة الملكة فيكتوريا، وتصل بعد ذلك إلى تريليبورغ في جنوب السويد، ومن هناك ستركب أسطولا آخر يحملها إلى ستوكهولم، وستعبر فنلندا لتكون بعدها مباشرة بسان بطرسبورغ، وفي ١٦ نيسان ستُعانق أرض الوطن من جديد.

القطارُ بطيء جدّاً، يقف تارة، وتارات أخرى يُغَيِّرُ اتجاههُ لينطلق من جديد مُتّبعاً أوامرَ تبدو للوهلة الأولى غامضة وغير مفهومة للجميع. أمّا إينيسّا فتحاول أن تقضي ساعات السفر الطّوال وهي تتأمّلُ عبر النافذة القرى الصغيرة وما خلّفته الحرب من دمار بها، وكذا الحقول الشّاسعة التي استيقظت لتوّها بعد فترة طويلة من الشتاء القاسي. ومن حين لآخر كانت تنهمك في كتابة بعض الرسائل أو تسجيل بعض الأفكار، وإن كان يصعبُ عليها التركيز في عملها بسبب ضجيج الرّكّاب، وأصوات قهقهاتهم العالية، وأناشيدهم الحماسية، وجريِ الأطفال في ممرّات القطار، وهتافات البعض وهم يطالبون الرّفاق بالصّمت. في حين كان يصلها من المقصورة المجاورة صوت ناديا وهي تطلبُ من زوجها لينين أن يتناول وجبة الإفطار،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بينما يردُّ عليها قائلا إنه سيفعل ذلك في غضون دقائق، أيْ بعد أن يكون قد أنهى كتابة خطاباته.

على متن هذا القطار الذي غادر سويسرا في ٩ نيسان ١٩١٧، يوجدُ ٣٢ شخصا، وبينهم طفلان، وكلّهم من المنفيين البلاشفة الذين اختاروا العودة إلى الوطن مع لينين؛ رئيسهم الذي تمكّن من النجاح في هذه المهمّة التي كانت تبدو مستحيلة وخيالية: الوصول إلى روسيا بمساعدة من ألمانيا التي وضعت هذا القطار تحت تصرّفهم ومنحتهم وثيقة حصانة تضمن للجميع السفر وعبور البلاد في فترة الحرب، وفي المقابل طالب لينين المسافرين بأداء ثمن التذاكر.

لقد كان رفاق إينيسّا سعداء للغاية برحلتهم هذه وإن كانت على متن قطار الألمان الأعداء، فهم في تلك اللحظات كانوا يعيشون، رجالا ونساء، حدثا خارقا لم يتوْقع أحد منهم حدوثه بهذه السرعة، ولا حتّى سفرهم جميعا على متن ثلاث عربات من الدرجة الثانية، وخمس أخرى من الدرجة الثالثة في قطار مرصّص ويتمتع ركابه بالحصانة السياسية، إضافة إلى عدم السماح لهم بمغادرته ما لم يصلوا إلى المحطة الأخيرة وفقا للاتفاق الذي تمّ عقده مع الألمان.

لا أحد كان يتوقع أن يُغَيّر التاريخ وفي فترة وجيزة من الزّمن حياة هؤلاء المسافرين بشكل إيجابيّ لا يهدف أبدا إلى إقصائهم أو إلغائهم من منظومة الحياة كما كان يحدث في السنوات الماضية، بل على العكس من ذلك تماما، فهم الآن أصبحوا أبطالا لملحمة تاريخية لم يشهد العالم لها مثيلا، ولا أحد يستطيع الآن أن يكدّر سعادتهم هذه، ولا حتّى لينين نفسه الذي اضطر

إلى حثّهم على الالتزام بالصمت والنظام الحزبيّ، ولكنهم لم يـذعنوا لـه، ولا للجوع الذي كانوا يشعرون به من حين لآخر، خاصّة أنّهم مُنعوا مـن حمـل الأكل معهـم، وذاك القليـل الـذي كـان بحـوزتهم تمّـت مـصادرته خـلال الرحلة، وبات لزاما عليهم الاكتفاء ببعض الخبز والبسكويت والشّاي.

وكان يحـدث أن ينبهـر الركّـاب لـبعض الوقـت بالمنـاظر الطبيعيـة، أو ينزعجوا من حين لآخر من مشاهد القطـارات القادمـة مـن الجبهـة محمّلـة بالموتى والجرحى والأجساد المُتعبة والأوجـه الهزيلـة الـشّاحبة. إلّا أنّ هـذه اللحظات لم تكن لتدوم طويلا، لأنّ كلّ واحد مـن هـؤلاء المُسافرين كـان يرى أمامه شمس المستقبل متوهّجة ومفعمة بالأمل حتّى وإن كانت أحيانـا لا تسمح من فرط الوهج بتقييم الأمور بشكل أكثر وضوحا، ولربّما كانـت تعمي الأبصار ويستحيل معها رؤيـة أيّ شيء آخـر، كـما سـبق ولاحظـت إينيسا التي لاتستطيع أن تشارك المسافرين فـرحتهم وحماسـهم، وإن كانـت هي الأخرى مثلهم قد حلمـت كثـيرا بـالرجوع إلى روسـيا وبـاليوم الـذي يتمكّنُ فيه الشعب من طردِ القيصر، فهي لم تقرر ترك هدوء كلارنـس، ولا القبول بالسّفر مع لينـين ونـاديـا إلّا في اللّحظـات الأخـيرة حينـما كتـب لهـا الزعيم البلشفي يوما واحدا قبل المغادرة رسالة قال فيهـا: «علينـا أن نـسافر جميعا وأنتِ معنا يوم الأربعاء، أرجو ذلك».

حينما كلّمها أوّل مرّة عن مشروع هذا السّفر، فهمـت أنـه كـان جـادّا في كلّ ما قاله لها، وأن الأمر لم يكن مجرّد خُطَط تخيّلها الزعيمُ أسابيع فقط قبـل ذاك الحدث، فهي تعلمُ جيّدا أن الإمبراطورية الألمانية عـلى شـفا حفـرة مـن الانهيار، وموتى الحرب تجاوز عددهم المليونين، وتعلم أيـضا أن الولايـات

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المتحدة على وشك الدّخول في الحرب، وأن ألمانيا هي اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى بحاجة ماسّة إلى التخلّص من مشاكل الجبهة الشرقية، وإجبار روسيا على تبنّي حلّ السّلم والسلام في بلد أنهكته الإضرابات والمظاهرات. لذا لم يكن أمام الجميع من مخرج سوى اعتماد خطّة جديدة من أجل تغيير مجرى الأحداث عن طريق السّعي إلى إعادة الثوريّ لينين إلى أرض الوطن وجعله رئيسا للبلاشفة، والسّلميّين والانهزاميّين وكلّ المعارضين للحرب، وكانت النتيجة، أنْ وقَّعَ لينين اتفاقيةَ السّلام، وتَحوّلَتْ معارضة البلاشفة للحربِ من موقف تسبّبَ لهم في حقد العديد من الأحزاب عليهم بما فيهم اشتراكيو أوروبا كافّة، إلى ضربة حظٍّ جلبتِ الفرحة والانتصار لهم جميعا.

معاهدة السلام تلك، اعتبرتها إينيسّا - عقدا أُبْرِمَ مع الشيطان -، لكن بنتائج إيجابية هائلة، على الرغم من الارتباك والشكّ الذي انتاب لينين في البداية وهو يفكر فيمَ سيقوله الآخرون عنه سواء داخل روسيا أو خارجها، أو داخل الحزب نفسه، وكيف سيستقبله الروس الذين كانوا يحاربون الألمان الأعداء في الوقت الذي سيعود فيه إليهم وهو على متن قطار على نفقة الألمان أنفسهم؟!

لم يدم تردد لينين ولا أسئلته طويلا، وقرر السفر سريعا، وفهمت إينيسا ألا أحد سيوقفه عن قراره هذا، ولا حتّى مشاركة البشع أليكساندر بارفوس هيلفاند في تنظيم وتنسيق سفر العودة.

لم تنبع عبارة إينيسا تلك عن العقد المبرم مع الشيطان من فراغ، فهي ليست بامرأة ساذجة، وتعرف جيدا أن العمل السياسي كثيرا ما يدفع الإنسان إلى انتهاج طرق وسبل غير نزيهة، لكنها مع كل هذا، لم تستطع أن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تمنع نفسها من الشعور بالاشمئزاز حينما عرفت أن من وراء عملية السفر هو بارفوس نفسه. فهي تعرفه جيّدا، إنه إنسان غامض، وكان بسبب أنشطته المشبوهة في سجن القديسين بطرس وبولس بسان بطرسبورغ، كما حكم عليه أيضا بالإقامة الجبرية في سبيريا إلا أنه استطاع الهروب منها متجها إلى أوروبا.

إضافة إلى هذا، كان بارفوس يقول عن نفسه إنه ثوريّ، ويعرف بليكانوف وتروكي، وساعد لينين في نشر جريدة الشرارة «إيسكرا»، التي لعبت دورا كبيرا في تكوين الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

بارفوس هذا، عمل أيضا في مجال الصحافة، لكنه بعد ذلك ارتأى أنه من الأفضل أن يكرس حياته للأعمال الحرة، إلى أن أصبح رجلا ذا ثراء باذخ، ويملك نصف أسهم شركة صناعية كيماوية كبيرة بكوبنهاغن كان يديرها آنذاك صديق قديم للينين واسمه جاكوب فوستنبرغ.

كان بارفوس رجلا ضخما، يحبّ حياة الرّغد والثراء، يجول الطرقات بسيارته الفارهة، ويصرف أمواله على النساء والخمور، ولكأنه يُجسّدُ الصورة السّاخرة لرجل رأسمالي مغرور ووقح، هكذا على الأقلّ كانت تقول عنه إينيسّا في صمت بينما يعبرُ القطارُ التراب الألماني.

لمْ يَكُن هيلفاند فقط جلا ثريا، وإنما مصابا أيضا بجنون العظمة بشكل جعله يعتقد أنه قادر على التحكم في التاريخ الروسي من خلال تنظيمه لعملية إعادة مجموعة من المنفيين والثوريين الرّوس إلى بلدهم الأمّ، وتمكينهم بعد ذلك من السيطرة على الأحداث التي ستقلب روسيا رأسا على عقب، ثم توقيعهم بالتالي لوثيقة تضمن للألمان تحقيق السلام المنشود في الجبهة الشرقية.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ألا يُستَحْسَنُ أن نتعامل معه بحذر شديد؟ - سألت إينيسّا لينين حينما حدّثها عن هيلفاند - لكنّ الزعيم الثوري التزم بالصّمت مكتفيا بنظرة عميقة فهمت منها أنه ما من حلّ للعودة إلى أرض الوطن سوى القبول بعرض بارفوس مع الحرص على التحكم ما أمكن في نتائج هذا التعاون لاحقا، فلينين يعرف جيدا هذا الرجل، ويعرف أيضا ألّا أحد يطيقه من أعضاء الحزب، وبناء على هذا الحلّ الوسط لم يبق أمام إينيسّا سوى أن تقتنع بصواب خطّة لينين لأنها تعلم أن هذا الأخير لديه من الخبرة السياسية ما سيحول دون وقوعه في فخّ رجل رأسمالي جشع ومحتال، لا سيما وأن الخطّة تقتضي أن يقطع معه كلّ علاقة عمل وما إليه ما إن يعود هو وباقي الرفاق إلى روسيا.

مازالت الرحلة طويلة، وفي القطار يوجد ضابطان عسكريان من الألمان، يرافقان ويراقبان الركّاب البلاشفة، وهما الآن في حالة انزعاج شديد بسبب تجرُّأ بعض الرفاق الرّوس على ترديد أغنية باللغة فرنسية، مع العلم أنها لغة العدو التي لا يجب استخدامها أبدا على متن هذا القطار، ولولا أن تدخّل الاشتراكي الديمقراطي السويسري بلاتن الذي كان يسافر معهم كوسيط ديبلوماسي بين الطرفين، لقام الضابطان الألمانِييْن بتنفيذ تهديدهما بإيقاف القطار وإلغاء الرحلة برمّتها.

لا هدوء ولا صمت في هذا القطار إلا في تلك المقطورة التي كان يسافر على متنها كل من ناديا ولينين، الذي كان منهمكا في كتابة اقتراحات الحزب الجديدة، استعدادا للحظة الوصول إلى سان بطرسبورغ، وهو وإن كان يبدو هادئا إلا أنه ليس بمطمئنّ أبدا، فهو لا يعرف ما الذي ينتظره هناك، ولا

كيف ستكون ردّة فعل الشعب ما إن يصل إلى العاصمة، وهذه كلّها هواجس دفعته إلى أن يتخذ كل الاحتياطات اللازمة، فهو أولا لن يذهب بمفرده إلى روسيا، ثم أنه ما إن يصل إلى هناك، سيتقدّمُ إلى السلطات المدنية بطلب موافقتها على تواجد الحزب الوطني وكذا الاشتراكيين الأوروبيين بالأراضي الروسية، دون أن ينسى أن يشرح لهم آليات مشروع العودة، وإيضاح كل الشكوك الحائمة حوله، لا سيما وأنه لمْ يكن بأيّ شكل من الأشكال خيانة أو استسلاما للعدو، بقدر ما كان عملية سياسية لا تخلو من الدهاء والحكمة.

إلا أن لينين على الرغم من أفكاره هذه، فهو لم يحظ بمساندة المناشفة ولا الاشتراكيين الثوريين، الذين رفضوا جملة وتفصيلا السفر معه، وهو الرفض الذي لم يؤثر على إصراره وعزيمته، بل زاده ثباتا على ما هو مُقدم عليه من تجربة ومغامرة سياسية حاسمة، وتأكّد له أنه قد أحسن عملا حينما انفصل عنهم في السنوات الماضية بسبب عدم قدرتهم على العطاء السياسيّ بدون حزازات ولا أحقاد.

لقد تعامل لينين مع الألمان بشكل مرن مع نوع من الخضوع (وهو سلوك استراتيجي غالبا ما يلجأ إليه حينما يريد تحقيق هدف معين)، لكنه في الوقت ذاته طرح عليهم بعضا من الشروط أهمّها: أن يكون القطار مرصّصا ويحظى بكل الميزات التي تتمتع بها السفارة الخارجية، ألّا يختلط البلاشفة بالجنود ولا بالشعب الألمانيْن، أن يوضع رهن إشارتهم على الأقل ضابطان ألمانيْن يتحدّثون إليهما من خلال الوسيط الديبلوماسي بلاتن، ألّا يُسمح لهم بمغادرة القطار إلّا عند الوصول سالمين إلى روسيا، ثم في الختام أن يتمّ رسم

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

خط بالطباشير الأبيض على القطار للفصل بين المقصورات الروسية، والعربة التي سيسافر على متنها الضابطان الألمانيان.

وكما لينين، شاركت إينيسّا هي الأخرى في الإعدادات الأولية لهذا السفر، إذ قامت بترجمة العقد المبرم مع الاشتراكيين الديمقراطيين الفرنسيين والسويسريين والألمانيّين، وقرأت بصوت عال أمام ممثلي الأحزاب الأوروبية ما كان مكتوبا حبرا على ورق قائلة: إذا كان لينين سيعود على متن قطار العدوّ، فذلك سيتمّ لأنّ الجميع قد وافق عليه.

إينيسّا ولينين معا الآن على متن هذا القطار بعد أشهر عدّة من الفراق، لكنّهما ليسا في نفس العربة، كما كان يحدث أثناء أسفارهما الماضية. لقد تدخّل زينوفيف هذه المرّة واقترح أن تكون للينين مقصورته الخاصّة، لأنه بحاجة إلى الهدوء والعمل بتركيز على ما ينتظره بعد الوصول من مهامّ. أمّا هي فكانت في المقصورة المجاورة له، وحتى وإن كانت من حين لآخر تلتقيه خلال ساعات هذا السفر الطويل، لتقرأ له خطاباته التي أعدّها من أجل لحظة الوصول، أو لتناقش معه القرارات القادمة والمتعلقة باختيار اسم الحزب وأعضائه الرئاسيين الجدد، والخطط الواجب انتهاجها أمام مؤيدي الحكومة المؤقتة، إلا أنها كانت تشعر بنفسها وحيدة جدًّا، لا سيما بعدما تدخّل الحزب ولأول مرّة من أجل فصلهما وإبعادهما الواحد عن الآخر، وهو الأمر الذي كان من المستحيل أن يفكّر به زينوفيف في الفترة القليلة الماضية من حياتها.

أمّا ناديا فكانت وسط كلّ هذه الأحداث تحاول الحفاظ على هدوئها، وإن كانت نظراتها من حين لآخر تنمّ عن قلق وانشغال بما قد تحمله

الساعات القادمة من مفاجآت، في حين كان بقيّة الرفاق يتساءلون في ترقّب عن الوضعية الجديدة وما قد يليها من تغييرات جذرية.

وفي الوقت الذي كان يواصل فيه القطار سفره البطيء، كانت إينيسّا تدرك جيّداً كيف أنها ولينين لن يستطيعا بعد الآن تحديد مسار حياتهما الشخصي، إلا وفقا لما ستفرضه ظروف الثورة الجديدة، أمّا هو فكان لا يراها في حياته القادمة إلّا كرفيقة عمل، وقد سبق وحدّثها عن المناصب والمسؤوليات التي باتت في انتظارها، متجاهلا في الوقت ذاته صمتها الدّفين، ما عدا في تلك اللحظات القليلة التي كانت تطفو فيها بعض الذكريات من ماضيهما القريب، وتمتزج بلحظات العمل، عندئذ فقط، كانت عيناه تُشعّان محبّة مَشوبة ببعض الشوق والحنين. والشيء نفسه كان يحدث حتى في تلك الأوقات التي كان يبقيان فيها لوحدهما وهي تشرب الشاي الذي أعدّته ناديا، أمّا هو فكان يكتفي بالنظر إليها طويلا محاولا طرد كل ذاك الزخم من الأحداث الجميلة التي جمعته بها، ليجد نفسه في الأخير وهو يسألها قائلا بحنوّ: «إينيسّا، أما زلت تعزفين بيتهوفن؟».

وفي ليلة من ليالي هذا السفر الطويل توقّف القطار فجأة عند المنطقة المخصصة للسكّة الحديدية المقطوعة، أيْ عند ذاك الخطّ الذي عادة ما يُستخدم من أجل الوقوف الاستعجالي عند الطوارئ، ليخرج لينين متجها نحو سيارتين كانتا تنتظرانه بالخارج، ثمّ استقلّ واحدة منهما وبقي بداخلها لما يقارب الساعة، ممّا جعل إينيسّا تفهم وبسرعة البرق أن ما بصدد الحدوث داخل تلك السيارة لن يكون سوى عقد صفقة جديدة، فمن يدري ربّما وعده الألمان بالمال الكثير من أجل تمويل الثورة. وبالضبط وكما سبق

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وتوقّعت هي الأمر، قفز لينين بصفقته الجديدة هذه على تدخل بارفوس، وتعاقد مباشرة مع العدوّ: يا له من تصرفّ طائش، وحكيم في الوقت ذاته!

لقد كانت إينيسّا الوحيدة التي انتبهت إلى ما حدث في تلك السيارة، ووحدها بقيت تنتظر عند الباب عودة لينين، وحينما وصل التقت عيناهما في نظرة سريعة وعميقة، لمْ يكن هناك بعدها أيّ داع لشرح المزيد، فهو يعرف أنّ الرفيقة أرماند قد فهمت كلّ شيء، ويعرف أيضا أنها لن تبوح بما رأته أو فهمتهُ لأحد.

وتصديقا لظنه تبثَ لاحقا، ألّا أحد علم بما وقع إلّا بعد سنوات عدّة، وبالضبط في سنة ١٩٢٤ حينما تمّ فتح أرشيفات الحزب الشيوعي السوفييتي، واكْتُشف أنّ الألمان لم يزوّدوا البلاشفة فقط بالقطار المرصّص، وإنما بعشرات الملايين من العملة الألمانية.

وإينيسّا على الرغم من سعادتها بما يحدث أمامها من تغييرات سياسية مهمّة، فإنّها لا تستطيع أن تتصوّر حياتها تحت الحكم المطلق للتاريخ، لأن ما ينتظرها وينتظر غيرها بسان بطرسبورغ من الأحداث القويّة، والوقائع العنيفة، لن يرحمها أبدا، ولن يأخذ بالاعتبار تلك المشاعر الحميمية التي تربطها بلينين، ثمّ أنها إضافة إلى كل هذا، لا تريد أن تبقى قابعة في الظلّ وتابعة للينين في كلّ ما يقوم به كما كان الشأن خلال سنوات المنفى، وإن كان هو على عكس ذلك لا ينتظر منها سوى المزيد من التعاون والعمل المشترك، لأنه يرى أن وقوفها إلى جانبه سيساعده كثيرا على التخفيف من حدّة العمل وثقل المسؤوليات التي تنتظره هناك بروسيا. لكن إينيسّا لم تتجاوز بعد كل مشاكلها معه، ولا شكوكها وآلامها التي قادتها إلى

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الانفصال عنه عاطفيا، لا سيما وأن الكثير ممّن حوله يرون في وجودها وحضورها بحياته، خطرا كبيرا على مستقبله السياسي. والأيّامُ أكّدت لها هذا الأمر لأكثر من مرّة، حتّى في هذا القطار المسافر بهما معا إلى أرض الوطن، والذي يعرف فيه جميع ركابه أو معظمهم قصتها مع فلاديمير إيليتش. كما لم يفتها أبدا أن تلاحظ أنها مراقبة في هذا القطار من الجميع، وأن العديد من الرفاق يشعرون بالحرج تجاهها، وآخرون منهم لا يخجلون من إظهار ما يضمرونه لها من حقد وكراهية، وهي التي تعرف جيدا أن الصراعات الداخلية في الحزب قد بدأت منذ زمن، ولربما حتى في تلك العربات غير المريحة حيث يشرب جميعهم الشاي ويأكلون البسكويت ثم ينامون مدثّرين بالأغطية.

وماذا عن ناديا وهي زوجة الزعيم؟ طبعا هي مطمئنة لأنها تعلمُ ألّا شيء سيمسّها، بل على العكس من ذلك تماما، فهي بمجرد أن تصل إلى روسيا ستتأكّدُ منزلتها ومكانتها المرموقة، وسوف تكون هي أول من لا يريد أيّة امرأة أخرى في حياة زوجها الرسمية. هكذا كانت تعتقد إينيسّا، فالحياة علّمتها ألّا تثق بالهدوء ولا بالصداقة التي يظهرها تجاهها الآخرون.

على متن ذلك القطار، وبينما لينين منهمكا في كتابة أطروحات نيسان، كانت إينيسّا تسترجع بعض الذكريات وتتأملّ كيف أنّ ذاك الكفاح من أجل القضية والذي جمعها بحبيبها إلى وقت قريب، سيكون هو سبب انفصالها عنه بعد بضعة أيام. لأجل هذا فهي ترى أنها بحاجة ماسّة إلى إعادة بناء حياتها، ذلك أنها بعد الوصول إلى سان بطرسبورغ ستقيم فيها لأيّام قلائل، ثم تذهب إلى موسكو لتستقر وتعيش فيها مع أبنائها، وتواصل

بها عملها كما كانت تفعل في السنوات الماضية، دون أن تعتمد على أحد في عطائها المستمرّ وقدراتها وطاقتها المتجددة. هكذا فقط سيطمئنٌّ مدراء الحزب، في الوقت الذي سيكون فيه لينين منشغلا باستمرار، لدرجة أنه لن يجد الوقت الكافي ليناقش معها قراراتها هذه أو إقناعها بالعدول عنها.

وكم كانت إينيسّا مُحقّة في كلّ ما ذهبت إليه، وهي التي لم يأتِ ذكرُ اسمها حتّى في تلك الشهادات التي وثّقت لذاك السّفر الذي غيّر مصير روسيا وأوروبا. فوجودها بالنسبة للتاريخ الرّسميّ أمر مُحرج، ولا يليق الحديث عنهُ أبدا. والحُبّ الذي حرص الجميع على إخفائه في هذا القطار وكذا خلال سنوات الإقامة بباريس وكراكوف وسويسرا، يجب الآن دفنه بمجرّد الوصول إلى روسيا الثورة، لأنه خطأ فادح، وماض لا يجبُ تذكّرُهُ أبدا.

(٢٥)
ثــورة

هاهي إينيسّا جالسة في الصّفّ الأمامي تنصت إلى لينـين العائـد تـوّا إلى سان بطرسبورغ، وهو يعرض أمام الجماهير بحِرفية خطابية عاليـة، ورباطـة جأش أطروحات نيسان، ويتحدث عن الخطط الجديدة التي تمّ اعتمادها من أجل تحقيق النظام الاشتراكي في روسيا.

في نقاطه العشر، يناقش العديد من الأمور أهمها ما يـلي: إيقـاف الحـرب بأسرع وقت ممكن، مراقبة الإنتاج وتوزيعه من طرف الـسوفييت، مـصادرة أراضي الخواص، ثم وضع حدّ نهائي لسلطة البورجوازية في المؤسسات وفي الجيش والشرطة والإدارات البيروقراطية، وتعويضها بأعـضاء الـسوفييت، وليس كما كان في السابق، أيّام حكم البورجوازية والقيصر. لأجل كلّ هذا، يجب حرق المراحل دون الإصـغاء أبـدا لمـن يريـد بـشكل أو بـآخر عرقلـة الثورة، أو تقديم تساهلات أو تنازلات مع النظام الذي لم تعد لديه أية قدرة على تخليص الشعب الروسي من ربقة الحرب والجوع.

إينيسّا تستمع إلى خطاب لينـين، لكـن صـور الـسّنة الماضـية لا تفـارق مخيّلتها. إنّها مازالت تتذكّر لحظة الوصول إلى محطّة فنلندا؛ كان الوقت ليلا، وكان يسود لحظات الوصول جوّاً من الترقّب والخوف ممّا قـد يحـدث أثنـاء النزول من القطار.

حتى لينين كان قلقا من لحظات الوصول هذه، وإن كان لا يُظهر ذلـك، لأنه لا يحبّ أن يرى الآخرون عليه علامات الـشكّ أو الخـوف كـيفما كـان

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نوعه. لكنّ قلق لينين كانت له أسبابه الوجيهة: فسفر العودة على متن قطار ألماني وبدعم ماليّ من العدو ليس بالأمر السّهل أبدا، والمسافرون الذين كانوا في القطار يعرفون هذا جيّدا، ولكنّهم ليست لديهم أدنى فكرة عن الطريقة التي سيستقبلهم بها الشعب الروسي الذي كان على علم بالاتفاقية التي وقّعوها مع الألمان.

لكن المخاوف ذابت، واندثر القلق ما إن رأى الركّاب عبر نوافذ القطار المئات من الأعلام الحُمر، ترفرف احتفاء بوصولهم، وجموع غفيرة من النّاس ترحّب بهم، بين عمّال وجنود، ومناضلين يحرّكهم حماس لا مثيل له. وعندئذ فقط تأكّد للجميع أن عودتهم هذه لم تكن تعني سوى شيء واحد: النّصر الكبير، والذي عبّر عنه الشعب من خلال الفرق العسكرية الموسيقية، والأعلام وأقواس النصر المضيئة، إضافة إلى وجود أليكساندرا كولونتاي في المقدّمة وهي تحمل بين يديها باقة من الزّهور.

اضطرّ لينين إلى الصّعود فوق دبّابة كبيرة من أجل أن يتحدّث إلى الحشود الكبيرة، ويلقي خطابه الرسمي الأول وسط هتافات وتصفيقات الجميع.

أمّا إينيسّا، فإنها وإن كانت تعرف جيّدا لينين، واستمعت في أكثر من مناسبة لخطاباته التي كان يجذب بها جمهوره داخل قاعات الاجتماعات أو المؤتمرات، وانبهرت به كما كان ينبهر به العديد من المؤيدين له ولفكره، إلا أنها في هذه الليلة رأت أمام عينيها لينين جديدا، غير ذاك الذي تعرفه من قبل؛ وكأنه أصبح شخصا آخر أكثر توهّجا وقوّة وحماسة، ما إن نزل من القطار وأنصت إلى الخطاب الشكلي الذي ألقاه شيدزه رئيس سوفييت

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفلاحين والجنود، حتى استلم الكلمة من بعده وبدأ يهتف في الجمهور الغفير قائلا بكل حماس: «فجر الثورة يسطع بقوة على الجميع، وانهيار الإمبريالية الكامل بات وشيكا. عاشت الثورة الاشتراكية العالمية»!.

عندئذ فهمت إينيسّا أنّ لينين دخل طريقا لا يمكن لأحد أن يبعده عنه أبدا، بل اتجاها جديدا لا مجال فيه للتوقف ولو للحظات من أجل التأمل أو التفكير الجيد فيما ينبغي فعله حقيقة.

حتّى هي كانت تشعر بأنها مختلفة تماما عمّا مضى، كل المخاوف قد اندثرت الآن بفضل ما رأته من حماس النّاس من حولها، وفرحهم وثقتهم بما حققوه من انتصار. كل هذا كان يعني لها أن سنين المنفى والبعد عن الأبناء والسجن والالتزام النضاليّ، لم تكن سدى. بل كل حزن وكلّ عذاب يهون الآن أمام نجاح الثورة.

إنها لم تعد تلك المرأة الممزقة بين حياتها وعملها النضالي وقصة حبّها، ولا أدل على ذلك من أنها ومباشرة بعد وصولها إلى سان بطرسبورغ سافرت إلى موسكو من أجل حضور فعاليات المؤتمر المحلّي للاشتراكيين الديمقراطيين بهدف عرض «أطروحات نيسان» على الحزب، والتي تعتبرها «ذات مغزى تاريخي عالمي»، وفقا لما روته فيما بعد لصديقتها بولينا فينوغرادسكايا.

أمّا عن التغيير الإيجابي الذي حصل في حياة إينيسّا إبان الانتصار الذي حققته الثورة، فتقول الصديقة بولينا التي كانت حاضرة في المؤتمر: «لقد كانت إينيسّا تبدو في غاية الجمال، تقاسيم وجهها رفيعة وكأنها نحتت بيد فنّان. كانت تبدو واثقة من نفسها، ولكأن الطبيعة وهبتها من سرّ جمالها شيئا رائعا وخارقا للعادة».

في موسكو وخلال نيسان ١٩١٧، أصبحت إينيسّا امرأة بلشفية، بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، إنها ثورية بالمهنة، وتكرّس كلّ ساعة من يومها للعمل السياسي. أمّا لينين فبقي بسان بطرسبورغ، ولا أحد يمكنه الاتصال به، إضافة إلى كونه أصبح محاطا بكلّ أعضاء الحكم والنومينكلاتورا التي تمّ تشكيلها في أسرع وقت ممكن. حتّى إينيسّا لم يعد بإمكانها التواصل معه بسهولة، فهي مضطرة إلى إرسال رسائلها إلى أخته في مقرّ جريدة البرافدا، بعد أن تكون قد كتبت فوق الظرف «موجّهَة إلى ف. إ»، فالمراسلات الخاصّة من الممكن جدّا أن تكون مراقبة، ولينين، لم يعد يثق بأحد.

رسائل إينيسّا من موسكو قصيرة جدّا، وكذلك ردود لينين عليها. هذا لم يكن يعني أيّ شيء. ففي الأيام الأولى التي «غيّرتِ العالم»، وحتى وإن كانا بعيدين عن بعضهما البعض، فإن هذا لم يمنع من أن يظل بينهما الاحترام والانسجام العميق، وبقيت تسانده وتدافع عنه، حتى حينما بدأت تظهر انتقادات الرفاق الآخرين له، الذين كانوا يعتقدون أن أطروحاته وأفكاره متشددة في وقت لم ينضج فيه بعد كل شيء. ففي روسيا وقبل أن يتمّ تنفيذ الثورة البروليتارية، كان يجب التركيز على تكوين طبقة عمالية واعية، وقادرة على الوصول إلى درجة من التقدم والتطور الإنتاجي، وعلى وجوب الاكتفاء حاليا بهذه الحكومة المؤقتة.

وبعد أن خمدت جذوة الفرح بالانتصار، ومرت فترة الحماس الأول، أبدى حتى الأصدقاء المقربون من لينين عدم موافقتهم على قراراته بما فيهم صديقه الحميم كامينيف، الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجنة المركزية بالحزب، وستالين الذي كان من أشدّ المساعدين قربا منه. أمّا إينيسّا فكانت عكسهم تماما وظلت متشبثة ومقتنعة بكل مواقف لينين لدرجة أنها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

اضطرت أن تختلف علنا وبشكل مباشر مع كامنيف الـذي لم تـرهَ منـذ أيـام إقامتهما في كراكوف. ولم يغير قناعاتها تلك ولا حتى شـكوك النـاس حـول مصير لينين، إضافة إلى الأحزاب الأخرى التي باتت تتهمّ البلاشفة بالخيانة، وتضمر مهاجمة الجميع باسم الوطن. في الوقت الذي أصبحت تظهر فيه كل يوم جموع غفيرة تنادي باعتقال زعـيم البلاشـفة. وحتـى البحـارة والجنـود أصبحوا يعارضونه، ومعهم فرقة الحرس البحري التـي أعربـت علنـا عـن ندمها على مشاركتها في تنظيم ذلك الاستقبال المجيد بمحطة فنلندا في سـان بطرسبورغ احتفاء بعودة الزعيم على متن ذلك القطار الألماني.

إينيسّا لم تتراجع عـن شيء أبـدا، وواصـلت عملهـا كبلـشفية حقيقيـة، وذهبـت في أيـار ١٩١٧ إلى اللقـاء الـذي انعقـد اسـتعداد لمـؤتمر النـساء الروسيات الذي كان آنذاك تحت إشراف «رابطة المساواة»، من أجل حـثهنّ على التصويت لصالح المجلس الدستوري.

لقد أظهرت في كل مرّة أنها امرأة قيادية حازمـة، وهـاهي اليـوم في هـذا المؤتمر تؤكّد أمام الجميع أن المطالب البروليتارية لا علاقة لها تمامـا بالمطالـب البورجوازية، ولكيْ تُثْبِتَ صحّة ما قالته عن هذا الفرق القـاطع بـين مـاهو بروليتاري وبورجوازي، خرجت من قاعة الاجتماعات وتبعتها ستُّ نـساء عاملات. وفي حزيران، وحينها لأول مـرّة حـصلت النـساء عـلى حقّهـنّ في التصويت، تمّ تعينها كعـضوة في مجلـس الـدّوما، وبعـد ذلـك كمندوبـة في المؤتمر السادس للحزب.

وعلى الرغم من أهمّية هذه المناصب والانتصارات التي حققتها إينيسّا في عملها السياسي، فإن صورتها تبقى في خضمّ ما يحدث داخـل البلـد في هـذه الفترة الحرجة من التاريخ ضبابية ومحاطة بالغموض، وذلك لأسباب عـدّة

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أهمّها هذا التمرّد العنيف الذي عمّ كل ركن من روسيا، وظهرت معه كلّ التناقضات داخل وخارج الحزب، زيادة على الصراعات التي أصبحت تنشب في الشوارع، والفوضى والعدوان الممارس على الجميع، والكره المنتشر بين الناس، والحقد السياسي المشتعل في كلّ مكان.

مع ثورة شباط ولدت حكومة جديدة مكونة من الحزب الديمقراطي الدستوري، والمناشفة ثم الاشتراكيين الثوريين، وهي الحكومة التي من المفترض أن تساعد على تنفيذ عملية الانتقال من نظام القيصر إلى نظام دستوري جديد، لكن البلاشفة كانت لهم وجهة نظر أخرى، فقد حان بالنسبة لهم الوقت من أجل الاستلاء على السلطة، أو كما كانوا يفضلون القول: إعطاء السلطة إلى السوفييت. وكلّ هذا كان أمرا مفاجئا للجميع، لذا، استُقبِلَ بالمظاهرات والصراعات والعنف الشديد. وإينيسّا لا يمكنها أبدا أن تشارك في كلّ هذه الأحداث الدّامية، ولا أن تكون بطلة لمشاهدها العنيفة. فليست هذه أبدا طريقتها في العمل، وهي كما يعلم الجميع قد كرست كل مجهوداتها من أجل قضايا النساء العاملات، والتي هي في عرف البلاشفة أمور ثانوية بالمقارنة مع قرار قلب حكومة كيرينسكي المؤقتة. وإينيسّا بالنسبة لهم ليست هي زعيم الشعب الذي يحتاجه الحزب في الوقت الذي تحترق فيه روسيا برُمّتها.

أثناء فترة الصراع السياسي وعنف الشوارع تغيرت حياة إينيسّا من جديد، وأصبحت تعيش بين موسكو حيث عملها السياسي، وبوشكينو حيث تسكن عائلتها، وأبناؤها الذين باتوا في أمسّ الحاجة إليها ولا سيما الصغير أندريه الذي يُعْتَقَدُ أنه أصيب بالسلّ، أمّا فارفارا فهي تدرس الفنّ والنّحت، وإينّا تعمل مع مجموعة من شباب الحزب، أمّا أليكساندر الابن

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأكبر وأخوه فيدور فقد تجنّدا معا في الجيش الأحمر. في حين بدأ زوجها السّابق يعمل كـ«خبير بورجوازي» في إحدى معامل النسيج بأليشينو، التي تبعد ببضعة كيلوميترات عن إيلديجينو.

في بوشكينو، وصلها خبر فرار لينين إلى فنلندا من أجل تفادي أن يعتقل بتهمة الخيانة، وعندئذ أصبح عندها اليقين بأنها هذه المرة لا يمكنها أن تفعل من أجله أيّ شيء. إنها تعرف أنه اختار مغادرة روسيا لأنّ حياته باتت في خطر، وتعرف أيضا أن الأخطر من كل هذا التفكير في ترك كلّ شيء واللحاق به في سان بطرسبورغ أو فنلندا. لذا، فإن كلّ ما عليها أن تفعله الآن، هو الانتظار إلى أن تمرّ هذه الفترة التي كان يتقرر فيها مصير الثورة التي منحاها معا حياتهما وكل المجهودات والتضحيات الكبيرة.

في تلك الأسابيع، هبّت رياح التغيير على كلّ البلاد بشكل قويّ وعنيف، وفي الثالث والرابع من تمّوز، خرج إلى الشوارع الآلاف من المتظاهرين من أجل تأكيد سلطة السوفييت، وتعرضوا إلى قمع الجيش بكلّ قسوة ووحشية.

وفي أيلول حصل البلاشفة على تصويت أغلبية السوفييت بموسكو وسان بطرسبورغ، وكذا على دعم القاعدة العسكرية في كرونشتادت. وفي تشرين الأول، عاد لينين إلى روسيا، وبعد ثلاثة أيام أعلنت اللجنة المركزية استعدادها إلى التمرّد المسلّح. وبين ٢٥ و٢٦ تشرين الأول، قام الجنود في سان بطرسبورغ والبحّارة وكذا العمّال بالاستيلاء على قصر الشتاء، كما تمّ اعتقال أعضاء الحكومة المؤقّتة. واستولى مؤتمر السوفييت على السلطة، وأعلن عن تشكيل المجلس الأول لممثلي الشعب برئاسة

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

زعيم البلاشفة. وبعد ستّة أيام من المعارك الدّامية، انتصرت الثورة في موسكو أيضا.

وفي آذار ١٩١٨، غادر لينين سان بطرسبورغ، وانتقل إلى العاصمة الجديدة. وعلى الرغم من معارضة معظم أعضاء الحزب والشروط المفروضة، إلا أنه وقّع معاهدة السلام مع الألمان.

وبعد سنة كاملة من البعد والغياب، أصبح لينين وإينيسّا يعيشان في نفس المدينة. والثورة التي فرّقتهما سابقا، عادت لتجمعهما من جديد.

(٢٦)

محاولة اغتيال

«اتصلوا بإينيسّا، قولوا لها أن تأتي فورا!»، طلب لينين بنبرة حازمة وصوت منهك وضعيف. إنه الآن موجود بغرفته في الكرملين، وقد اخترقت الرصاصتان حنجرته ورئتيه. وقال الأطباء إن هذه الإصابة خطيرة جدا وكادت تودي بحياته، وهو بحاجة إلى عناية مشددة، وفترة طويلة من النقاهة، وعليه أن يبقى بعيدا عن الجميع على الأقل لمدة أسبوع كامل. وزيادة في الحذر والاحتياط فإنه لن يُسمح لأحد أبدا بالاقتراب منه. نعم، إنه سيفعل كل ما أمر به الأطبّاء، لكنه قبل هذا وذاك يريد أن تكون إينيسّا قريبة منه.

وقعت محاولة الاغتيال أثناء اختتام أعمال اجتماع عمّال ميكلسن بلانت، وهو الاجتماع الذي سبق وأن حذرت لينين من المشاركة فيه أخته ماريا التي تعيش معه في نفس الشقة التي منحها الكرملين إلى عائلة أوليانوف. قالت له إنه قد سبق وأن اغتيل رئيس الشيكا في سان بطرسبورغ، ومن الأفضل ألا يحضر في فعاليات هذا الاجتماع أو يذهب إلى المكان برمته بدون حراسة شخصية، لكن لينين لم يأخذ كلماتها على محمل الجدّ، لأنه كان يعتقد أنه عليه في هذه المرحلة بالذات أن يسعى إلى لقاء أكبر عدد ممكن من العمّال والمناضلين من أجل أن يمحو ذلك الانطباع السّيء، والشكّ الذي أصبح يضمره العديد من المواطنين تجاه الرئيس الذي عاد لتوه على متن قطار العدو وقد وقع معاهدة سلام معه، وقبل ذلك فرّ إلى فنلندا خلال الثورة من أجل تفادي المحاكمة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم تكن تخوفات الشقيقة ماريا نابعة من فراغ، لأن ذاك الذي حذرتـه منـه هو الذي وقع بالفعل: فبعد أن إنتهى لينين من حواراته المفتوحة مع العمّال، غادر المكان متّجها إلى سيارته، وفي تلك اللحظات تبعته امرأة شـابّة اسـمها فاني كابلان وأطلقت عليه النّار، فـسقط لينـين عـلى الأرض وهـو يمـسك بكلتا يديه حنجرته وقد تلطّخ كل قميصه بالدّم. في تلك الأثناء كان كل من استمع وصفّق له أثناء الاجتماع، يخشى على الزعيم من الموت المحقّق. لكـن فلاديمير وقف بسرعة ويداه دائما فوق الجرح، ثم دخـل إلى الـسيارة وأشـار للسائق بالانطلاق.

كان السّائق يدعى ستيبان جيل، وهو من قرر لوحده في تلك اللحظـات الحرجة، أين يذهب بالزعيم، أيْ مباشرة إلى الكرملين، لأنه خشي إذا أخـذه إلى المستشفى أن تتمّ تصفيته هناك، فكثيرون هم أولئك الذين يريدونـه ميتـا في هذه الفترة.

وصلا معا إلى قصر الكرملين، وتمكّن لينين من صـعود الـدّرج لوحـده، واتجه بسرعة إلى غرفته وسريره، ووجد بانتظاره ماريا وناديا اللتـان حاولتـا أن تقدمان له الإسعافات الأولية دون الاستعانة بشخص آخر، لأنهـما كانتـا لا تثقان بأحد، ولم يأت الجرّاحون إلا في صباح اليوم الآخر.

هاهي إينسيّا قد أتت على جناح السّرعة. لقد علمت بالحادث، وحاولت ماأمكن أن تسيطر على مشاعرها وفضّلت الانتظـار إلى أن يـستدعيها أحـد من الكرملين، فلقد كانت تعرف جيّـدا القواعـد التـي كانـت تحكـم حيـاة الزعيم السوفييتي في تلك الفترة الحرجة من حياته، والتي أصبح لا يُـسمح فيها لأحد بالاقتراب منه وإن كان الأمر يتعلق بإينيسّا.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جاءت ومعها ابنتها فارفـارا، ودخلـت مبـاشرة إلى غرفـة نومـه، وهـي نفسها الغرفة التي تمّ نقلها فيما بعد مع بـاقي أجـزاء المنـزل إلى مقـرّ مجلـس شيوخ الكرملين في بيت خشبيّ متواضع، يوجد على بعـد ثلاثـين كيلـومترا من موسكو بالقرب من غوركي لينينسكي. في البيت نفسه توجد غرفتا نوم ناديا وماريا، مع صالون يحوي آلة بيانو للعزف، إضافة إلى مطـبخ بفنـاجين مكسّرة الجوانـب، وقـدور ملحومـة ومرقعـة، وأشـياء أخـرى لا تتجـاوز الضروريات الأساسية التي عادة ما يتطلّبها أيّ مطبخ.

غرفة لينين صغيرة جدّا، والسّرير لوحده يملأ كلّ المكـان، وهـو مـصنوع من الحديد المطاوع، ويغطيه غطاء مزخرف بأشكال هندسية مربعة وإلى جانبه توجد خزانة خشبية صغيرة وأريكة صغيرة. وحينما دخلـت إينيـسّا، وجـدت في انتظارها ماريـا والأطبـاء ثـم ناديـا، ولأنهـم شـعروا بـأن الغرفـة الـضيقة أصبحت لا تسعهم جميعا انسحبوا تاركينها مع لينين وناديا وابنتها فارفارا.

في الدقائق الأولى من لقائهما، شعر لينين وإينيسّا بالقلق والحرج أمام كلّ ذلك الزخم من المشاعر المضطربة في قلبيهما والمختلطة بـين الخـوف والحـبّ والشّوق والرجاء والترقب، لدرجة أنهما لم يتمكّنا مـن تبـادل كلمـة واحـدة ذات معنى في حضور ناديا وفارفارا، عدا تلك العبارات التي عادة مـا تقـال في لحظات المواساة وعيادة المريض. لكن ناديا شعرت بما هما فيه من إحراج، ولأنها تعرف جيدا ما الذي يريده لينين، وهي التـي اعتـادت عـلى مـسايرته وتلبية رغباته التي كثيرا ما كانت تتسبّب في جرح مشاعرها الدفينـة، قامـت من مكانها وخرجت من الغرفة طالبة من فارفارا أن تتبعها بحجة أنهـا تريـد أن تطلعها على بعض الصور العائلية.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بقي فلاديمير إيليتش وإينيسّا لوحدهما، ويداهما اللتان تصافحتا بشكل رسميّ قبل خروج ناديا، عادتا الآن تبحثان عن بعضهما البعض من أجل لحظات أكثر حميمية ومحبة، فهذه الحادثة الخطيرة التي كاد لينين أن يفقد فيها حياته أشعلت من جديد جذوة الحبّ بينهما بعد أن كان لينين يعتقد أنه قد استطاع وإلى الأبد أن يخمد نار عشقه بالانفصال عن حبيبته بدعوى أنّ القضية وما فيها من التزامات صارمة هي أهمّ بكثير من القلب ومشاعره.

وقريبا من شقة لينين في الطرف الآخر بالكرملين كانت الشيكا تستجوب فاني كابلان، المرأة التي أطلقت النار على الزعيم البلشفي، وعلمت منها أنها كانت من المحكومين عليهم بالأشغال الشاقة لبضعة سنوات أثناء حكم القيصر، ثمّ بعد ذلك أصبحت ثورية اشتراكية وقد قامت بمحاولة اغتيال فلاديمير إيليتش لوحدها ودون دعم من أحد، وهي تعتبره خائنا لأنه في رأيها «كلّما ظلّ على قيد الحياة ابتعد أكثر عن فكرة الاشتراكية الحقة».

وبينما كانت إينيسّا تبعث الرّوح في قصة حبّها مع لينين، كان القائد في الكرملين بافل مالكوف يواصل استنطاق تلك المرأة، وبدون التقصي وراء الأجوبة أو إحالتها على المحاكمة قام بتصفيتها بشكل نهائي، وحتى لا يشعر أحد بواقعة التصفية من سكان قصر الكرملين، أشعل محرك السيارة داخل المرأب الذي تمّ فيه الاستجواب، ثم أنهى كلّ شيء مخفيا جثتها إلى الأبد.

عن هذه المرأة، لم يعرف أحد شيئا بعد الحادث. من كانت حقّا بغضّ النّظر عمّا صرّحت به؟ وهل قامت فعلا لوحدها بتنفيذ تلك الجريمة؟ أم

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هل أرسلها أحد من الاشتراكيين الثوريين؟ أو هل نظم محاولة الاغتيال هذه رجال أو منظمات مقرّبة جدا من زعيم الكرملين؟!

شيء واحد أصبح واضحا في ذاك اليوم: لينين يريد من إينيسّا أن تبقى إلى جانبه لأطول وقت ممكن، وطلب بأن تعطاها شقّة تكون قريبة من الكرملين؛ شقة حمراء صغيرة بشارع موكوفايا. وطلب أيضا أن يخصّصوا لها خطّا هاتفيا مباشرا يصلها به دون حاجة لأن تمرّ الاتصالات من مركز توزيع المكالمات.

عادت إينيسّا تشعر من جديد بالاطمئنان بالقرب من الرّجل الأكثر أهمّية في حياتها، لأنها هكذا ستتمكّن من فتح حوار مستمرّ معه دونما أن يعتبرها أحدهم امرأة المهامّ اللينينية فقط، فهي اليوم أصبحت تتمتع باستقلال سياسي ذاتي، مع قدرتها على الموازنة بين عملها السياسي واهتمامها بعلاقاتها الأسرية.

هما الآن لا يوحّدهما فقط العمل اليومي كما كانا سابقا خلال أيام المنفى، أي في تلك الفترة التي لم يُجِدْ فيها لينين فهم مثابرة إينيسّا وإخلاصها وتفانيها في العمل. إنهما الآن وأكثر من أيّ وقت مضى يشعران بأنّ ما يوحّدهما حقيقة هو الانسجام والتناغم في الأفكار، وقبل هذا وذاك هذه المشاعر الجديدة والمميّزة التي أصبحت تربط قلبيهما بكلّ محبّة وتفان وإخلاص.

بعد تشرين أول الأحمر، أصبحت إينيسّا تشعر بحاجة ماسة إلى الاستقلال سياسيا حتى عن بعض مواقف لينين، لذا انضمّت إلى ما كان يسمّى بـ «اليسار الشيوعي» وباتت تقاسمهم الكثير من أفكارهم، لا سيما وأنها كانت قد سبق لها أن تعرّفت في سويسرا إلى الرّفيق بوكران، والذي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان مثل بقية رفاق اليسار ينتمي إلى مجموعة البوجي، ومثلهم عارضت إينيسّا اتفاقية بريست ليتوفسك التي وقّعها الزّعيم السوفييتي مع الألمان، وكانت تراها نوعا من الاستسلام للرأسمالية.

وفي ظلّ الأممية، أصبح لدى إينيسّا اليقين بأنّ الحركة العمّالية لن يكون لها وطن، وأن تلك الحروب التي يتطاحن فيها العمال بين بعضهم البعض لن تكون أبدا حروبا عادلة، ولربّما سيكون من الأفضل انتهاز فرصة إشعال الحروب في البلدان الغربية من أجل الوصول بالثورة العمّالية إلى كلّ مكان وتحويلها إلى ثورة عالمية من أجل خير روسيا نفسها ومصلحتها الأساس.

لم تكن الرفيقة أرماند موافقة حتّى على الإجراءات الاقتصادية التي اتخذتها الحكومة السوفيتية الجديدة من أجل مواجهة الأزمة الإنتاجية التي يمرّ بها البلد، في حين تراجع لينين في تلك الأشهر عن بعض القرارات التي كان يعتبرها مهمّة في إنشاء الدولة الاشتراكية مُعوّضا المراقبة العمّالية بمدراء الأعمال العموميين مع تقليص العمليات القومية المتوقعة. وأمام مقاومة الجيش الأبيض وإعادته لنظام المراتب، فإنّ إينيسّا كانت تعتبر ما قام به لينين أمرا مناقضا تماما لمبادئ الثورة.

لم تكن الأشياء التي اختلف عليها لينين وإينيسّا لسنوات عدّة بالهيّنة أبدا، إلا أنها وبعد هذا التواصل العاطفي بينهما، لم تعد كما كانت في الماضي السبب الرئيس في نشوب الخلافات بينهما، ولا تستطيع بعد اليوم إبعادهما عن بعضهما البعض.

وعلى الرغم من أن لينين غالبا ما يتعامل بقسوة شديدة مع من يعارضه أو ينتقد مواقفه السياسية، إلا أنه لم يقم بالشيء ذاته مع إينيسّا، بل كثيرا ما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان يتحمّل معارضتها له،وإن كان يعلم أن هذا الموقف يثير حساسية العديد ممن حوله من أعضاء الحزب، ولكنه إذا كان هذا هو تصرفه مع إينيسّا، فالسبب في ذلك واحد لا غير: هو يعرف جيدا أنها مهما اختلفت معه أو عارضت آراءه فلا يمكنها أبدا أن تؤذيه، وهو محقّ تماما في هذه النقطة، لأنهُ عُرف حقّا وفعلا أن الرفيقة أرماند كانت تقف في وجه أيّ أحد من اليسار الشيوعي، يقترح بشكل أو بآخر القطيعة مع الحزب.

أما عن درجة توطد العلاقة بين لينين وإينيسّا، فيُمكن استنباطها بشكل أكثر عمقا وصدقا،من تصرفات ناديا كروبسكايا، التي لم تعد من جديد تطيق هذا التقارب والتلاحم بين الاثنين لأن الأمر يجرحها في أعماق النفس والروح، ولولا ذلك لما قررت فجأة الابتعاد عن الكرملين في الوقت الذي كان لينين في أمسّ الحاجة إليها، أيْ في فترة النقاهة بعد محاولة الاغتيال تلك، ولم تتبعه حتى حينما انتقل للعيش في فيلا غوركي التي تبعد عن موسكو بثلاثين كيلومترا، كما صرّح بذلك المؤرخ لينين روبرت سيرفيس في مذكراته عن زعيم البلاشفة.

عاد فلاديمير إيليتش إلى العمل في الكرملين بعد أن شفي تماما، لكن ناديا لم تعد معه، وفضّلت الذهاب إلى العيش في سكولنيكي بارك بشمال غرب العاصمة، في غرفة صغيرة بالمدرسة التي كانت تعمل بها. لقد تعبت ناديا، وابتعدت في صمت، لأنها أصبحت مقتنعة بشكل لا شك فيه بأن لينين مازال مرتبطا عاطفيا وعشقيا بإينيسّا، ولا أحد بعد ذلك الحادث يستطيع الاقتراب منه، مالم يطلب هو بنفسه ذلك، وهذا يذكّرها بسنوات المنفى حينما كانت هي من يحمل على عاتقها كل شيء بما في ذلك تصدّيها

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لمهمة إبعاد كل الضيوف غير المرغوب فيهم إلى أن أصبح الحزب ذا شأن خطير، وأصبح زوجها لينين رئيس الدولة السوفيتية الجديدة، أمّا اليوم فإنّ إينيسّا هي من توجد بقربه وقد وضع رهن إشارتها بيتا قريبا جدّا من الكرملين يخوّل لها أن تذهب إلى مكتب لينين في أسرع وقت ممكن. وكل هذا كان لينين من طلب تنفيذه دون أن يشرح لأحد سبب تمسكه بأن يكون لإينيسّا ذاك البيت القريب جدّا من مقرّ عمله. لكن هذا لم يمنع الزعيم من أن يحاول قدر الإمكان الإمساك بالعصا من الوسط، فهو على الرغم من كل شيء متشبّث بزوجته، ولا يريد أن تنشب بينهما خلافات أكثر من هذه، ولا أن تكون بينهما ضغوطات عائلية هما في غنى عنها، لذلك كان يذهب لزيارتها كلّ يوم بعد أن يكون قد أنهى عمله. لكن ناديا على الرغم من ذلك غير سعيدة بالأمر، فهي تعلم جيدا أنه قبل أن يأتي عندها، فإنه يكون قد رأى خلال اليوم إينيسا، أو على الأقل أمطرها برسائله القصيرة التي لا يكف عن إرسالها وإن كان بيتها قريبا جدا من الكرملين.

ما من أمل، فناديا تعرف جيدا أنها زوجة الزعيم، نعم، لكن هذا لا يعني أيّ شيء بالنسبة لها، طالما أنّ إينيسا لم ولن تخرج من حياة زوجها أبدا، وأنه في الوقت الذي يعلو فيه نجم هذه المرأة في العمل، وتتوطّد علاقتها كل يوم أكثر فأكثر بلينين، فإنه لم يبق أمام ناديا سوى الانسحاب في صمت، مع الحفاظ على دورها كصديقة لإينيسّا، وزوجة للينين، أي الزوجة التي لم يعترف التاريخ بامرأة غيرها في حياة زعيم البلاشفة، متعمّدا نسيان إينيسّا وإخفاء أيّ أثر يوحي بعلاقتها العاطفية مع لينين.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(٢٧)
في مؤتمر قمّة المرأة العالمي

حطّت الحربُ أوزارها، وبقي في فرنسا ٤٥.٠٠٠ جنديّ روسيّ تُنتظرُ عودتهم إلى الوطن بعد أن كان قد أرسلهم القيصر للمحاربة إلى جانب حليفته فرنسا. لكن هذه الأخيرة لا تعترف بالدولة السوفيتية الجديدة، ولا تريد بالتالي إعادة الجنود إلى روسيا.

وسط هؤلاء الجنود هناك العديد من البلاشفة، وكلهم يريدون الانضمام إلى الجيش الأحمر، وتفادي الانخراط في الجيش المعادي للثورة عند العودة إلى الوطن. وإينيسّا تجد كلّ هذا أمرا خطيرا وحسّاسا، ويجب التدخل بطريقة أكثر ذكاء وديبلوماسية، لذا، تمّ إرسال وفد يمثّلُ الصّليب الأحمر، وإينيسا كانت من أهمّ أعضائه، والكلّ يعرف سواء من السوفييت أو الفرنسيين أن هذه المهمة وإن كانت ذات طابع إنساني، فإن أهدافها الأساسية هي سياسية بامتياز.

السوفيتيون لا يريدون فقط مراقبة عودة الجنود، وإنما الاتصال مباشرة بالقسم الأشدّ راديكالية في الحزب الاشتراكي الفرنسي، أيْ بمعنى آخر محاولة كسر تلك العزلة التي كانت تعيشها روسيا وإعطاء صورة جديدة وإيجابية عن روسيا الثورة لدى البلد الذي كان لوقت قريب حليفا للقيصر.

في البداية لم تقبل إينيسّا بهذه المهمّة بشكل تلقائي، فهي تعاني جدّا من كونها غالبا ما تضطر إلى التخلّي عن أبنائها من أجل التزامات العمل، وهي

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الآن قلقة للغاية حتّى على فلاديمير إيليتش، فهي لا تحبّ أن تسافر وتتركه وقد أصبح شديد العصبية ووحيدا ومحاطا برجال لا يمكن الوثوق بهم أبدا، إضافة إلى آلام رأسه المبرحة، وكذا حالته الصحيّة بشكل عام والتي باتت هي الأخرى تتدهور كل يوم أكثر فأكثر.

كانت تريدُ أن تبوح لهُ بأشياء كثيرة، لكنها لا يمكنها ذلك نظرا لضيق الوقت وقساوة الظروف المحيطة بها، لذا فكّرت في أنّ الحلّ الأمثل هو أن تكتب له رسالة وبدل أن تبعثها له فورا تفاديا لأن تقع في يد أحدهم، فإنها ستتركها عند ابنتها المفضّلة إينّا ناصحة إيّاها بما يلي: «بعد ساعات قليلة سوف نغادر وطننا الاشتراكي الغالي، وأشعر الآن بالعديد من الأحاسيس المتضاربة بشأن هذا السفر الذي أريد القيام به وفي الوقت نفسه أرفضه لأنه سيبعدني عنكم أحبّائي. أرفق مع هذه الكلمات ثلاث أظرفة بريدية، واحد منها لساشا، والثاني لفاديا، والثالث لإليتش. احتفظي بالسرّ. لا تتحدّثي لأحد أبدا بشأنه. أرسلي بسرعة الظرفين الأول والثاني، أما الثالث فاحتفظي به جيدا في مكان آمن، وحينما سأعود فإني سأمزّقه. أمّا في حالة إذا ماحدث لي شيء ما (ولا أعتقد أنه من الممكن أن يداهمني خطر ما هناك، وإنما هي الحياة فقط التي تعلمنا أن نكون على حذر دائما ونتخذ الاحتياطات اللازمة) سلّمي الرسالة إلى ف. إ مباشرة ولا لأحد غيره. افعلي جيّدا ما أقوله لكِ: اذهبي إلى مقرّ جريدة البرافدا واسألي عن ماريا إيليشينا وقولي لها بوضوح إنها منّي موجهة إلى ف. إ. وفي حالة ما لم يحدث لي أيّ شيء فإني أوصيك بالحفاظ عليها جيّدا، يا ابنتي الغالية التي أحبّها ليس كابنة فقط وإنما كصديقتي المفضلة والمقربة لدي. إلى اللقاء عزيزتي، لا أظن أنني سأبقى

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هناك لأكثر من شهرين. أحَبّيكِ بعمق. والدتُكِ. رسالة ف. إ توجد في الظرف المغلق».

عادت إينيسّا من رحلتها الطويلة إلى روسيا ومزقت الرسالة، ولا أحد لليوم يعرف ما كانت تحويه. فهل مثلا كانت تتحدّث فيها عن حبّها للينين؟ أم هل كان الأمر يتعلّق بوصية روحية؟ أم ربّما كانت توصيه بأبنائها في حالة ما إذا حدث لها شيء خطير أثناء ذلك السفر؟ لا أحد يعرف شيئا وكل ما نعلمه بشكل يقينيّ أنّ ذاك الوفد الذي كان يرأسه دميتري مانويلسكي؛ - الرجل الذي أصبح فيما بعد سكرتيرا في الأممية الشيوعية أي ابتداء من سنة ١٩٢٦ إلى سنة التفكك الكامل-، لم يحقق شيئا من أهدافه وتُوّجت المهمة بفشل ذريع، فلقد وقع الجنود الروسيون الذين وصلوا إلى دونكيرك الفرنسية في الأسْرِ داخل إحدى الفيلات بمنطقة مالو ليبا، وصودرت كل الأموال التي كان من المفترض أن يعودوا بها إلى الوطن. أمّا إينيسّا، فبقيت هي الأخرى محبوسة لثلاثة أشهر، وباءت بالفشل كل محاولاتها في الوصول إلى باريس. وعليه تمّ إرسال كل الجنود إلى روسيا عبر أوديسّا من أجل ضمان انضمامهم السريع إلى الجيش الأبيض، ولم يستطع أحد أن يعلن عن ذلك.

بعد العودة كانت إينيسّا تشعر بتعب شديد تحوّل إلى إحساس قويّ بالمرارة والحسرة. وهاهي الآن بعد ثلاثة أشهر من الغياب تنظر إلى روسياها بأعين مختلفة وأكثر قدرة على تمييز وفهم العديد من الأشياء؛ إنها تنظر إلى حياة هذا البلد الكبير الذي كان من المفترض أن تكون الثورة قد غيّرته بشكل جذريّ، وتعيد التفكير أيضا في كل ما سهر على تحقيقه العديد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من الناس، وفي ذاك الذي وعدهم به لينين من أهداف بسيطة ومباشرة ومهمّة في الوقت ذاته: الخبز والأرض والسلام! تنظر من حولها وتُقيّمُ الأمور وترى أن ما يسيطر الآن في بلدها الجديد هو الجوع، إنه في المدن كما في القرى. عندئذ استوعبت جيّداً بأن الوضعية في سنة ١٩١٩، أيْ سنتان بعد الثورة أصبحت أكثر سوءا مما كانت عليه قبل اندلاع الحرب، واكتشفت بعد ذلك أن المؤونات والمواد الغذائية لا تصل إلى القرى، وأن هذه المجاعة الطّاغية أصبحت تسبّبُ الكثير من المشاكل في مجال النقل والمواصلات. وليس هذا فحسب، لقد اضطرّ البلد أيضا إلى التخلي عن أوكرانيا؛ أكثر مدنه ثراء وخصوبة وإنتاجا للقمح والسكّر والحديد بموجب معاهدة بريست ليتوفسك للسلام، إضافة إلى مشكل البطالة التي أصبحت متفشّية بشكل مريع بعد عودة الجنود من الجبهة. ولا يمكن بعد كل هذا الادعاء بأن روسيا أصبحت تعيش في سلام، لأن العكس هو الحاصل، وهي التي تعاني أكثر من أيّ وقت مضى من حروب داخلية طاحنة، فهناك الجيش الأبيض، وكذا الحركات المناهضة للثورة، وكلهم يقاتلون الجيش الأحمر بدون هوادة. ولا ننسى أيضا تمرّد القوقازيين في البلاد، وانتفاضات الفلاحين الذين يرفضون أن تصادر منتوجاتهم، وهي الانتفاضات والثورات التي كانت غالبا ما تقمع بالعنف والدّم. وحتّى العمّال الذين كان من المفترض أن يُديروا المعامل ويسهروا على الإنتاج الجيّد أصبحوا بدون سلطة ولا قدرة على فعل أيّ شيء. وإلى جانب هذا كلّه، لم يفت إينيسّا أن تلاحظ أيضا تزايد عدد الإعدامات السّريعة، زيادة عن السجون الممتلئة عن آخرها بالمعتقلين الثوريين، في حين ظلّت

الأحزاب، كلّ الأحزاب الخاصّة بالمناشفة والثوريين الاشتراكيين، تعارضُ باستمرار اختيارات البلاشفة.

لقد كانت عودتها من فرنسا هي اللحظة التاريخية في حياتها التي ساعدتها على التأكّد ممّا كانت في البداية تعتبره مجرد تخمينات وشكوك مبالغ فيها؛ فلقد كانت الحكومة السوفيتية المركزية من أجل إثبات وجودها وسلطتها تستخدم الفرق العسكرية السرّية من أجل تنفيذ الإعدامات الجماعية ضدّ كل من يعارضها، بل كانت تلجأ أيضا إلى سياسة التخريب والتدمير والمضاربات المالية، فهكذا كان عمل الشيكا بكل تمظهراته وتجلياته القاسية والمرعبة، والذي كان لا يعارضه لينين، لأنه كان يعتبره عملا لا بدّ منه، وإن كان على ذاك النحو المريع. وكم مرّة سمعته إينيسّا يكرر هذا القول، حتى عندما كانت تناقشه في شكوكها بأسلوب حذر، لأنها باتت تعرف جيّدا حجم المرارة والخسارة التي منيت بها كل أهداف الثورة وهي تسلك هذا الطريق الذي لا شيء فيه سوى الدّم والجثث المتساقطة في كل شبر من روسيا.

هل كانت إينيسّا توافق على كلّ ما حدث في روسيا السوفيتية بعد سنة ١٩١٧؟ هل كانت مع ما اتخذه الزعيم البلشفي من سياسات قاسية وظالمة؟ من يعرف قصّتها سيقول بدون شكّ، إنها لم تكن موافقة على أيّ شيء من هذا الظلم والعدوان، إلا أنه لا يمكننا أن نقول في الوقت ذاته إنها انسحبت بشكل علنيّ من عملها لأجل القضية، لأنها لم تقم أبدا بهذا الأمر وقررت على العكس من ذلك الاستمرار في عملها بشكل تختنق أمامه كلّ علامات الاستفهام والأجوبة.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بعد عودتها من فرنسا، أصبحت رئيسة الزينوتديل، وهو منصب على قدر عال من الأهمية، وهو التعيين الذي يعتبره المؤرّخون من أكثر القرارات جرأة في تاريخ تحرير المرأة، فالمنصب له صفة تشريعية تسمح لإينيسّا باتخاذ القرارات وإصدار القوانين، وهو ما دفع المسؤولين في الحزب إلى إدراجها أيضا في لائحة المجموعة الإدراية التي ستنظم مؤتمر القمّة البلشفي في الفترة القليلة المقبلة. لقد أصبحت إينيسّا «المرأة الأكثر نفوذا في روسيا»، بشهادة العديد من المؤرخين.

وأمام هذا المنصب الجديد، تخلت إينيسّا عن كل نشاطاتها السابقة وركزت جهودها في قضايا المرأة، لا سيما وأنها كانت تعلم أنه عليها أن تقوم بكلّ شيء لوحدها، لأن عدد النساء البلشفيات اللائي يعملن داخل الزينوتديل قليل جدا، والباقيات من نساء الحزب معظمهن يعتبرن أن العمل من أجل تحرير المرأة أمر يقلل من قيمتهن الاجتماعية ودورهن السياسي.

على غير المرّة السّابقة، كان لينين يدعم مشروع إينيسّا من كلّ الجوانب، لأنه على ما يبدو قد اقتنع أخيرا بآرائها، وإلّا لما أصبح يهتمّ بوضعية المواطنات السوفيتيات معترفا بمدى أهمية دور المرأة في العمل السياسي البلشفي.

في روسيا بعد انتفاضات شباط، تمّ اعتماد بعض القرارات الجديدة كمثلا: الاعتراف بمشروعية الزواج المدني، ضمان حق المرأة في الاحتفاظ بلقبها العائلي بعد الزواج، ثم منح الأبناء المولودين خارج إطار مؤسسة الزواج كافّة حقوقهم مثلهم في هذا مثل بقية الأبناء الشرعيين.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إنها بدون شكّ مكاسب في غاية الأهمّية، لكنها ليست بالكافية أبدا للنساء المزارعات والعاملات اللائي بات همّهنّ الرئيس البحث عن العمل، وضمان القوت اليومي من أجل البقاء على قيد الحياة.

بعد ثورة تشرين الأول ركّز البلاشفة اهتمامهم على القضايا الأكثر حساسية، أيْ تلك التي لها علاقة بالسياسة المركزية والاقتصاد والحرب ضدّ الجيش الأبيض، والاهتمام بالوضعية داخل القرى، مع الحرص على تنظيم الدولة الجديدة، مما يعني أن قضية المرأة كانت آخر ما يمكن التفكير فيه آنذاك، لا سيما وأن معظم القياديين كانوا يعتقدون أن كثرة النساء داخل الحزب من الممكن جدّا أن تؤدّي إلى إضعافه وتشتيته بين القضايا النسوية والانفصالية، ولعلّ هذا ما يفسّرُ كون الاهتمام حقا بقضية المرأة بشكل عام، لم يظهر إلا سنة ١٩١٨، فالبلاشفة يمكنهم جدّا تجاهل النساء لكنهم لا يمكنهم الاستغناء عنهن أبدا حينما يتعلّق الأمر بالموافقة على العديد من قراراتهم السياسية، خاصّة وأنهم بدأوا يلاحظون عدم اهتمامهن مؤخرا بالمشاركة السياسية لدرجة أنه في سنة ١٩١٧ كانت نسبة حضورهن لا تتعدّى ٢%، ومعظمهنّ كنّ من المثقفات. إضافة إلى هذا فعددهن ضئيل جدّا حتى في النقابات وفي لجان تسيير المعامل، دون أن ننسى أنه بعد معاهدة سلام بريست ليتوفسك، ومع عودة الجنود إلى بيوتهم تمّ تسريح العديد منهن من العمل، ممّا جعل إينيسّا تلاحظ هي الأخرى مدى حالة الضيق والعسر التي أصبحت تعيش فيها المواطنات الروسيات بشكل أثّر على حماسهن في الاهتمام بقضايا المرأة، فأهملن بالتالي كل نشاط سياسي لدرجة أنّ معظمهنّ رفضن المشاركة في المؤتمر الذي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نظمته إينيسا بأيار ١٩١٨، ولم تحضره سوى ١٣٠ امرأة، والشيء نفسه حدث في الندوة الأولى للمؤتمر والتي أقيمت في ضواحي موسكو ولم تحضر من النساء سوى ٥٦ امرأة، وفي كلتا الحالتين فإن هذا كان يعني بالنسبة لإينيسّا فشلا ذريعا دفعها إلى التفكير في تغيير خطتها وطريقتها في العمل بأسرع وقت ممكن.

وتبعا لتعليمات دقيقة من لينين تقدّم ياكوف سفيردلوف الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي من أجل مساعدة إينيسّا والوقوف إلى جانبها بهدف تنظيم مؤتمر القمة بشكل أكثر فعالية، دون نسيان الدعم المالي الذي استطاعت الحصول عليه ورفيقتها أليكساندرا كولونتاي من أجل أن ينجح هذا المؤتمر الذي كُلِّفتا بإقامته والسهر على تسييره على أكمل وجه.

وبالفعل تحقق حلم إينيسّا، ونجح المؤتمر نجاحا ساحقا، وحضرته ١١٤٧ امرأة في الوقت الذي كان يتوقع فيه حضور ٣٠٠ مندوبة فقط. لدرجة أن الأماكن باتت لا تسعهن وأطفالهَنّ، وأصبح الضجيج في كل ركن من الاجتماعات، وكثرت الفوضى وعمّت الحياة المؤتمر بأكمله.

وأمام كلّ هذا العدد طفا مشكل الأكل والنوم على ساحة الأحداث، فأين ستنام كل هؤلاء النساء وأطفالهن، وماذا سيأكلون والكل يعلم أنّ شتاء ١٩١٨ كانت فترة أزمة خانقة ولم يكن فيها أكل يكفي كل الشعب، وليس فقط نساء المؤتمر، لكن سفيردلوف تدخّل وحاول حلّ المشكل بشكل أو بآخر، وتمكن بالتالي من ضمان صحن عصيدة دقيق الشوفان لكل شخص، وقطعة خبز وكأس شاي.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بهذا المؤتمر انتعشت الحركة النسائية من جديد، ولأول مرّة حصلت المنظمة على مساعدة رسمية من الجهات العليا بشكل جعلتا إينيسّا وأليكساندرا كولونتاي تشعران بالفخر والرضا.

كانت لسعادة إينيسّا قيمة خاصة، فنجاحها كان يعني أنها ربحت معركتها الخاصة مع فلاديمير إيليتش، الذي كان هو الآخر حاضرا في هذا المؤتمر، وهو الحضور الذي لا يمكن تأويله إلا بما يلي: لقد أصبح يجمعه بإينيسّا التفاهم والانسجام والتضامن تجاه كلّ القضايا التي كانت تفرقهم إلى وقت قريب، ولا سيما تلك المتعلقة بمدى أهمية دور المرأة في المجتمع الاشتراكي، وأهمية السعي إلى ترسيخ ثقافة حريتها الجنسية والعائلية، وإن كان لينين متحفظا كثيرا على هذه النقطة الأخيرة، ولا يتوانى عن التعبير عن قلقه وحذره الشديد منها.

هذا بالنسبة للينين وموقفه من حرية المرأة الجنسية، أمّا إينيسّا فقد حاولت مؤقتا أن تركن هذه القضية جانبا والتي كانت لزمن قريب السبب الرئيس فيما حدث بينها وبين لينين من شرخ عميق، وهي اليوم تفضّل التغاضي عن كل شيء وتكرّس نفسها لتأسيس منظمة نسوية غير مستقلة يكون هدفها الأول العمل التّعبوي والإعلاني في صفوف العاملات والمدعوم هذه المرة وبشكل كامل من طرف الحزب، وهو الأمر الذي حدا بلينين أن يصبح أكثر هدوءا واطمئنانا، لأنه يعرف جيّدا أن المرأة التي عملت إلى جانبه لسنوات عدّة لن تتخذ أيّ قرار في عملها دون أن تخبره به، وتناقش معه تفاصيله الصغيرة في تلك الفترة المهمة من تاريخ البلاد.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ولأن الزينوتديل كان بالأساس عبارة عن وسيلة للدعاية وجذب أكبر عدد ممكن من الجماهير وإقناعها باعتناق الشيوعية، فإن هذا كان ربّما العامل الأول وراء انحساره وإغلاقه في وقت قصير جدّا، إضافة إلى العقلية الذكورية المتحجرة التي كان يتعامل بها تجاهه العديد من الرؤساء والمسؤولين في الحزب البلشفي. لكن هذا لن يمنع من القول إن أهداف الزينوتديل كانت على الرغم من كلّ شيء واضحة وثورية بكل ما في الكلمة من معنى، وتتمتع بنظرة تغييرية مستقبلية أكثر عمقا مما كان يحملها تجاهها الغير من ذوي التفكير السطحي آنذاك. فبغض النظر عن مناداته بذاك المطلب الطوباوي الذي يقضي بإلغاء عمل المرأة في البيت وتعويضه بالخدمات المدعمة من طرف الدولة، فإن الزينوتديل كان يضع تحت مجهر النقد والتحليل البنية البورجوازية لمؤسسة العائلة داخل المجتمع الروسي دون المساس بدور الرجل الأُسَرِيّ، وتمكّن بالتالي من كسر العديد من الثوابت الاجتماعية والعائلية.

في «الحركة النسوية السوفيتية»، تظهر بوضوح صورة المرأة الجديدة والتي تشبه كثيرا تلك التي قرأت عنها إينيسا في روايات سنوات الشباب، والتي تظهر اليوم بشكل أعمق في كتاباتها التي كان يوافقها عليها لينين بشكل مطلق، والتي تقول في إحداها ما يلي على صفحات جريدة «الشيوعية» الصادرة سنة ١٩١٩: «إذا لم يتمّ التخلّص من كافّة الأشكال التقليدية التي تقيّد العائلة الروسية وحياتها المنزلية وطريقتها في تربية الأجيال فإنه لا يمكن لأحد أن يعطي للوجود إنسانا جديدا، ولا يمكن بالتالي بناء المجتمع الاشتراكي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إنّ عمل المرأة المنزلي المفرغ من كل قيمة ومعنى، يدمّرها ويخنقها، ويشلّ قدرتها على التفكير، ويجعل منها كائنا بليدا مقيّدا في المطبخ، ولا شيء تعرف فعله سوى الاعتناء بالأطفال، وهذا يعني حرمانها الكامل من قدرتها على العمل الحقيقي بدون أدنى شفقة ولا رحمة».

ومن أجل مساعدة المرأة على الوصول إلى مدارج الحرية والتحرر، كان لا بدّ من إنشاء مراكز لرعاية الأطفال النهارية، وفتح محلّات عمومية لغسل وتنظيف الملابس، والسهر على إنشاء مطابخ ومطاعم عمومية أيضا، مع الحرص على جلب روح التغيير حتّى إلى داخل المنازل ودفئها المقدّس الذي كان لا يجرؤ أحد على المساس به، ليس في روسيا وحدها، وإنما في أوروبا كافّة.

وفي الوقت الذي حقّقت فيه إينيسّا ما كانت تصبو إليه بنجاح ساحق، بدأ جسدها يتغيّر بشكل كبير: لقد أصبحت نحيفة جدّا، ووجهها أصبح محفورا من جهة الخدين بشكل يثير القلق، وحتّى مظهرها الخارجي الذي كانت تحرص بشدّة على أناقته وجماله باتت لا تعتني به بتاتا، لدرجة أنها قصّت شعرها الجميل، وأصبحت ترتدي ملابس قديمة وبالية، وهي التي كانت تطلق على نفسها من باب الدعابة والمرح لقب المرأة «الخفيفة»! ومن يراقبها بشكل أكثر عمقا سيلاحظ بدون شكّ ما يلي: لم يعد الحماس والألق الروحي هما من يحرّكان إينيسّا ويدفعانها إلى العمل بشكل منتظم ومنقطع النظير، وإنّما باتت تتحرك بدافع من جرح دفين وإحساس مرير بالخيبة، وحتى لا تعترف به لأحد، فإنها حوّلته إلى طاقة تدميرية تحثّها على العمل المستمرّ بهدف القضاء على نفسها بنفسها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في تلك الشهور انطفأ شيء ما في روح إينيسّا، شيء لم تعد قادرة على إشعاله وإعادة الحياة له حتى بعد عودة فلاديمير إيليتش إليها من جديد. وفي سنة ١٩١٩ تغيّرت إينيسّا تماما، وأصبحت امرأة أخرى بالكاد تتذكّر كيف كانت منذ سنتين مضتا، أيْ حينما جاءت إلى سان بطرسبورغ على متن قطار ألمانيّ توقّف بها في محطّة فنلندا.

(٢٨)
مرض الرّوح

غابت إينيسّا عن الجميع، وقلقَ المقرّبون إليها من هذا الاختفاء المفاجئ، وخاصّة صديقتها الغالية على قلبها بولينا فينوغرادسكايا التي قررت أخيرا الذهاب إلى زيارتها في يوم شتوي جليدي من سنة ١٩١٩ طرقت باب البيت لمدة طويلة ولم يفتح لها أحد، وحينما كانت على وشك المغادرة معتقدة ألا أحد في المنزل، إذا بها تسمع وقع خطوات بطيئة جدّا خلف الباب؛ إنها إينيسا تحاول بكل ما فيها من قوة أن تصل إلى الباب لترى من الطّارق. وجهها شاحب جدا، وجسمها منهك القوى، لدرجة أنّ بولينا أصيبت بذعر شديد، وقبل أن تستفسر عن صحتها، سألتها عن أبنائها مستغربة كيف تركوها لوحدها وهي في هذه الحالة الصحية المريعة، وما كان من إينيسّا سوى أن أجابتها بشكل جافّ وقاطع: «إنهم يعملون، ولا يمكنهم أن يوقفوا حياتهم فقط لأني مريضة: هذا سبب واهٍ، ولا يستدعي كلّ هذا القلق».

دخلت بولينا، ووجدت البيت باردا جدّا كما هو واضح في مذكّراتها التي تقول فيها ما يلي: «كانت كلّ المدافئ معطّلة، والغبار منتشرا في كل مكان، وفوق كل قطعة من أثاث البيت، وحدها الكتب كانت نظيفة ومرتبة بعناية فوق رفوف المكتبات. لقد كان واضحا جدّا أن إينيسّا مصابة بنزلة برد حادّة، فهي تسعل باستمرار، ولا تتوقف عن النّفخ بفمها فوق

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يديها طلبا للدفء. كانت ترتدي معطفا منزليا قديما، وتحاول ألا تشكو من أيّ شيء، ولم تنس أن تسألني بصوت مبحوح عن أخبار الجبهة، وحينما أخبرتها بما حققناه من انتصار، شعرت بسعادة كبيرة. عندئذ قمتُ لأعدّ لها الشّاي لكنني لم أجد عود الثقاب، وساعتها أدركتُ أن ما من فائدة، ثم خرجتُ وتركتها وهي ترتعد من شدّة البرد».

الحياة صعبة جدّا في موسكو، وهذا أمر يمكن الاطلاع عليه في كتب التاريخ، وكذا في الحكايات التي توثق للأشهر والسنوات التي تلت الثورة مباشرة. لكن الأصعب في هذا كلّه أن تجد قصصا تروي عن الحياة القاسية التي كان يعيشها أيضا سكّان الكرملين، أي أولئك الذين أصبحوا بعد مضي بضع سنوات أعضاء من الطبقة البيروقراطية الحاكمة المتمتعة بالعديد من الامتيازات التي اختفت مباشرة بعد الثورة. وإذا كانت حياة المواطنين في عهد الجمهورية السوفيتية سيئة جدّا، فحياة الحكام لم تكن تختلف عنهم كثيرا، فلقد كان التقشف والجوع يطبعان أيامهم، مثلهم في هذا كغيرهم من بقية الشعب السوفيتي، ولا أدلّ على ذلك من المثال الذي تسوقه لنا أنجيلكا بالابانوف، وهي امرأة بلشفية قيادية، غادرت موسكو بعد سنة ١٩٢٠، وتطرقت في مؤلفاتها إلى منظمة الأمن القومي السوفيتي التي كانت تعرف آنذاك باسم الشيكا، وإلى عنف الجماعات الحاكمة والرّعب الأحمر، ممّا يعني أنها لن تُنَمّق أو تزوّق شيئا في كلامها ولن تحكي إلا ما رأته عيناها في ذلك اليوم حينما كانت حول مائدة الغداء ببيت لينين وزوجته ناديا أثناء الفترة التي تلت محاولة اغتيال رئيس الكرملين: «فوق الطاولة، حينما وُضعَ الخبز والجبن ثم قطعة صغيرة من اللّحم، أحبّ لينين

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أن يشرح بعض التفاصيل فقال: [السّكر من أوكرانيا، والخبز جلبه بعض الفلاحين من روسيا الوسطى، أمّا اللّحم فقد نصحني به الطبيب، ولا أدري من أين استقدموه. قال الأطباء إنه عليّ أن آكله وأنا في مرحلة النقاهة]. ختم كلامه هذا معتبرا أن ذاك اللحم فوق المائدة كان نوعا من الترف الذي لا فائدة منه ترجى».

وأمام ماروته بالابانوف عن طريقة عيش لينين المتقشفة، فإنه سيسهل تقبّل حتى تلك الحالة التي وجدت فيها بولينا صديقتها إينيسّا، أكثر النساء نفوذا وتأثيرا في روسيا الثورية، والتي أصبحت تقاسي البرد والأحزان في صمت، ولا تملك حتّى الخشب من أجل تدفئة بيتها. ولأنها لم تكن معتادة على هذا الحجم القاسي من التضحيات، فإنها مرضت، وأصابتها نزلة برد حادة.

لينين في مكتبه بالكرملين قلق عليها للغاية، فهو لم يرها منذ مدّة طويلة، ويتساءل في حيرة: لماذا لم تتصل بي هاتفيا؟ لماذا لا تخبرني أينها الآن؟ إنه لا يكفّ عن التفكير بها على الرغم من ثقل مشاكل البلد الملقاة على ظهره، بلد أتى عليه القحط والجفاف والحروب.

لقد اعتاد على سماع وقع خطواتها في الممرّ الذي يقود إلى منزله، وعلى سرعة طرقات يدها فوق باب المكتب. وهو الآن لا يعرف ما الذي عليه أن يفعله، إنه يريد الاتصال بها ولكن الهاتف لا يعمل. وحينما علم من صديقتها بولينا أنها مريضة كتب لها قائلا: «الهاتف لا يعمل، ولا أستطيع الاتصال بك، لقد عرفت أنك مريضة، سأبعث من يصلحه لك». لم يصله أيّ ردّ منها، إنها متعبة للغاية - يقول فلاديمير إيليتش في نفسه- لدرجة أنها

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لا تستطيع حتى الكتابة لي، أو ربّما لا تريد الحديث عن مرضها، لأنها لا تحبّ أن تظهر ضعيفة أمام الآخرين.

مرّ يومان آخران، ثم عاد للكتابة إليها: «ما بك؟ إنها أيّام مرعبة، في الخارج هناك منتشرة بين الناس حمّى التفوئيد، وكذا الإنفلونزا الإسبانية. كم هي درجة حرارتك؟ هل أنت بحاجة إلى أدوية؟ أرجوك قولي بصراحة. عليك أن تشفين، وتعودين إلى سابق نشاطك وحيويتك».

الرسائل والبطاقات مازالت تنهال على بيت إينيسّا من الكرملين، ولينين يتساءل فيها عمّا إذا ما استقدمت طبيبا لمعالجتها، وعمّا إذا كانت تتناول أدويتها بانتظام، موصيا إياها في الوقت ذاته بعدم الخروج من البيت، ومؤكّدا على ضرورة بقاء الأبناء معها ليخبروه بكل التفاصيل. إنه يحاول قدر الإمكان التدخل المباشر ولكن بدون فائدة فهي لا تريد الإفصاح عن مرضها، وتفضّل انتظار الشفاء في صمت وعزلة عن الجميع.

استنفد لينين كل الطرق مع إينيسّا، ولم يبق له سوى التواصل مباشرة مع أبنائها وطبيبها المعالج الذي أخبره بأنها مصابة بالتهاب رئوي حادّ ممّا دفعه للكتابة لها مرّة أخرى قائلا: «يجب عليك أن تكوني حذرة جدّا، يقول الطبيب إنّكِ مصابة بالتهاب رئوي. أوصي ابنتيْكِ بمكالمتي هاتفيا كلّ يوم. أخبريني بصراحة؛ هل أنت بحاجة لشيء ما؟ هل عندك الخشب من أجل التدفئة؟ من يتكلّف بإشعاله؟ هل أنت بحاجة إلى الأكل؟ من يطبخ لك؟ من يهتمّ بإعطائك الدّواء ضدّ الزكام؟ أنت لا تردين عليّ، وهذا ليس عدل منكِ؟ أرسلي لي ولو ورقة صغيرة. لينينُكِ. ملاحظة ختامية. هل أصلحوا عطل الهاتف؟».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

استفسر فلاديمير إيليتش حتّى عن رقم قدميْها، لأنه يريد أن يرسل لها الجراميق أو الكالوشات، فهو يخشى جدّا أن تكون حالتها الصحية قد تدهورت بشكل خطير، لا سيما وأنها تخفي عنه كل شيء بشأن مرضها، لكن ثمة أمر يخشاه بشكل أكبر وأعمق؛ أن يكون المرض قد تجاوز الجسد وأصاب الروح، فهو قد سبق له أن أصيب بحالة اكتئاب قبل سنوات ويعرف أعراض هذا المرض جيّدا.

عادت إينيسّا إلى العمل رغما عن حالتها الصحية السيئة بقرار من المكتب السياسي الذي كلّفها بتنسيق المؤتمر الدولي للنساء الشيوعيات، هذا المؤتمر الذي كان مدرجا ضمن جدول التقويم الخاص بأواخر شهر تمّوز لسنة ١٩٢٠، أيْ في نفس الأيام التي كان يجري فيها مؤتمر اللجنة الأممية الثاني.

كان إذن على إينيسّا أن تواجه كل هذا لوحدها، ثمة صعوبات وعراقيل تنسيقية عديدة، بما فيها تلك الخاصة باقتراح برنامج التنظيم اللوجيستيكي، مع العلم أن الـ(زينوتديل) أو قسم الشؤون النسائية في اللجنة المركزية للحزب البلشفي ليس لديه أي تواصل مع الحركات النسائية الشيوعية في البلدان الغربية، ذلك أنه لم يكن ثمة الوقت الكافي للقيام بهذه الخطوة. إينيسّا إذن لوحدها تقريبا، ولم تستطع مساعدتها لا الرفيقة أليكساندرا كلولونتاي لأنها كانت على فراش المرض، ولا حتى ناديا كروبسكايا لأنها كانت منشغلة بعملها لدى مفوّضية التعليم.

كان على إينيسّا إلى جانب كل هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقها أن تهتم أيضا بالخلاف الذي كان متواجدا بين نفس الأحزاب الأممية الشيوعية، والتي كان من المفترض أن تدعم المؤتمر، لكنها لم تفعل مما جعلها تقتنع تماما

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أن هذه الأحزاب لم يكن عندها أيّ استعداد من أجل ضمان نجاح المؤتمر ولقاءاته التي باتت تُعْرض بشكل آليّ.

في ٣٠ تموز، وبعد مضيّ بضعة أيام على تنظيم المؤتمر في سان بطرسبورغ، سافرت إلى موسكو الوفود النسوية للمشاركة في بعض النشاطات المتعلقة بالقضية النسائية في العالم التي دامت لأربعة أيام، عاد الجميع بعدها إلى مركز المؤتمر ومعهم تقرير يصف ويوثّق مختلف أعمال دورة موسكو من أجل تقديمه إلى اللجنة الختامية.

في موسكو كانت معظم المناقشات منصبّة على إيجاد طريقة مثلى لتنسيق العمل والتعاون بين مختلف الوفود، لكن يبدو أن الأقسام الألمانية والإنجليزية ثم السويسرية كانت تريد إنشاء منظمات نسوية مستقلة عن الحزب، في حين لم يكن القسم الفرنسي مهتما بكل هذه التفاصيل، بل كان يفضلّ إرجاء النشاط النسوي إلى ما بعد الثورة، وكثيرون هم أولئك الذين كانوا يشككون في الحركة النسوية ويعتقدون أنها انحراف خطير عن القضايا الرئيسة.

لكن على الرغم من كلّ هذه الاختلافات، استطاعت إينيسّا أن تسيطر على الوضع وتقترح النموذج الروسي والذي بموجبه يمكن للنساء أن يؤسسن هيئة خاصة بهن دون الخروج عن إطار الحزب، وهو النموذج الذي قبل به الجميع وصادقت عليه كل الأطراف.

إنها في الختام مكاسب جيّدة جعلت إينيسا تشعر ببعض الرضا لا الانتصار، لأنها على الرغم مما حققته من إنجازات فهي تشعر بحالة إحباط شديدة، ولا شيء مما يحيط بها أصبح يجذب نظرها أو اهتمامها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في صورتها الأخيرة التي التُقطتْ في آب ١٩٢٠، لا تحاول أن تبذل أيّ مجهود من أجل رسم ابتسامة بسيطة على محيّاها. حتّى شعرها لم تعد تصفّفه بتلك الطرق الإبداعية الخلاقة التي اعتاد عليها معظم المقربين منها. وأصبحت عيناها منطفئتين تماما، وخصلات شعرها القصيرة تحيط بوجهها بشكل لا جمال فيه ولا حيوية.

بعد النجاح الذي حققه المؤتمر كان من المفترض أن تُسَلّم إلى إينيسّا مهمة تسيير وإدارة اللجنة الأممية النسوية، لكن لينين الذي اقترح اسمها لتتكفّل بهذا الأمر ليس بمقتنع تماما بصواب هذا القرار، فحالتها الصحية لن تسمح لها بتحمل كل هذه المتاعب والمسؤوليات الجديدة، عليها أن تشفى أولا، ولينين يحاول أن يقول لها ذلك بكل حذر ولطف، لأنه يعلم جيدا أن إينيسا تعاني حقا في صمت ويجب وضع ذلك في عين الاعتبار.

إنّ من يحاول تتبع حياة إينيسّا أرماند وبالتالي فهم تفاصيلها الدقيقة فإنه سيجد صعوبة كبيرة في استخلاص نتائج يقينية، لأنه سيكون عليه أن يبحث أولا عن الأسباب الحقيقة الكامنة وراء مرض إينيسّا جسدا وروحا بهذا الشكل الخطير في آب ١٩٢٠

ما من شكّ أن إينيسّا امرأة قوية، وهذا ما أظهرته سواء قبل أو بعد لقائها بفلاديمير إيليتش. وكانت في السنوات الثلاثة التي تلت الثورة من أهمّ الشخصيات التي ساهمت في تأسيس الاشتراكية بروسيا، بل كانت من أهم أعضاء مجموعة النساء والرجال الذين غيّروا مجرى التاريخ. وقصّة حبّها العنيفة والأليمة لفلاديمير إيليتش صمدت أمام أقسى العراقيل والصعوبات، لكنها الآن بمرضها هذا يبدو أن شيئا ما قد انكسر فيها. لقد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أصبح كلّ شيء عسيرا منذ صيف ١٩٢٠، وإلى متى سيتحمّل رجال ونساء هذا البلد كل هذه القسوة؟ ولينين الذي كان يعتقد أنه بوسعه أن يعمل ويقرر كزعيم كل شيء اكتشف أنّ ذلك لم يكن سوى وهم كبير، ليس لأنه أصبح رجلا ضعيفا، أو لأنه لم يعد الرئيس الذي لا يرفض له أمر، ولكن لأن القرارات المتخذة في الماضي باتت تؤثر على القرارات التي يجب اتخاذها في الحاضر. وهو يعلم جيّدا أن قرارات الماضي لم تكن دائما صائبة، ولكنها - كما كان يحبّ القول- كانت ضرورة لا بدّ منها. وإينيسّا لا تستطيع أن تتناسى التفكير في كل هذا، أيْ في الإعدامات ولا في السّجون الضّاجّة بـ«الخونة». ألمْ يكن للثورة أن تختار طريقا آخر غير هذا الملطّخ بالدّم والموسوم بالرعب؟

إينيسّا على الرّغم من تساؤلاتها هذه، اختارت أن تبقى إلى جانب لينين حتّى الرّمق الأخير، وتعمل بالتالي معه والوثوق به بدون تردد متغلّبة في ذلك على مرضها وتعبها. هكذا فقط كان من الممكن لها أن تقول له إنها مازالت تحبّه، وإن مرّت ثلاث سنوات طوال على قرار انفصالهما عن بعضهما البعض.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

(٢٩)
الموتُ في القوقاز

هو الآن في مكتبه بالكرملين، وهي في منزلها لا تفصلها عنه سوى بضعة مئات من الأمتار. كلّمها في الهاتف وطلب منها اللحاق به. دقائق قليلة وستكون عنده، وهو لأجل لقائها أوقف قراءة كل ملفات العمل.وطلب ألا يحوّلوا إليه أيّة مكالمة هاتفية، ثمّ رتّب الأقلام فوق طاولة المكتب بدقّته المعهودة، وبدأ يمشي ذهابا وإيابا في الغرفة الممتلئة عن آخرها بالكتب، مع التوقّف من حين لآخر أمام خريطة الجمهوريات الاشتراكية الكبرى المعلقة فوق الجدران، أو أمام صورة ماركس المقابلة لطاولة المكتب.

إنه يحاول في لحظات انتظاره هذه أن يجد الكلمات المناسبة التي سيفتتح بها الموضوع المهمّ مع إينيسّا، سيكون ولا شكّ في ذلك لطيفا معها، لكنه في الوقت نفسه عليه أن يكون حازما وصارما حتى يتمكّن من إقناعها بترك العمل والسفر من أجل العلاج من الإعياء الشديد والحزن القاتل الذي ألمّ بها في هذه الفترة.

نعم، ما من مفرّ، فهو يعلم الآن وأكثر من أيّ وقت مضى، أنه عليه أن يتدخّل وبأسرع وقت ممكن من أجل إنقاذ ما تبقى من إينيسّا، صحيح أنه لا يعرف كيف يشرح بشكل مفصّل أحاسيسه، لكنه هذه المرّة يشعر بقلق عميق تجاه حالتها الصحيّة، فكثرة العمل والمشاكل والقضايا المعقّدة أثّرت بدون شك على جميع أعضاء الحزب فما بالك بصحة إينيسّا التي ولا شكّ تدهورت بكلّ ما ألقي على عاتقها من مسؤوليات جبّارة، إضافة إلى أنها

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أضحت لا تأكل بشكل جيّد، علاوة على فصل الشتاء الذي جاء هـذه المـرّة جليديا بشكل لا يطاق. كلّ هـذه العوامـل تـسرّبت إلى قلبهـا فـزادت مـن حزنها وكآبتها، وأصبحت نظرتها على غير العادة منطفئة وخالية من الحيـاة، لذا، فإنّ لينين الآن، لا يريـد منهـا أيّ شيء آخـر سـوى أن تهـتمّ بـصحّتها وتستريح من العمل تماما، لتعود كما كانـت سـابقا؛ امـرأة مفعمـة بالحيويـة والنشاط.

هاهي قد وصلت، إنه يسمع من خلـف البـاب وقـع قـدميها الـذين لم يفقدا سرعة الحركة والإيقاع رغما عن التعب والمرض. ابتسامتها هذه المرّة يشوبها شيء من المرارة والحسرة، إنها كما توقّع لينين تماما، ليست لديها أيّـة رغبـة في تـرك موسـكو، فمازالـت العديـد مـن المـسؤوليات التـي تجـب مواجهتها بكل حزم وصبر، بما فيها العمل مـن أجـل الــ (زينوتـديل) أو قسم الشؤون النسائية في اللجنة المركزيـة للحـزب البلـشفي. ولينـين الآن حائر، ولا يدري ماذا سيفعل؟ هل كان من الأفضل مثلا أن يقـترح عليهـا الـذهاب إلى بوشـكينو حيـث بيـت العائلـة الكبـير، والأشـجار الباسـقة والطبيعة التي قضت بين أحضانها أجمل سنوات عمرها؟ لكنه لا يـستطيع أن يفعل هذا، فهي لا تعرف بأن بيت العائلة القديم قد دُمّر كاملا، وعمّتـه الفـوضى والخـراب، وأن الأشـجار أصـبحت خـشبا جـاهزا للحـرق، والحدائق جرداء تجوب فيها الحيوانات من كلّ شكل ونوع. لا، لن يـروي لها شيئا من كلّ هذا، وليس من الحكمة في شيء أن يطلب منهـا الـسّفر إلى الخارج، فإلى أين ستذهب؟ إلى فرنسا على سبيل المثال؟ هناك سـيعتقلونها مباشرة. أبدا لن أسمح بوقوع هذا، وما من حـلّ سـوى أن أقـترح عليهـا الذهاب إلى القوقاز، هناك توجد مصحّة بين الجبـال وتحـت حمايـة بعـض

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الرفاق من الحزب، وهناك فقط يمكنها أن تتعالج وتستريح كلّيا من عناء العمل. وهذا فعلا ما قاله لها ختاما، مؤكدا لها بأنها سرعان ما ستعود لعملها، وواعدا إياها بأنه سيتكفّل بكل شيء، مذكّرا إياها في الوقت ذاته بأن ابنها الصغير أندريه هو أيضا بحاجة إلى العلاج مادام قد أصيب هو الآخر بداء السل الذي قضى على أبيه. لقد كان لينين يعرف، بأنّ الدافع الوحيد الذي سيحفّزها على السفر ويجعلها تقتنع بضرورته، هو علاج ابنها الأصغر، لكن قبل هذا عليه أن يتدبّر الأمور من جميع النواحي، فهو يعرف جيدا أن الأوضاع في القوقاز ليست على ما يرام، ويعرف أيضا أن ما كل ما يطلبه زعيم الثورة سينفّذ على وجه السرعة، لا سيما وأن الحرب مشتعلة في كلّ مكان، وأن المسافة التي يجب قطعها من أجل الوصول إلى القوقاز طويلة جدّا، وحتى حينما ستصل إينيسّا هناك، فهذا لن يعني أنها ستتلقى كل العناية والاهتمام المطلوبيْن. إنها كلّها مخاوف دفعت بلينين إلى أن يتصرّف بأقصى سرعة بكل ما عرف عنه من طبع عنيد ومثابر، لقد كتب إلى سرغو أرزنيكيدزه، الذي كان آنذاك رئيس اللجنة الثورية في القوقاز وعلى صلة وطيدة برئيس الزينوتديل باعتبار أنه كان أحد طلابه أيام الدراسة في معهد لونغجيمو آمرا إياه بأن يرسل فورا برقية إلى المسؤولين بحزب كيسلوفودسك حيث توجد المصحّة من أجل ضمان إقامة جيّدة للرفيقة إينيسّا وابنها.

لكن لينين مازال قلقا للغاية، فالقوقاز بعيد جدّا وهو غير متأكّد من وصول أوامره إلى هناك، وحتى إن وصلت فهو لا يعرف إذا كانت ستنفّذ أم لا، لذا بدأ من جديد في الكتابة مطالبا بردّ سريع، لأنه يريد أن يعرف إذا كانت توصياته قد وصلت وتمّ العمل بها أم لا؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وعلى الرغم من ذلك فقلقه مازال يتعاظم يوما بعد يوم، فالأخبار التي تصله من جبهات الحرب لا تطمئن أبدا، لذا ما إن مرّ يومان آخران على رسالته السابقة حتى بادر من جديد بالكتابة إلى أرزنيكيدزه قائلا له فيها: «إذا رأيت أن الأوضاع في كوبان تزداد كل يوم سوءا وخطرا، فما عليك حينئذ سوى أن تتصل بإينيسا، وتساعدها على المغادرة بأقصى سرعة هي وابنها المكان، ثم الذهاب إلى بيتروفسك أو إلى أستراخان، بدون أدنى تسويف أو تأخير».

وعند اقتراب موعد السفر، استدعى لينين إينيسّا مرّة أخرى إلى مكتبه، فهو يريد أن يراها ويودّعها قبل السّفر. وفعلا حضرت كما أراد، وشربا الشاي معا، ثم تصافحا وأمسك لينين بيديها بين يديه طويلا، وأعطاها بعد ذلك رسالة لتسلّمها بمجرد وصولها إلى مدير المصحّة وقد أوصاه فيها بالحرص على معاملة إينيسّا معاملة خاصّة مع ضمان إقامة جيّدة وآمنة لها.

وما إن خرجت إينيسّا حتى عصفت به مجددا موجة رهيبة من الاضطراب والانزعاج، ووجد نفسه يكتب مرّة أخرى إلى أرزنيكيدزه قائلا له: «لا تنس أنك وعدتني بضمان معاملة خاصّة وإقامة جيدة لإينيسّا وابنها...»

سافرت إينيسّا برفقة صديقتها بولينا فينوغرادسكايا وابنها أندريه، وقد قررت أن تعتني بنفسها، وتحرص على شفاء ابنها. فهي تعلم أن لينين قد فعل المستحيل من أجلها، لكنها في الوقت ذاته تعرف جيّدا كيف تجري الأمور في روسيا، لا سيما في هذه الفترة، لذا فهي لا تنتظر الكثير من أحد.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لقد تغيّر كلّ شيء، وهذا زمن يمكن أن يتوقّع فيه الإنسان حدوث أيّ شيء، كأن يجد رئيس الكرملين مثلا نفسه في وضعية لا يستطيع معها أن يضمن تنفيذ ولو بعضا مما قد يطلبه أو يوصي به الرفاق الآخرين، وإن كان الأمر يتعلق بأبسط الخدمات الفندقية.

ولقد كان لينين محقا في قلقه على إينيسّا، فهاهي المسكينة قد وصلت إلى المصحّة وبدل أن تدخل مباشرة إلى القسم المعروف بخدماته الصحية المُميّزَة والكاملة، تمّت استضافتها في غرفة بسيطة صغيرة بدعوى أن القسم الأول ممتلئ عن آخره. وأمام هذا الوضع المزري لم يكن أمام إينيسّا سوى أن تقبل على مضض بالوضع كما هو، وذهبت إلى غرفتها ووجدتها مظلمة وبدون كهرباء، وبها سرير غير مريح أبدا. وحينما حلّ الليل بدأت تتناهى إلى سمعها طلقات بنادق الجيش الأبيض، فالحرب الأهلية التي من المفترض أنها قد انتهت رسميا في شهر نيسان، هي هنا في هذه الأراضي مازالت مستمرة بشكل مخيف وخطر.

كان بإمكان إينيسّا أن ترفض كلّ هذا وتطلب من الحزب مساعدتها على العودة إلى موسكو، لكنها لم تفعل، فهي الآن متعبة جدّا، ولا شيء يعنيها سوى أن تمدد جسدها فوق ذلك السّرير المتهالك، وتغلق عينيها لتخلد إلى نوم عميق.

ولأن رفاق الحزب المحلّي باتوا على علم جيّد بهذه الوضعية السيئة التي اضطُرّت إينيسّا إلى القبول بها، فإنهم بدأوا يسارعون إلى معالجة الأمر عبر إحاطتها بعنايتهم وتنفيذ ما تطلبه منهم، لا سيما وأن لينين لا يتوقف عن إمطارهم ببرقياته التي يوصيهم فيها بالسّهر على راحتها. وعلى الرغم من

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كل ذلك، فإينيسّا لا تريد منهم شيئا سوى أن يتركوها تنام لأطول فترة ممكنة كما هو واضح في هذه الرسالة الموجّهة إلى ابنتها إينّا والتي تقول فيها: «لقد أصبحتُ أنام ليلا ونهارا، وحينما لا أستطيع ذلك، أبقى في الغرفة لوحدي صامتة برفقة كتاب، أو أخرج وحيدة في نزهات طويلة بين الجبال. لم تعد لديّ الرغبة في البقاء مع الرفاق ولا حتّى مع أعزّ الأصدقاء الذين عرفتهم في سنوات المنفى بأوروبا، وتقاسمتُ معهم تجارب مهمّة للغاية. أريد أن أبقى وحيدة، إنها الرغبة الدفينة المتوحشة التي تسيطر عليّ في هذه الفترة. كما ينتابني إحساس مستمرّ بالتعب والإجهاد، لدرجة أنني لم تعد عندي القدرة على تحمّل أحاديث الآخرين من حولي. إنه إحساس عميق بالموت، ولا أعرف إلى متى سيدوم بداخلي».

في ساعات الوحدة الطويلة، تحاول إينيسا أن تغوص في أعماق نفسها، علّها تصل إلى تفسير لهذه الحالة التي باتت تسيطر على كيانها، والنتيجة كانت، أنها اكتشفت أن ثمّة هناك تغيّر جذري حدث بداخلها؛ إنها ليست إينيسّا الزمن الماضي، الذي كانت فيه امرأة مرحة واجتماعية، لا تتعب أبدا من مساعدة الآخرين، و«تشعّ فرحا وبهجة ودفئا على الجميع»، كما سبق وقالت عنها ناديا كروبسكايا حينما التقتها بالمنفى. نعم، لقد تغيّر كلّ شيء، وإينيسّا اليوم باتت «تستغرب» كيف أنّ الناس يستطيعون الضحك والاستمتاع بأحاديث بعضهم البعض بعد أن كان هذا الأمر عاديا بالنسبة لها، حتّى أنها تقول في مذكراتها ما يؤكد ذلك كما هو الحال في هذا المقطع: «لقد أصبحتُ أضحكُ وأبتسمُ ليس لأنّي أشعر بالسعادة، ولكن لأني فقط أريد مجاراة الآخرين...»

أينها يا ترى تلك المرأة التي كانت تحبّ الاستمتاع بأشعّة الشمس، وتنتظر بزوغ الفجر فوق الجبال، وتتفسّح على ضفاف الفولغا، وحينما ينال منها التعب تنام فوق العشب الأخضر؟! لقد اختفت إينيسّا الزمن السعيد، وأصبحت اليوم امرأة لا يعجبها أيّ شيء، ولم يعد يعنيها أحد من الناس رجلا كان أو امرأة: «في السابق كنت أقترب من أيّ إنسان بحنان ودفء، اليوم أصبحتُ أملّ من الجميع».

أجل، إنها الآن بصدد تحليل نفسها، ونقد مشاعرها بدون شفقة: «المشاعر الوحيدة التي مازالت تتحرك بداخلي هي تلك التي أحمل تجاه ف.إ وأبنائي، غير هؤلاء، فما عاد في قلبي حياة تجاه أحد. لقد انتهى ما كنت أحمله من محبّة وحماس وتفتح مع الآخرين! وماذا عن علاقاتي مع الناس في العمل؟ لقد انتهت هي الأخرى، وهم بدأوا يفهمون ذلك جيّدا، ولم يعد في وسعهم سوى أن يبادلون برودي تجاههم ببرود أشدّ وكراهية عميقة، أمّا عن نشاطي في العمل، فقد قلّ واضمحلّ هو الآخر».

إينيسّا ما زالت لم تتجاوز بعد السادسة والأربعين سنة من عمرها، ولا تعاني من أيّ مرض عضوي خطير، لكن كلماتها هذه تنمُّ عن إحساس عميق بالموت، وهي تجاهه لا تريد أن تفعل شيئا، وكأنها راضية به. إنها تشعر بقرب النهاية، أو اللحظة التي حسمتْ فيها الاختيار، أيّ اللحظة التي بات كل شيء يبدو في عينيها غير ذي قيمة تذكر.

«أتذكّر قيامة لعازر، وأعرف أنه كان على علم بآثار الموت وعلاماته البادية عليه، وهذا في حدّ ذاته كان يجعل الناس يخافون منه. لقد كان لعازر بشكل أو بآخر يريد ذلك، أيْ أن يبتعد عنه الناس. وأنا مثله، أشعر بنفس

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الإحساس. لقد أصبحتُ جثة متحرّكة، وهذا أمر مريع جدّا، لا سيما إذا كانت الحياة مازالت مستمرّة من حولك، بالرغم من كلّ شيء».

هكذا كانت تفكّر إينيسّا، إنها متشغلة بغربلة الماضي، وإعادة حساب ما تبقّى لها من أحبّة، وكأنّ ما يشغل العالم في هذه الفترة من حروب ومآسي لا يعنيها بتاتا، إنها لا تفكّر حتّى في الجيش الأبيض الذي بات على الأبواب. ويبقى ابنها أندريه وسط كل هذا الخراب الرّوحي، هو كلّ ما يستحقّ اهتمامها وعنايتها، فهو مازال مراهقا ولا يبلغ من العمر سوى ستة عشر سنة: «لست مثل بقية أمهات روما اللائي عندهن الاستعداد الكامل للتضحية بأبنائهن من أجل الوطن. ليست عندي الشجاعة الكافية للقيام بذلك. وكل ما يمكنني فعله حقيقة هو أن أضحّي بنفسي في سبيل أن يعيش ابني أندريه».

في موسكو كان لينين يستفسر يوميا عمّا يحدث بالقوقاز، وبدأ يستشعر الخطر محدّقا بإينيسّا ويتحسّر نادما على ما قام به تجاهها حينما أقنعها بالسفر من أجل الاستشفاء هناك. وهاهو الآن يحاول قدر المستطاع أن يضغط على الرفاق ويذكّرهم أحيانا بأنه الرئيس علّهم يذعنون لأوامره، وحينما اشتدّ إصراره عليهم قام عضوان من الحزب بالذهاب للقائها من أجل إقناعها بترك كيسلوفودسك بأقصى سرعة لأنها أصبحت منطقة خطرة للغاية، ولم يعد في وسع أحد أن يضمن لها أو لابنها الحماية الجيّدة والعناية المطلوبة.

إينيسا ترفض كلّ هذا، وتفضّل أن تنهي عطلتها هنا، ولا تريد العودة إلى موسكو حتى وإن كانت صديقتها بولينا ستذهب مع الآخرين. الحقيقة واضحة للجميع: إينيسّا لم تعد تخاف من أيّ شيء، لا من الحرب

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولا من الخطر الذي يداهم ابنها، كلّ ماتريده أن تبقى لوحدها مع عزلتها وحزنها، وقبر الكآبة الذي دفنت فيه روحها. هي الآن لم تعد تملك شيئا تحبّه أو تخاف أن تفقده، ومن أجل فهم هذه الحالة العميقة من الموت الروحي التي سقطت فيها، تجب العودة إلى مذكّراتها والتي تقول في إحدى صفحاتها ما يلي: «يُخيّل إليّ أنني أصبحتُ أمشي وسط النّاس وأنا أحاول قدر الإمكان أن أخفي عنهم سرّي، أعني سرّ كوني ميتة تمشي وسط الأحياء، وممثلة ملّت من كلّ شيء ولكنها على الرغم من ذلك فهي مضطرة لأن تعيد ليس فقط المشاهد ذاتها لمئات المرات، ولكن حتّى الكلمات التي كنت أستعملها في الماضي القريب، حينما كنتُ ضاجّة بالمشاعر والأحاسيس الجميلة.

اليوم قلبي ميت، وروحي صامتة، ولا أستطيع أن أخفي عن النّاس حزني الغامض. ثمة تيار بارد يصدر منّي، ويشعر به الناس من حولي فيبتعدون. الآن لم أعد أشعر بالتعب ولكنه هذا الموت الدّاخلي مازال يرافقني. ولأنه لا حرارة بداخلي، فأنا لا أشعّ من حولي الحبّ ولا أستطيع أن أهب السّعادة لأحد».

إنّ هذا الجفاف في المشاعر لدى إينيسّا، لم يأت من فراغ أبدا، فالالتزام بالقضية كان يفرض عليها التصرف بنوع من البرود مع إلغاء العواطف والانفعالات في علاقتها مع الآخرين من أجل خدمة الثورة وأهدافها. لكن يبقى في غاية الأهمية التساؤل عن مدى صحة الكلام، أيْ هل حقّا كانت القضية والتزاماتها هي السبب حقّا في هذا الإحساس العميق بالملل واللاجدوى والفراغ؟!

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حتّى حبّها للينين كانت مجبرة على إخضاعه لقنوات معينة تقضي بعدم خلط الحياة الخاصة بالعمل في الحزب، ولم يكن عندها أدنى حق في الحبّ أو التمتع بحياتها الخاصّة كما تشاء. لقد كان عليها أن تضحي بكل شيء من أجل الثورة وتأسيس دولة السوفييت.

إينيسّا غير نادمة على خياراتها هذه أبدا، ولكنها في الوقت ذاته تعلم جيّدا أنها خسرت كلّ شيء: «نحن مازلنا بعيدين جدّا عن الوقت الذي يمكن أن تتوافق فيه مصالحنا الشخصية مع مصالح الدولة. ولا يمكن أن نتمتّع أبدا بحياة شخصية، لأننا وهبنا كلّ وقتنا ومجهودنا للقضية العامة. ربما ثمة من يستطيع بين الرفاق من يتمكن في زحمة الالتزامات من إيجاد فضاء صغير يمارس فيه حياته الخاصة ويشعر بالسعادة، أمّا أنا، فقد فشلت في ذلك فشلا ذريعا». هكذا عبّرت إينيسا وهي تعترف للجميع باستسلامها لهذا الإحساس الفظيع بالفشل والانهزام.

وفي الختام صدرت أوامر السلطات المحلية بإخلاء المكان، وأصبح لزاما على كل نزلاء المصحة أن يغادروا المدينة بدءا من منتصف أيلول، لكنهم قبل ذلك قرروا أن يقيموا احتفالا صغيرا في المستشفى ليلة قبل يوم الرحيل، وطلبوا من إينيسا أن تعزف لهم خلال السهرة على البيانو دون أن يكون لديهم أيّ علم مسبق بأنها عازفة ماهرة، أو بأن الموسيقى هي من أهمّ الأشياء التي تجلب لها السعادة والمتعة، لولا ظروف العمل والحرب التي حرمتها منها طيلة هذه الفترة الحزينة من حياتها، فلا أحد في روسيا الثورة كان عنده وقت لعزف أو سماع الموسيقى، وهي كما غيرها اضطرت أن تتأقلم مع هذا الوضع الشاذ، وهجرت البيانو منذ زمن طويل. لكن الأمر

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مختلف تماما في هذه الليلة، لدرجة أن قسمات وجهها بدأت تتحرك في ابتهاج عجيب، وعاد لعينيها وهي تعزف بريقهما المعهود، وبدأت أناملها تـتراقص فوق البيانو بحيوية منقطعة النظير، والشّال الذي من المفترض أنه كان يقيها من البرد انزلق من على كتفيها. وعلى وقع الموسيقى بـدأت كـلّ الهموم في التلاشي، وكل قلق على الغد وعلى ما قد يكون في السفر من مخاطر انـدثرت في رمشة عين، وكيف لا يكون الأمر كذلك والأنغام قـد سـحرت الجميـع، ووصلت إلى الغابات والحقول المجاورة منتشرة في كـل مكـان لدرجـة أنّهـا طغت حتى على صوت طلقات بنادق الجيش الأبـيض التـي كانـت تـسمع قادمة من بعيد.

انتهت الليلة، وفي الفجر بدأت إينيسّا الرحلة، وإن كانـت في أعماقهـا لا ترغـب في هـذا الـسفر لإحـساسها بالتعـب والإرهـاق الـشديدين، لكـن ماعساها تفعل سوى أن ترضخ للأمر الواقـع، وتغـادر مـع الرفـاق المدينـة وبصحبتهم ابنها وصـديقتها ليـودميلا وزوجهـا، ونزيـل آخـر مـن نـزلاء المصحّة ثم الدكتور روزْنكوف وزوجته الحبلى.

كان القطار متوجها إلى فالديكافكاز، وهـم بداخلـه يـسمعون طلقـات الجيش الأبيض تتهاوي من كل جانب، أمّا إينيسا فكانت تراقـب في هـدوء ساخر خـوف المـوظفين البيروقـراطيين مـن أعـضاء الحـزب الـذين كـانوا يرافقونهم في الرحلة.

وهاهم أخـيرا قـد وصـلوا، ووجـدوا المدينـة ممتلئـة بلاجئـي جورجيـا والقوقاز، إضافة إلى حالات الكوليرا التي أصبحت منتـشرة بـين النـاس في هذا المكان، مما دفع بإينيسّا إلى الشعور بالقلق والخوف على من معها، فكـان

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن قررتْ بعد استشارة الدكتور روزنْنكوف ألا يخرج أيّ أحد منهم إلى مدينة فالديكافكاز، وأن يبقوا داخل القطار إلى الغد، لأنه وسط كلّ تلك الفوضى والأمراض المحدقة بهم في الخارج يبقى المكان الآمن والأسلم والأنظف للجميع.

وفي الصباح انطلق القطار متجها هذه المرّة إلى بيسلان، وحينما وصلت إينيسا وأصدقاؤها إلى هذه القرية الصغيرة وجدوها أشدّ سوءا وفقرا وتعفنا من سابقتها، لكنهم هذه المرة ليس أمامهم من خيار سوى التوقف والخروج للبحث عن الأكل الذي انتهى عن آخره، وهي المهمّة الصّعبة التي تكفّلت بها إينيسّا وخرجت من أجل تدبّر الأمر في الطرقات.

التقت أول الأمر بالفلاحين والباعة المتجولين الصغار، واشترت منهم ما استطاعت، فهي تعرف أن رفاق السفر مازالوا في انتظارها، ولا تنقطع عن التفكير فيهم وفي ابنها وزوج صديقتها ليودميلا المريض بداء السلّ. وهي وسط هذه الأوضاع المزرية تشعر وكأنها انبعثت في أعماقها إينيسّا الحقّة، أيْ تلك المرأة المُحبّة للنّاس والمتعاطفة معهم بكلّ ما تملك من طاقة وتفكير وإحساس بالمسؤولية تجاه الغير، هذه المسؤولية التي جعلت منها في السابق امرأة بلشفية قيادية بما في الكلمة من معنى.

نعم، لقد اختفى في هذه اللحظات كل شعور لديها بالمرض والتعب، ولم تعد تفكّر إلا في إنقاذ رفاقها من هذه المحنة العسيرة، وفعلا تمكّنت من الحصول على بعض من الحليب والبيض والفواكه. وعادت إليهم لتحضّر لهم وجبة تقيهم الجوع والبرد.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في بيسلان أصيبت إينيسّا بوباء الكوليرا، لكنها لم تشعر به بتاتا في بداية الأمر، لذا فإنها على عكس المتوقع تماما، كانت تحسُّ بحيوية منقطعة النظير، حتّى أنها خرجت مع رفاقها لاكتشاف مدينة ناتيشيك، ثم بعد ذلك ذهبت للمشاركة في اجتماع كان يناقش جديد إصدارات لينين (التطرّف، مرض الشيوعية الطّفولي)، ودافعت عن الكتاب بكل حيوية ونشاط، وحينما انتهى الاجتماع عادت إلى بيتها الخشبيّ الذي تقيم فيه وأصدقاءها فرحة بما حققته من نجاح وتألق، لكن ما إن حلّ الليل حتّى بدأت أعراض المرض تظهر عليها بوضوح: القيء والإسهال الشديد. عندئذ فقط أدركت أنه قد حكم عليها بالموت، وفي تلك اللحظات كان أول ما قامت به أن أبعدت عنها ابنها أندريه وكذا صديقتيها الجُبلَيَيْن، اللتان كانتا تحاولان أن تخففا عنها الألم والوجع. ويبدو أخيرا أن ما من حلّ سوى أن تُنقَل إلى المستشفى المحلّي، وهناك كان التشخيص صريحا: لقد أصيبت بالكوليرا. وتوفيت إينيسّا في ٢٤ أيلول ١٩٢٠

في الحادي عشر من أيلول، أيْ أسبوعان تقريبا قبل وفاتها، كتبت إينيسّا في مذكراتها أسطرها الأخيرة والتي كانت تتحدث فيها عن نفسها وعمّا يختلج في صدرها من حقائق: «يحتلّ الحبُّ مركز الصّدارة في حياة الأشخاص الرومانسيين، ويكون عندهم فوق أيّ اعتبار، وأنا مثلهم وإلى وقت قريب كنت أوافقهم الرأي، لكن الواقع اضطرني إلى تغيير موقفي؛ لم يعد الحبّ يمثّل كلّ شيء في حياتي، لقد حلّ مكانه التزامي بالقضية، هذا الالتزام الذي دفعني في كثير من الأحيان إلى التضحية بالحب والسعادة».

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حينما ماتت إينيسّا، لم يكن بحوزة الجهات المسؤولة تابوت يليق بها، واضطروا إلى الانتظار لأكثر من أسبوع حتّى وصل إلى ناتيشيك تابوت من الزّنك، ولكي يصل جثمانها إلى كازان، تطلّب الأمر ثمانية أيام أخرى من السفر عبر القطار، هناك حيث كان لينين ينتظرها في محطّتها الأخيرة.

(٣٠)
ستالين مُسْتَبِزّاً

توفي فلاديمير إيليتش، وترك لزوجته ناديا وصيّة طالبا منها أن تسلّمها إلى الحزب ليتمّ الإعلان عن نصّها ونشره بين الجميع. من تلك الوصية لم تكن ناديا تملك سوى خمس نسخ، وقد نفّذت بالحرف ما قاله لها زوجها الرّاحل، إذ ذهبت بعد مضي بضعة أشهر إلى الكرملين، وهي الآن تنتظر قلقة بإحدى الغرف ردّ اللجنة المركزية للحزب بشأن تحديد الوقت المناسب للإعلان عن فحوى الوصية. هي قلقة، لأنها تعلم جيّدا ماكتبه زوجها، وخاصة في تلك الأجزاء المتعلقة برأيه في كيفية تسيير ستالين لدفّة الأمور، فهذا الأخير بالنسبة له إنسان «قاسٍ وفظّ جدّا، وهذا عيب يمكن تحمّله بين الشيوعيين أنفسهم، لكنه يصبح أمرا لا يطاق حينما يبدأ في ممارسة وظيفته كأمين عام للحزب، ولأجل هذا فإني أقترح على الرّفاق أن يجدوا الحلّ الأنجع والطريقة المثلى من أجل إزاحته عن منصبه هذا، وتكليف شخص آخر به يكون أكثر ليونة وتسامحا من الرفيق ستالين، بل أكثر إخلاصا وأدبا، وأكثر اهتماما برفاقه. وإني أعتقد أن الآخرين سيعتبرون طلبي هذا غير ذي أهمية تذكر، لأنه يناقش أمرا ربما يبدو بسيطا للغاية في أعينهم، ولكني أود أن أثير انتباههم إلى أن الأمر ليس كما يبدو تماما، لأن تفادي حدوث انفصال في الحزب، وكذا الأخذ بعين الاعتبار ما سبق وأشرتُ إليه عن العلاقة بين ستالين وتروكي، ليسا بالشيء الهيّن أبدا، أو بعبارة أخرى؛ إنهما قد يكونان حقّا أمرا بسيطا ولكن ذو آثار ونتائج مهمّة للغاية».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حينما انتهى الاجتماع، التحق الأمين العام للحزب بناديا كروبسكايا، وأخبرها بقرار اللجنة المركزية، قائلا لها إنّه قد تمّ احترام إرادة الزعيم الرّاحل، وإنه سيتمّ توسيع اللجنة المركزية، وسيفسح المجال للعمّال والفلاحين، إلا أنه لن يتمّ نشر فحوى الوصية بتاتا، لأنها تحمل آراء شخصية للزعيم لا شأن لها بأمور الحزب وقضاياه، وهذا قرار تمّ اتخاذه باتفاق مع أعضاء وفود المؤتمر نفسه وهم ستالين وكذا زينوفيف وكامينيف. ويبقى بالتالي ترك الملاحظات الشخصية والاهتمام بمستقبل الحزب والأعضاء المسيرين له من الأولويات التي يجب التمسك بها، وما عداها فإنه مجرد مضيعة للوقت.

كانت ناديا تنصت بعمق لما كان ستالين بصدد التصريح به أمامها، وانقبض صدرها، فهي لا تثق بهذا الرجل بتاتا، وقد كانت على خلاف معه دائما وحتى وقت قريب قبل وفاة زوجها. لقد كان يريد عزل لينين عن الناس أثناء فترة مرضه، ولم يكن يسمح له باستقبال الزوار، دون نسيان معاملته القاسية والمهينة في أكثر من مرّة لزوجته، حينما علم أنّها لم تكن تمنعه من مواصلة عمله حتى حينما كان على فراش المرض والموت.

صحيح أن ناديا الآن هي امرأة مُسنّة وموجوعة، وتعلم جيّدا أن ذلك الرّجل الجالس أمامها له مركز سياسي قويّ وخطير، وأنه لا يحبّها، لأنه يعتقد أنها هي من ألّبت زوجها ضدّه ودفعته لكتابة تلك الآراء عنه حتى في وصيته الأخيرة، إلا أنها مع ذلك قررت أن تردّ على كلامه وتعارضه مطالبة إياه مرّة أخرى بنشر فحوى الوصية وعرضها على الجميع بالضبط كما أراد لينين قبل وفاته.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أمام إصرار ناديا، بدأ الجبّار ستالين يشعر بالخطر يحوم حوله من كلّ جانب، لكنّه لم ينس أنه على الرّغم من كلّ شيء فإنّ ناديا تبقى امرأة عجوز، وأرملة هدّها الزّمن والوجع، وهي اليوم ليس لديها السلطة والنفوذ كما في الأيام الخالية، إلا أنها تعرف فحوى الوصية وهذا بحدّ ذاته أمر خطير يجب إيقافه بشكل نهائي، وبأيّ شكل من الأشكال وإن اقتضى الأمر أن يستخدم ضدّها سلاح الابتزاز.

وذلك ما حدث فعلا، فهو يملك حقا سلاحا حادّا ويعلم أنه وحده القادر على إسكاتها إلى الأبد، لذا قال لها مهدّدا وهو متأكد من انتصاره عليها: إذا هي نشرت نصّ تلك الوصية، فإنه سيحكي للعالم أجمع من تكون حقّا المرأة التي لم يحبّ لينين غيرها، لأنها كانت زوجته الحقيقية، إنها إينيسّا.

وأمام هذا الابتزاز الصّريح لم يبق أمام ناديا سوى القبول والسكوت. وظلّت فعلا الوصية سرّية كما أراد وشاء ستالين، ولم يتمّ الإعلان عن مضمونها سوى سنة ١٩٥٦

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

(٣١)

خاتمة

بحثا عن إينيسّا

صدفةً التقيتُ بها، كنتُ آنذاك أريدُ أن أؤلِّفَ كتاباً جديداً يكون الحديث فيه بشكل خاصّ عن كيف كان يحبّ أولئك الذين فكّروا في تغيير العالم، وعن الثورة الجنسية بدءا من الآباء المؤسسين لفكر اليسار إلى اليوم، أيْ بشكل وجيز كتابا عن «قصص الحُبّ في اليسار». وكنت قد بدأت فعلا في تجميع مصادر بحثي الجديد هذا، ومرّت بين يديّ أسماء عديدة كماركس وزوجته جيني ومديرة أعمال بيته هيلين ديموث، ثم بالميرو توياتّي وزوجته ريتا مونتانيانا وعشيقته ليونيلد يوتّي التي شغلت منصب أول رئيسة في مجلس النّواب الإيطالي، وكذلك أنطونيو غرامشي والأخوات شُوخْتْ...

وجدتها في بداية عملي وقد كان اسمها إلى جانب اسم لينين، ومنذ تلك اللحظة سُحرتُ بها، وقررتُ عدم التخلّي عنها. ولقد كانت شخصيتها الغامضة بالنسبة لي -نوعا من التجلّي- لا سيما وأنها كانت موصوفة بشكل غير واضح ممّا أثار شغف البحث والسؤال والتقصي عنها بداخلي، وإن كنت أعلم أن ذلك لن يكون بالأمر السّهل أبدا. وكيف يكون كذلك ومعظم الناس من أولئك الذين درسوا تاريخ الثورة البلشفية وظهور الاتحاد السوفيتي لا يعرفون عنها شيئا، وحتّى إن عرفوا، فلا شكّ أن معرفتهم تلك لن تتجاوز حدود الاسم واللقب ليس إلّا.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في اللحظات الأولى عثرتُ فقط على بعض من المعلومات والمقالات المتناثرة هنا وهناك، وكذا على رسالة من رسائلها كانت ضمن ما احتفظ به أرشيف الاتحاد السوفيتي الذي فُتح للعامّة سنة ١٩٩٢. وكان مضمون ما قرأت يشير إلى امرأة بلشفية، شاركت في مؤتمرات القمّة الخاصة بالحزب، وربّما، (أقول ربّما) كانت أيضا عشيقة لينين، وهذه معلومة وردت في البداية بشكل محاط بالشّكِ والحذر.

وبعد ذلك حاولتُ أن أوسّع دائرة بحثي، فاتجهتُ إلى التقصّي عن إينيسّا في دول أخرى، واكتشفت أنه إذا كانت هذه الشخصية غير معروفة في إيطاليا تماما ولم يسبق لأحد أن اهتمّ بها، فإنها في فرنسا وألمانيا وانجلترا وروسيا كانت قد دُرست من قبل باحثين ألّفوا عنها بعضا من الكتب والدراسات التاريخية والبيوغرافية، والتي ذُكر فيها أن إينيسّا كانت عضوة من مجموعة النساء البلشفيات اللائي ساهمن بشكل كبير في تكوين الاتحاد السوفيتي، كما تمّ فيها الحديث عن علاقتها بلينين ولكن بطريقة مختلفة يلفّها الكثير من الغموض والشكوك. وعليه قررتُ أن أحصل على هذه الكتب، وأن أجد رسائلها وخطاباتها المتعددة، ولم أهمل حتى تلك الكتب التي ظهر فيها اسم إينيسّا وإن بشكل سريع وغير معمّق. كلّ هذا كان يعني بأن العمل من أجل تحديد الملامح الرئيسة لشخصية إينيسّا لم يكن سهلا على الإطلاق، ولكنه لم يكن مستحيلا، حتى وإن كانت تنقصني المصادر الإيطالية، وتلك التي توجد كُتبت منذ فترات بعيدة جدّاً.

وأنا بصدد التخلّي تماما عن مشروعي الأول حول «قصص الحبّ في اليسار» من أجل الركض وراء آثار إينيسّا حالفني الحظّ وحدث لي شيء

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

رائع: بينما كنت غارقة في البحث عبر شبكة الإنترنيت على موقع التسوق إيباي، إذا بي أجد كتابا بيوغرافيا نادرا جدّا ولا يوجد في أيّ مكان، وأقصد به ذاك الذي ألّفه الكاتب الفرنسي جورج بردويل عن إينيسّا أرماند، ووضع الإعلان عنه في الموقع التجاري الرّقمي السّيد «بيتروتشو»، وأمام ضربة الحظّ هذه لم يكن أمامي سوى أن أتّصل هاتفيا بـ «بيتروتشو»، وجاءني صوته من الطرف الآخر معلنا لي عن رجل لطيف ولكنه في الوقت نفسه شديد الفضول، ممّا جعل المكالمة تخرج عن إطارها الرسمي لتدخل في مجال الحديث عن المزيد من التفاصيل بشأن هذا الكتاب، فالسيد «بيتروتشو»، لم يكتف فقط بتعهّده بإرسال كتاب بردويل، ولكنه سألني أيضا عن سبب اهتمامي بإينيسّا، فأجبته قائلة: «لا أعرف لماذا بالضّبط، أنا صحفية ومن المحتمل أن أكتب عنها شيئا، لا سيما وأنه لا أحد يعرفها هنا، إضافة إلى كونها شخصية جديرة بالاهتمام»، حينذاك اندهش من الأمر وازداد فضوله فعلّق على جوابي قائلا: «أنا أيضا كنت أريد منذ سنوات عدّة أن أكتب شيئا ما عن إينيسّا، وكان ذلك قبل أن تفتح أرشيفات الاتحاد السوفيتي، كنت أودّ أن أعرف من هي حقيقة إينيسّا، ولكني تركت الأمر برمّته لأنني اكتشفتُ مدى صعوبة تقصّي آثار هذه الشخصية، وسأكون سعيدا للغاية لو تمكنتِ أنتِ من ذلك».

لقد كان «بيتروتشو» سعيدا، لأنني سأقوم بالعمل الذي كان يحلم بتحقيقه منذ سنوات مضت، وكتعبير منه على هذه السعادة قال: «أنا لا أملك فقط هذا الكتاب الذي وجدت الإعلان عنه في الإنترنيت، بل يوجد في حوزتي كتب أخرى عن السيرة الذاتية لإينيسّا، وأقصد بها كتابَيْ إيلوود،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وبيرسون، بل حتّى كتاب فريفيل، سكرتير طوريز، وهي كلها كتب مصوّرة أُرْسِلت لي من فرنسا، وأهديها اليوم لكِ كاملةً».

لا شيء كان يعادل فرحتي أثناء تلك المكالمة، فكما يبدو كان كلّ شيء في تلك الفترة من حياتي يدور حول إينيسّا، إشارات عديدة كانت تصلني من كلّ ما يحيط بي، وكنت أتقبلها بكل رضا وسرور، فهذه المكالمة مثلا كانت بالنسبة لي جوابا يبرّرُ كل ذاك الشغف الذي انتابني فجأة تجاه شخصية إينيسّا وكان يدفعني دفعا للكتابة عنها، ثم إلى هذه الإشارة أضيف أيضا علامة أخرى تلقيتها في نفس الأيام التي كنت أهتم فيها بالموضوع ذاته، ذلك أنني كنت قد قرّرت الكتابة عن إينيسّا في التاسع من تشرين الأول والشروع بالتالي من قصة مراسيم جنازتها والتفاصيل المرتبطة بها، والتي اكتشفتُ صدفة أنّها وقعت أيضا في التاسع من الشهر ذاته ولكن لسنة ١٩٢٠!

بعد هاتين الإشارتين خرجت في نزهة مع زوجي علّني أتمكن من التفكير بشكل أكثر هدوءا وعمقا في الموضوع، خاصة وأنني كنت أتساءل باستمرار في دواخلي عن صحة ما أنا بصدد الإقدام عليه، وهل كانت خطوة التخلّي عن الموضوع الأول من أجل حكاية إينيسّا قرارا صائبا، ثم هل هناك حقّا بين الناس من يعنيه إذا كانت إينيسّا هي عشيقة لينين أم لا؟ وهي ملاحظة سبق وأن طرحها زوجي الذي أعرف جيّدا أنه ليس بشخص متفائل، ولكنه أحيانا يطرح من الأسئلة ما يجعلني أفكّر أكثر من مرّة قبل الإقدام على شيء ما.

وفي طريق العودة من النزهة وجدت مفتاحين، واعتبرت هذا الأمر إشارة أخرى، لا سيما وأنه كثيرا ما يحدث لي أن أجد المفاتيح الضائعة،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وقلت في نفسي، إن هذا يعني (على الأقلّ من وجهة نظري)، أنه عليّ أن أستمرّ في الكتابة عن إينيسّا.

وبالتفكير مرّة أخرى في ذاك الحوار الهاتفي مع «بيتروتشو» وفيما تبعه من مصادفات لم يعد من المنطقي أبدا العدول عن قراري وترك الأشياء كلها للصدفة والأقدار. لكن ثمة بعض من العراقيل التي يجب تجاوزها من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، وأعني بها قلقي على أن تتعرض تلك الكتب النفيسة وهي قادمة عبر البريد إلى الضياع، ثم من يدري فلربما يغيّر السيد «بيتروتشو» نفسه رأيه، لذا وجدتني أسأله في الهاتف بشكل مباشر قائلة: «أين تسكن؟»، «في بيادينا، بين مانتوفا وكريمونا» قال مجيبا، وفي تلك اللحظة قلت له إنني بعد بضعة أيام سأكون في فيرونا لأسباب تتعلق بالعمل، وسأنتهز الفرصة للمرور عنده لآخذ الكتب شخصيا. طبعا لم أرو له الحقيقة كاملة، لأن السبب الحقيقي والمباشر لسفري، كان الحصول على تلك الكتب، وليس لأنني سأكون بتلك المنطقة من أجل العمل.

حينما وصلت وجدت «بيتروتشو» بانتظاري في بيت صغير ممتلئ بالكتب في ضواحي مدينة بيادينا. إنه رجل مثقف، على علم بأشياء كثيرة في الحياة، مهذب ولطيف، ويقضي سنوات تقاعده عن العمل في القراءة والدراسة، لا سيما وأنه لا يملك جهاز تلفزيون وهذا أمر يفتخر به كثيرا. لقد كان شيوعيا وعن إينيسّا كان يعرف أشياء كثيرة، لدرجة أنه كان يتحدث عنها بنوع من الحنين وكأنها حلم لم يتحقق، ولكنه ظل يتحسسه بدواخله ليقرأ من خلاله الحاضر بنوع من التهكّم والسخرية اللذان غالبا ما يساعدان الإنسان على عدم تقبل الواقع كما هو.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إضافة إلى الكتب التي سلمني إياها، زودني بالعديد من المعلومات ودلّني على المكتبةِ السّمعية البصرية الخاصّة بمؤسسة الإذاعة والتلفزيون الإيطاليَيْن والتي يوجد بها فيلم قصير جدّا عن مراسيم جنازة إينيسّا. كما أوصاني بأن أسأل عن أوقات الدّوام بالمتحف الخاص بها، والمتواجد ببوشكينو، أيْ في المدينة الصغيرة التي قضت بها سنوات عدّة من حياتها ولا تبعد عن موسكو سوى ببضعة كيلومترات. وبينما أنا أنصت إلى نصائحه واقتراحاته القيمة فهمت أنني في تلك اللحظات كنت أمام رجل كان يسّلمني القصّة التي لم يستطع كتابتها، أيْ أمام شاهد كان يسلمني المفاتيح بنوع من الشوق والحنين لماض بعيد، وما كان منّي سوى أن وعدته بأنني سأخبره بسير العمل في حالة ما قررت بشكل نهائي المضي قدما في رحلتي مع إينيسّا.

كنتُ متحمّسة للرجوع إلى البيت بأسرع وقت ممكن من أجل الاطلاع على صور إينيسّا: كم هي جميلة هذه المرأة، وليس هذا فحسب بل قرأت عنها فيما حملت معي من كتب أنها كانت في الواقع أجمل بكثير من الصور. وعليه بدأت في تصفح كل شيء عنها بنوع من النهم الذي كان يزداد كل يوم أكثر فأكثر وكلما بدأت تتراكم المصادر والمراجع كل يوم فوق طاولتي.

وإلى الكتب التي حملتها معي من بيادينا، بدأت تصلني كتب أخرى من ألمانيا، وأوزبكستان، ومن مكتبات بعض الأصدقاء الذين تذكروا فجأة أن بحوزتهم ما قد يفيدني بشأنها. وعليه وجدت نفسي أنطلق من نقطة إلى أخرى، ومن إشارة إلى جملة ذكر فيها اسمها، وبدأت أحفر وأقارن بين كل المعطيات المتجمعة عندي، وقلت في نفسي إنه أصبح من الضروري الآن أن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أقرأ عنها حتى ما كتب بلغات أخرى، وإن كنت لا أجيدها أو لا أعرفها تماما، وبدأت في التفكير أيضا بالعثور على مترجمين قد يساعدونني في حلّ معضلة القراءة بلغات أجهلها تماما.

من هنا انطلقت مغامرتي ورحلتي الجديدة، إلى أن انتبهت ذات يوم إلى حقيقة في غاية الأهمية حينما كنت أتصفح بعض المصادر والمراجع عن إينيسّا على الساعة الثالثة صباحا: إن الذي كان يشدني إلى هذه المرأة، ليس شغف الدراسة والبحث وحسّ الفضول الصحفي بداخلي، وإنما شيء أكبر وأعمق؛ لقد كنت أريد أن أعيد الاعتبار لهذه المرأة التي تجاهلها التاريخ، وكنت أيضا أريد أن أفهم ما حاول الآخرون إخفاءه، وكان لا يساورني شكّ أبدا، في فهم إينيسّا كما لم يفهمها ويتفهّمها أحد من قبل، أو بطريقة، كنت على يقين أنّ حياة إينيسّا ستفصح لي عن كل تلك الأشياء التي لم تُرد هي نفسها أو لم تستطع أن تحكيها للآخرين في الوقت المناسب.

أن أكتشف إينيسّا وقصة العشق السرّي الذي كان يجمعها بفلاديمير إيليتش، كان في الواقع رحلة حرّكتها المحبّة والشغف، لأن كل قراءة لها، وكلّ بحث عنها أصبحا بالنسبة لي موعدا ولقاء مع أصدقاء بتُّ أعرفهم، وأصبحت بشكل أو بآخر لهم القدرة على كشف العديد من الأسرار لي دونا عن غيري.

واكتشفت أيضا، أنه إذا كان الدارس يبحث عن معلومات وأخبار رسمية بشأن إينيسّا فإنه سيجد منها الكثير حتى تلك التي تتعلق بفترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، فهناك الأرشيفات، والمكتبات الروسية منها على وجه الخصوص التي تحتضن العديد من الوثائق والمصادر عن هذه الشخصية

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

المميّزة. إذ توجد على سبيل المثال مجموعة من الكتابات الخاصّة بها، وكذلك كتاب جماعي نشر سنة ١٩٢٦ بمناسبة الإحياء السنوي لذكراها، ثم هناك أفلام رسمية عديدة، إضافة إلى مذكرات لينين وناديا كروبسكايا، دون نسيان السّيَر الذاتية سواء منها تلك المكتوبة من طرف الجهات الرسمية أو تلك التي كتبها عنها مجرد أشخاص عاديين يهتمون بالشأن التاريخي أو السياسي لإينيسّا. ناهيك عن رجال التأريخ بمن فيهم أولئك الذين كتبوا القصة "الحقيقية" للثورة البلشفية ولم يستطيعوا إغفال الحديث عن إينيسّا وإن بشكل عابر من خلال حديثهم عن حياة فلاديمير إيليتش، أو من خلال تطرقهم لقضايا الإصلاحات المتعلقة بالنساء البلشفيات في أوائل سنوات ما بعد الثورة. والجدير بالذكر أنه حتى أمام شحّ المعلومات وكذا التفاصيل فإنني حاولت كلّ جهدي أن أجمع من الخيوط ما يمكنني من نسج حقيقي لصورة متكاملة عن هذه الشخصية التي لم تحظ بعناية التاريخ كما يجب.

أما بالنسبة للتاريخ الذي سجلته الجهات الرسمية والأجهزة الدولية العليا للاتحاد السوفيتي فإنه يتحدث عن إينيسّا كامرأة بلشفية ثورية، منضبطة وعالية الثقافة، منحت حياتها للحزب، وكانت دائمة متأهبة للعمل المستمرّ من أجل بناء الدولة السوفيتية. وأما بالنسبة للجانب الخاص بعلاقتها مع لينين، فإنّ ذلك كان مرده إلى حرصها على التفاني وإنكار الذات في كل ما يمكنه أن يكون خدمة في سبيل الدولة الجديدة، وهي خصال دفعت لينين -وهو الشخص المعروف بحذره الشديد- إلى أن يثق بها إلى أبعد الحدود وبشكل مطلق سواء قبل أو بعد الثورة، لدرجة أنه جعل منها رئيسة قسم الشؤون النسائية في اللجنة المركزية للحزب البلشفي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

(زينوتديل)، وهو المنصب الذي بموجبه أصبحت أهمّ امرأة في روسيا. إضافة إلى هذا فإنّ إينيسّا كانت من النساء القليلات اللائي حظين بحرية العمل مع زعيم الثورة، وبشرف الدفن في «المقبرة الحمراء»، إلى جانب جون ريد أمام أسوار قصر الكرملين، مع كبار رجال الثورة.

وعلى الرغم من كل شيء، تبقى الصورة التي قدّمتها المصادر الرّسمية عن شخصية إينيسا غير مكتملة وفي كثير من الأحيان غير واضحة. وحتى تلك الكتب التي اهتمت بسيرتها الذاتية والحياتية كانت كلها مدونة من طرف رجال مهما كانت درجة حرفيتهم وثقافتهم وإحاطتهم بموضوع كتاباتهم ودراساتهم، فإني أعتقد أنهم أغفلوا بعض الجوانب من حياة هذه المرأة، ولم يتمكنوا من الإمساك بها، أو البحث عنها بشكل أكثر عمقا وتبصّراً. ولعل خير ما يمكن قوله في هذا الإطار، إنّ إينيسّا كانت تهرب من الجميع، ولا تتجلّى بشكل كامل، إلا لمن يعرف المعنى الحقيقي للبحث عنها، والجري وراء آثارها.

لقد كان من الصعب جدّا فهم طبيعة العلاقة التي كانت تجمعها بلينين، فهل يا ترى كان الأمر يتعلق بمجرد صديقة لأسرته، وبالتالي المرأة التي وثق بها وبتفانيها في العمل من أجل القضية كما أكدت ذلك المصادر التاريخية الرسمية؟ أم أنها كانت شيئا آخر غير هذا كلّه، أيْ «عشيقته»، كما شهد بذلك العديد من رجال التأريخ وإن بشكل وبنظرة ذكوريتين تماما؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل حقّا ظلّ لينين يحبّها لما يقارب أحد عشرة سنة كاملة، وإلى أن وافتها المنية في القوقاز؟ ثم كيف كان هذا الحبّ؟ بل كيف عاشا حكايته معا؟ هذه الحكاية التي ظلت محاطة بالغموض لسنوات عدّة،

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والتي بشأنها اكتشفتُ عبر قراءاتي للعديد من المراجع أنه لم يكن بالأمر السهل أبدا إعطاء جواب نهائي حول مدى صحة وجود هذه العلاقة بين الاثنين من الأساس. وحتى تلك المصادر التي يصل تاريخها إلى حدود سنة ١٩٩٢، لم أجد بها سوى بعضٍ من الجُمل والتلميحات المتناثرة هنا وهناك، والتي يمكن أن تسمّى بلغة اليوم؛ مجرّد إشاعات إعلامية لا أقلّ ولا أكثر.

في الكتاب البيوغرافي الذي ألفه الشيوعي الفرنسي والديبلوماسي مارسيل بودي المقيم في النرويج عن أليكساندرا كولونتاي، وجدتُ جملة إيحائية سبق وقالتها له أليكساندرا نفسها على إثر ما لاحظتْهُ من حزن لينين الشديد أثناء مراسيم جنازة إينيسّا. وليس هذا فحسب، لقد وجدتُ أيضاً جملة أخرى نطقتْ بها وبكلّ صراحة هذه المرّة أنجيلكا بالابانوف للشيوعي الأمريكي بيرترام وولف: «لقد كان لينين يحبّ إينيسّا، ولا أظنُّ الأمرَ غير أخلاقيّ، مادام الرجلُ قد سبق له وأعلم زوجته بكلّ شيء».

وإضافةً إلى هذا قرأتُ ما صرّح بهِ الفرنسيّ الروسيّ شارل رابّبور، مؤسس الحلقات العمّالية الإسرائيلية والذي سبق له وأن انتبه هو الآخر إلى مدى اهتمام زعيم الثورة وإعجابه بإينيسّا منذ أوّل لحظة رآها فيها بإحدى مقاهي باريس: «لم يتوقف عن التحديق بعينيه المغوليتيّ الشكل في تلك الفرنسية الصغيرة».

ومن ضمن ما اطلّعتُ عليه أيضا، كانت هناك مقالات برترام وولف المنشورة في مجلة «سلافيك ريفيو» والتي كان يشير فيها سواء إلى وجود علاقة محتملة بين الاثنين، مع شكوك حول عيشهما لوحدهما فقط ولبضعة أسابيع في باريس سنة ١٩١٤. وهي نفسها المقالات التي نُشرت فيما بعد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على صفحات جريدة التايمز سنة ١٩٦٤ وتسبّبت في طرد الصحفي المراسل وإغلاق مكتب المراسلات بموسكو.

كما يحكى أنّ الزعيم الثوري المعروف لدى الجميع بصرامته وحزمه وكذا بترفعه عن الصغائر، كان ينادي إينيسّا باسمها مباشرة دون استعمال صيغة الجمع أو ما يشابهها من تحفّظ لغوي، أو مسافة معنوية تفصل بين الاثنين، وهو التصرف الذي لا يقوم به لينين عادة إلا مع الأشخاص المقربين منه جدّا، كوالدته، وأخواته ثم زوجته. وإضافة إلى كل هذه المعلومات، يذكر أنّ لينين كان قد توجه بنفس نبرة التباسط في الحديث والاستغناء عن صيغة الجمع التخاطبيّ في إحدى رسائله الموجهة إلى ماراتوف قبل أن تحدث بينهما القطيعة السياسية، وكذا في رسائله المرسلة إلى كرزيزانوفسكي الذي كان يعيش معه في نفس الزنزانة أيّام المنفى بسيبيريا.

وإلى كلّ هذا أضيف موقف سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي لويس أراغون الذي اقترح على المؤرّخ وكاتب سيرة إينيسّا جورج بردويل، أن ينقّب أكثر فأكثر في تفاصيل حياة هذه المرأة التي لم تكن بالنسبة للينين فقط رفيقة العمل الثوري، وهو الموقف الذي يؤكّد أن حتى لويس كان يملك بعض المعلومات التي كان يودّ التأكّد من دقّتها. كما لا أنسى طبعا ذِكر ما قاله أيضا سولزينسين حينما صوّر لينين كرجل عاشق إلى درجة الاستلاب، فهل كان ياترى محقّا فيما ذهب إليه، أمْ أنَّ الأمر برمّته مجرّد خيال تمادت في تصعيده مخيّلة كاتب كسولزينسين؟!

أمّا عن آراء المعارضين السياسيين، فالأمر يختلف طبعا، فهم يركّزون بشكل أكبر على صورة القائد البلشفي المفترض فيه أن تكون صورته مثالا

للحزم والصرّامة في حين أن لينين ماهو في الواقع من وجهة نظرهم سوى رجل يجري وراء أهوائه وغرائزه وقصص حبّه الكثيرة مع نساء عدّة، وما إينيسّا سوى واحدة منهنّ، فهل ياترى ثمة شيء من الحقيقة فيما قالوه، أم أنّ الأمر مجرّد طعن واضح في سمعة زعيم البلاشفة!

وعلى ذكر آراء معارضيه السياسيين، لا يمكن أن ننكر طبعا رأي رجال البوليس السرّي الذين قالوا بشكل مباشر وصريح إن إينيسّا هي «عشيقة لينين». كما لا تفوتني الإشارة إلى تلك المراسلات المكثفة التي أصبح يمطر بها إينيسّا بعد أن انفصلا عن بعضهما البعض، صحيح أن معظمها كان يتعلّق بالعمل وتفاصيله، ولكن هذا لم يمنع من أن بينها كانت توجد أيضا رسائل يتحدثان فيها عن أحوالهما الصحية وعلاقتهما، وهي نفسها الرسائل التي تمّ التدخّلُ فيها بيد الرقابة في أماكن بقي أثرها واضحا فوق الورق، لأنه كان يوجد فيها أشياء كانت تتجاوز مجرّد الحديث عن السياسة كبعض من لحظات الاشتياق والحنين والمحبّة والقلق، والغضب أيضا، وكذا الشعور بالضعف، أيْ بشكل عام نوعا من المشاعر الحميمة. لكن يبقى مهمّا القول إنّ كل هذه الأشياء كانت تشكل نوعا من الإشارات وليست أدلّة قاطعة، إذ يمكن القول أيضا إنّ هذه التهمة والشك في وجود علاقة حميمة بين الاثنين ربّما كان مردّهما فقط إلى كونهما كانا يعملان معا لأوقات طويلة، وكانت تجمع بينهما صداقة متينة، حتى في سنوات المنفى، ولربّما لأنهما في باريس وسويسرا كانا يقطنان في منزلين لا تفصل بينهما مسافة طويلة، لأن ذلك كان أمرا ضروريا لتسيير أمور العمل بشكل جيّد وإن اقتضى الأمر أن تقضي إينيسّا عطلتها مع أسرة لينين، ولِمَ لا، وهو الذي كان يعتمد عليها في

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلّ شيء، خاصّة في سنوات البداية الصعبة والشاقة حينما كان محتاجا لعضو مهمّ مثل إينيسّا التي عرفت بإتقانها الجيّد لأربع لغات، لا سيما أنّ زوجته ناديا كروبسكايا لم يكن لديها من الإمكانيات ما يكفي لسدّ كلّ احتياجات الحزب والقضية، ولا حتى صديقيْه كامينيف وزينوفيف كانا يقدران على مدّ يد المساعدة إليه بنفس الحرفية والمهارة التي كانت تقوم بها إينيسّا، أو لنقل إنه ربّما كانا غير راغبين بذلك. فهل يمكن القول ختاما إنّه قد وقعَ الخطأ في تقييم صداقة الاثنين المتينة فنعتوها بالعلاقة العاطفية في حين أنها لم تكن كذلك بتاتا؟!

ظلّ الغموض يلفّ هذه القضية لسنين عدّة، وظلّ الناس منقسمين إلى «فريقين»، كلّ منهما يحمل تأويلات وآراء مختلفة عن الآخر، فالفريق الأوّل والذي يمكننا أن نسمّيه بـ «الرّومانسي» كان يعتقد يقينا أن الاثنين ربطتهما قصّة حبّ قوية أدّت إلى تقليص الدّور القيادي لإينيسّا وقيمتها التاريخية والسياسية. أمّا الفريق الثاني فكان يرى أنه لا يمكن تأطير إينيسّا بهذا الشكل المتذبذب والضعيف، لأنّها كانت امرأة قوية وذات شخصية ثورية وطبيعي أن تحاك ضدّها المؤامرات والإشاعات للمسّ بصورتها كأقوى امرأة في الاتحاد السوفيتي آنذاك.

هذا التضارب في الأفكار والآراء بين الفريقين بحدّ ذاته أمر يثير الشكوك والظنون، فأنا لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يتّفق كلا الفريقين على رأي واحد، كأن يقولا مثلا إنّ إينيسّا كانت حقّا امرأة مناضلة وثورية تدافع عن حقوق المرأة، ولكنها في الوقت ذاته كانت تحبّ لينين الذي لن ينقص من أمر صرامته وحزمه، ولا من قوة شخصيته السياسية إذا ما قيل في حقه إنه هو الآخر كان متيّماً بإينيسّا!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كما أنّني أستغرب كيف تتضارب آراء الفريقين دون أن يفكّر أحد منهما في أنّ علاقة لينين بإينيسّا كانت كأيّة علاقة حبّ أخرى، من الممكن أن تتخلّلها لحظات البين والخصام، وكذا لحظات الودّ والوئام. وبما أنّ علاقتهما دامت لما يقارب الأحد عشرة سنة، فمن الممكن جدّا أن تتغير خلالها طبيعة مشاعر الطرفين، فلماذا إذن وبدل تمييع هذه العلاقة والحديث عنها بهذا المنحى التبسيطيّ للأمور، لا يقوم كلّا من الفريقين أو أحدهما بدراسة الجوانب الحسّاسة والمعقّدة في هذه القصّة؟!

وبعيدا عن نبرة الجدال والمحاججة، فإنه لا يمكن أن ننكر اليوم بأن الأوضاع والظروف قد تغيّرت تماما، وأن ما كان يحاول الجميع إخفاءه أو الحديث عنه بنوع من الحذر والحيطة، أصبح ظاهرا للجميع ولا مجال للشكّ فيه، لا سيما وأنه قد فُتحت الأرشيفات التاريخية مباشرة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وظهرت الرسالة التي كتبتها إينيسّا في باريس، ووُجدت في علبة لم يسبق لأحد أن فتحها من قبل، لأنّ الرسالة نفسها لم تصل أبدا إلى صاحبها، مع العلم أنها تبقى الدليل الوحيد على أنّ ما كان بين الاثنين هو علاقة حبّ.

ومن هذا المنطلق أصبح أمرا مشروعا طرح العديد من الأسئلة من قبيل: كيف عاشا الاثنان حكاية حبّهما تلك، سواء حينما كانا في المنفى أو خلال السنوات الأولى من الثورة في روسيا؟ وكيف استطاعا أن يوفّقا بين مشاعر الحبّ والعمل من أجل القضية؟ وما آثار هذه القصّة على حياتهما وكذلك على حياة ناديا كروبسكايا؟ وماذا عن إينيسّا نفسها، كيف عاشت هذا العشق السرّيّ والمستحيل؟

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عن هذه الأسئلة وغيرها وعلى الرغم من اكتشاف تلك الرسالة المهمّة لم يستطع أحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أن يقدّم الجواب الشافي أو المقنع، لأنّ الأمر كان حقّا صعبا للغاية، ويستدعي التقاط الإشارات ومعرفة تأويلها جيّدا على ضوء الأحداث الجديدة بما فيها تلك المتعلّقة بالقراءات الرّسميّة للتاريخ. خلاصة القول؛ كان الأمر صعبا، لكنه لم يكن مستحيلا، ويستحق فعلا عناء المحاولة، وخوض بحار المغامرة من أجل فكّ لغز إينيسّا ولينين.

ما من شكّ أنني قضيتُ العديد من الأيام في قراءة الكتب من أجل استيعاب حكاية إينيسّا ولينين بشكل أكثر عمقا وجدّية، لكنني اكتشفتُ فيما بعد أنّ الكتبَ وحدها لم تعد تكفيني وبدأت في التفكير بزيارة الأماكن التي عاشت فيها إينيسّا، وتلك التي التقت فيها بلينين. كنتُ أعلم أنني لن أرى أشياء لم يكتشفها بعد أحد، ولكني أحسّ بضرورة رؤية تلك الأماكن التي عاشا فيها، لأنني أريد أن أفهم وأقرأ العلامات والإشارات بعين مختلفة، ومن يدري ربّما أجد تفسيرا لكل تلك الأشياء التي ظلت غامضة عن الناس لسنوات عدّة، فمثلا ما معنى ألّا يفصل بين منزليْهما في باريس سوى بضعة خطوات؟ وهل يوجد اليوم أثر لذكرى إينيسّا في عهد بوتين وموسكو الأوليغارشية؟ وكيف كانت كراكوف، أوِ المدينة التي تفتّحت فيها زهرة حبّهما، والتي كانت شاهدة أيضا على لحظات فراقهما؟

للإجابة عنْ كلِّ هذه الأسئلة المُلحّة، كان لا بدّ من الذهاب إلى باريس، هناك حيث حسبتُ عدد الخطوات التي تفصل بين منزلَيْهِما في حيّ ماري

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

روز، وعاينتُ أيضا المكان الذي كان يوجد به مقهى دي مانيّور، كما وجدتُ مقهىً آخر صاخباً وضاجّا بالناس، ربّما كان نفسه المقهى الذي التقى فيه أوّل مرّة لينين بإينيسّا. في هذا الركن من باريس كانت الأماكن تذكّر بدفء روسيا وتشيع عطرا مفعما بالحنين إلى الوطن البعيد، ولعلّه نفسه هذا العبق الروسي-الباريسيّ الذي جعل العاشقيْن يحبّان بشكل عميق باريس مدينة النّور.

روسيا كانت محطّتي الأخيرة، إذا لا يعقل أن أذهب للبحث عن آثار إينيسّا في باريس، وأنسى موسكو وماجاورها من المدن والمناطق التي عاشت فيها هي ولينين، ولقد كانت سان بطرسبورغ أولى محطّاتي، طبعا لم أجد فيها ما يذكّرني بروسيا التي زرتها في نهاية الثمانينيات حينما كانت موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي، ولكنها على الرغم من مظهرها الرأسمالي الجديد فإنّ موسكو ما زالت لم تفقد جمالها السّاحر وصخبها وضجيجها القديم.

في هذه المدينة التي تتزاوج فيها أمجاد الماضي بإنجازات الحاضر، رأيْتُ صورة لينين في كلّ مكان: بالسّاحات الكبرى، داخل الأنفاق، في محطّات القطارات، وفي الحدائق؛ لقد كان حاضرا بسبّابته المرفوعة إلى أعلى ونظرته الصّارمة، ومعه رأيتُ أيضا الفلاحين والعمّال والنساء والبحّارة، وكلّ الأيقونات الخاصّة بتشرين الأول وبثورة الاتحاد السوفيتي الكبيرة. وإلى جانب كلّ هذا رأيتُ شاهدا حجريا تذكاريا بشارع موكوفايا يشير إلى المكان الذي كانت تعيش فيه إينيسّا بعد الثورة، وهو قريب جدّا من قصر الكرملين، ممّا يعني أنها كانت حقّا لا تقطع سوى مسافة قصيرة للوصول إلى منزل أو مكتب لينين.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من ساحة المحطة، وصلتُ إلى العنوان الذي سبق وكتبه لي صديقي بيتروتشو فوق قصاصة صغيرة من الورق: [بروسبيكت، إينيسّا أرماند، ١٣]، وهو عبارة عن زقاق صغير يحمل نفس اسم العنوان، ويوجد في أكبر الشوارع الرئيسة للمنطقة.

في هذا العنوان كان من المفترض أن أجد ذاك البيت-المتحف الذي حدثني عنه بيتروشو، إلا أنني تفاجأت تماما عند وصولي، ذلك أنّ البيت الذي قصدته لم يكن له أيّة علاقة بتاتا بإينيسّا لا من بعيد ولا من قريب، لأنه ببساطة كان بيت الأستاذ الجامعي روسلان هَايرولّين، الذي رحّب بي وزوجته الكريمة أيّما ترحيب كما يفعل عادة الروسيون وهم أهل كرم وضيافة، ووعداني بأن يساعداني في اكتشاف المزيد عن إينيسّا في هذه المنطقة المجاورة لموسكو.

سافرتُ أيضا إلى بوشكينو، أو البلدة التي عاشت فيها إينيسّا لسنوات عدّة مع جدّتها وخالتها حينما كانت صغيرة، أو مع زوجها في بيت عائلة أرماند الكبير. وإني لأذكر للحظة ما قاله لي صديقي بيتروتشو عن المتحف أو البيت الصغير الذي يوجد في هذه القرية، لست متأكّدة من الأمر، ولكنه على الأقل أعطاني عنوانا قارّا لأقصده عند الحاجة.

للوصول إلى هذه القرية كان عليّ أن آخذ القطَار من محطّة ياروسلافسكي، وهي تاسع أشهر محطّات العاصمة الروسية، وهي نفسُها التي تنطلق منها قطارات ترانسيبيريانا. وصلتُ بعد ساعة من الزمن تقريباً، وتذكرتُ كيف أن إينيسّا قامت بمثل هذه الرّحلة للعديد من المرّات، ولا أظن أن القرية قد تغيّرت كثيرا عمّا كانت عليه أثناء حياتها. أجل، مازال

هناك كلّ شيء يذكّر بها: الشوارع التي تحمل اسمها، البيوت التي كان يسكنها العمّال، ومصانع النسيج المهجورة والمتواجدة وسط الغابات والأحراش، ثم القباب الزّرْقُ الرائعة لكنيسة سان نيكولاي التي تمّ فيها عقد قران إينيسّا وأليكساندر أرماند. وحتى تكتمل الصورة عندي اقترح عليّ الأستاذ روسلان هايرولّين أن يرافقني إلى متحف القرية الذي يُحتفظ فيه بكل ذكريات عائلة أرماند، والتي بإمكاني أن أجد فيها حتماً شيئا يتعلّق بالمرأة التي أنا بصدد تأليف كتاب عنها.

هأنذا الآن هناك، بعد أن قطعتُ ما كان قد تبقّى لي من كيلومترات مشيا على الأقدام تحت الشمس القائظة. والمتحف عبارة عن بيت خشبيّ صغير متكوّن من ثلاث غرف تجمع بين الأشياء النادرة ذات القيمة العالية، وكذا بين الأشياء التي لا قيمة لها بتاتا. وهاهو مدير المتحف يتقدّم نحوي، ويُريني خزانة من الزجاج خاصة بإينيسّا، وفيها قد تمّ تجميع نظاراتها الطبية، وفنجان ثم كرسيّ. وهو وإن كان فخورا بتواجدي عندهم كسائحة أجنبية إلا أنه لا تعنيه إينيسّا في شيء بقدر ما تعنيه عائلة أرماند الكبيرة التي وهبت العمل للعديد من أسر هذه القرية، أما عن علاقة لينين بإينيسا فيمكننا القول أنها هي الأخرى لا تثير اهتمامه، أو لنقل أنه كان يتظاهر بعدم معرفته أيّ شيء عن حكاية هذه المرأة مع زعيم الثورة البلشفية.

ومن ضمن ما روى لي مدير المتحف باللغة الروسية مستعينا طبعا بترجمة الأستاذ روسلان هايرولّين، تاريخ أسرة أرماند من خلال الصور الجماعية مع عمّال شركات النسيج الكبيرة. إضافة إلى هذا، لاحظت أنّ هذا المتحف وإن كان عبارة عن بيت صغير جدّا ولا يتكون إلا من ثلاث غرف، إلا أن

عدد الموظفين فيه كان يصل إلى أربعة أشخاص، ولربّما هذا مردّه إلى بعض ما ورث عن العهد الاشتراكي.

ضمن الموظفين كانت هناك فتاة سمراء بعينين خضراوين، تنصت في صمت إلى ما كان يدور من حديث بيني وبين مدير المتحف، والتي على ما يبدو ساءها غياب الأجوبة الصريحة والشافية عن ما كنت أبحثُ عنه حقّا وحقيقة، لذا، قررت أن تخرج عن صمتها واقتربت منّي وهي ترمقني بنظرات فيها نوع من التضامن والتعاطف (أو على الأقلّ كان هذا ما شعرتُ به)، وقالت: «تعالي معي». تبعتها وصعدنا عبر سلّم قديم ومتهالك إلى غرفة رابعة، كانت تبدو لأول وهلة ألّا شيء فيها يدعو إلى الاهتمام أو الفحص، لكنني كنت مخطئة فيما ذهبت إليه، ذلك أنّ الفتاة أشارت إلى ركن كانت هي من يشرف عليه ويعتني به شخصيا، وفيه يوجد تمثالان؛ واحد نصفيّ يُجسّد إينيسّا، والآخر كامل ويمثّل لينين وخلفهما علم أحمر وقد غرست فيه العديد من النياشين والأشرطة، حتى بدا الركن وكأنه مذبح كنيسي صغير، جمعت فيه الفتاة بين إينيسّا وفلاديمير إيليتش، حتى يكون في ذلك إشارة لما كان يجمعهما من حبّ، ممّا دفعني إلى أن أظهر لها نوعاً من التحمّس لرأيها، فكان أن تشجّعت أكثر فأكثر واقتربت منّي قائلة: «لقد كانا يحبّان بعضهما بعضا حتى النهاية، وأنجبا معا طفلين»، لم أرد أن أخيّب ظنّها، فأنا قرأت الكثير عن إينيسّا وأعلم جيّدا أن ما قالته لي توّا هذه الشابة السمراء لا بدّ أن يكون مجرّد إشاعة. صحيح أنه قيل عنها أنها أنجبت ولدا من لينين، لكن أن يكون لها منه اثنان فهذا ما يصعب عليّ تصديقه، لذا قلت للشابّة السمراء محاولة ألا أظهر لها ما أمكن شكّي وعدم تصديقي للخبر:

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ألا تعتقدين، أنه لو كان الأمر كذلك، لعرف به الجميع في روسيا؟»، «لقد كان ذلك في فرنسا»، ردّت الفتاة بحزم لتؤكّد صحّة ماقالته، حينذاك لم يبق لي سوى أن ألتزم بالصمت، في حين بقيت هي تنظر بحنان إلى التمثالين وقد رسمت على وجهها علامات الرضا والطمأنينة لأنها استطاعت أخيرا أن تبوح لأحد ما بما تعرفه وتشرح له سبب مبادرتها تلك في الحفاظ على هذا السرّ، ولقد كنت أنا أيضا سعيدة مثلها لأنني عثرت على دليل صغير على ما كنت أبحث عنه، وقد حدثتني عنه هذه الشابة السمراء التي عاشت معظم حياتها في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وعليه فإنّ ذاك الركن الصغير في الطابق العلوي من المتحف لا يعني سوى شيء واحدٍ: لقد بقي من حبّ لينين وإينيسا أثر وعلامة يدلّان عليه، ولم تستطع أن تمحوه السنون ولا النظام ولا العهد الستاليني.

ما زلت أبحث عن أدلّة أخرى، ولا يعنيني هذه المرّة إذا كانت في الاتجاه المعاكس، لذا عليّ أن أذهب إلى مكان يوجد على بعد عشرة كيلومترات من موسكو.

سبق وقلتُ إنّ السّمة الغالبة على العاصمة الروسية هي كثرة التماثيل واللوحات التي تُجسّد لينين، إنها في كل مكان، وهذا أمر يدلّ على أنّ الروسيين لا ينكرون شيئا من تاريخهم ولا من ذكريات ثورة ١٩١٧ التي مازالت لليوم حاضرة وتتعايش مع بذخ المتاجر الكبيرة وجنون التسوّق، وحبّ الشراء والتعلّق بمختلف مظاهره.

في سان بطرسبورغ، مازال ذلك الفضاء الشاسع الذي يوجد أمام عمارة سْمولني يحمل لليوم اسم ساحة الدكتاتورية العمالية، وهي الساحة التي

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان قد اختارها لينين خلال ثورة تشرين الأول سنة ١٩١٧ كحيّ عامّ يقيم فيه البلاشفة، ولم يفكّر أحد لليوم بتغيير اسمه، ذلك أنه رغما عن كلّ شيء فالروسيون فخورون جدّا بثورة الماضي، لكنهم لا يريدون في الوقت ذاته أن تعيق الحاضر، أو أن تقف حجرة عثرة أمام تقدّمه، وهذا أمر لا يؤكده سوى ما قاموا به حينما نقلوا منزل لينين ومكتبه من قصر الكرملين إلى مكان آخر، وهو المكتب الذي مازلتُ أتذكّر منه حينما زرته سنة ١٩٨٦ في العهد الغورباتشوفيّ المصباح الأخضر، والكتب المرصوصة فوق الرفوف وصورة ماركس المعلّقة على الجدار، والذي أريد اليوم زيارته مرّة أخرى لألقي عليه نظرة مختلفة على ضوء ما اجتمع عندي من معلومات جديدة، لا سيما وأنني أعرف أنّ إينيسا ولينين كانا يلتقيان فيه باستمرار.

ولتحقيق هذه الرغبة ما كان عليّ سوى أن أبحث عبر شبكة الإنترنيت عن عنوان المكان الذي تمّ نقل هذا المكتب إليه، وتمّ لي ما أردتُ بالفعل - ببركة هذه التقنيات والمعلوميات الجديدة- ذلك أنني اكتشفت أنّ المكتب أصبح في مدينة أخرى غير بعيدة عن موسكو اسمها غوركي لينينسكي.

استقلّيتُ مترو الأنفاق، ثم نزلتُ بمدينة دوموديدوفو، وبعد ذلك ركبتُ حافلة صغيرة أخذتني إلى مُلتقىً طرقيٍّ به لافتة تحمل اسم المدينة التي أقصدها. وهناك عبرتُ مشياً على الأقدام حيّاً شعبيّا، لاحظتُ فيه وجود بعض العمارات المدهونة بألوان مختلفة، وحدائق للأطفال، ثم تقدّمتُ في المسير إلى أن وجدتُ نفسي وسط الحقول لأنّ الناس أخبروني بأنّ ما أبحث عنه يوجد في هذه المنطقة، وأنه ما عليّ سوى تتبّع اللافتات الخشبية. وبينما كنت أتأمل أشجار البتول والخيول والبيوت الخشبية

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الصغيرة، إذا بسؤال يخطر ببالي بشكل ملحّ، لا أجد مانعا من تشاركه معكم: ألم يجد الروسيون مكانا آخر غير هذا لينقلوا إليه مكتب ومنزل لينين؟ ثم لماذا بالضبط هذه المنطقة النائية جدّا عن العاصمة الروسية؟!

مازلت لم أصل، ومازالت أمامي مسافة طويلة عليّ أن أمشيها كاملة، وصدقا أقول لم أشعر بطعم الفَرَج إلا بعد أن رفعتُ عينيّ وظهرت أخيرا أمامي بناية ضخمة من الطراز الحديث جدرانها من مرمر وزجاجها سميك جدّا وغامق اللون، عندها تنفّستُ الصعداء، ودخلتُ وكلّي يقين بأنني وصلت حتما إلى المكان المنشود.

كان المكان مهيبا، وخلف ذاك الزجاج الغامق لم أجد أحدا، وبقيت أنتظر علّ شخصا ما يظهر فأستفسر منه عن الطريق المؤدية مباشرة إلى المكتب، ومن حسن حظي، ظهرت أخيرا شابّة بتنّورة قصيرة ومسدس في غمده، وحينما قلت لها إنني أبحث عن بيت لينين، أجابتني: «لقد أخطأت العنوان، بيت لينين يوجد على بعد بضع دقائق من هنا، ما عليك سوى المشي نحو الأمام، وستجدينه بكلّ تأكيد». كان المكان الذي دخلته مركزا إعلاميا مخصصا لتجميع التسجيلات الصوتية والأفلام المتعلّقة بالثورة، أمّا منزل لينين فكان يوجد قريبا منه.

ودّعتُ الفتاة وخرجتُ من المركز قاصدة بيت لينين، وحينما وصلتُ وجدت أمامي فيلا كبيرة، بدا لي لأوّل وهلة أني أعرفها جيّداً. وتلك الأعمدة الكبيرة والأقواس أعرفها هي الأخرى، أجل، الآن تذكّرتُ، لقد رأيتها في الأفلام الوثائقية التي سبقت لي مشاهدتها عن وفاة لينين، وخاصّة في فيلم (ثاوْروس)، الذي يتحدّث عن الأسابيع الأخيرة من حياة زعيم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

البلاشفة. المنزل إذن هو فيلا غوركي التي عـاش بهـا لينـين طيلـة سـنوات إصابته بالجلطة الدماغية.

في الطّابق الأرضي، وجدتُ امرأتين منهمكتيْن في حياكة سـتارة للنوافـذ مزركشة بالورود، ودون أن ترفعـا رأسـيهما عـن الثـوب بادرتـا إلى تحيّتـي، فاغتنمت الفرصة وسألتهما قائلة: «أهنا تُقطع تـذاكر الـدّخول؟». ودون أن يقطعا عملهـما أجابتـاني: «عليـك أن تمـشي قلـيلا لبـضعة دقـائق أخـرى، وسـتجدين مـن يعطيـك التـذاكر، وإذا شـئتِ يمكنـك أيـضا أن تأخـذيها بنفسكِ».

هكذا إذن كانت رحلة هذا اليوم؛ قطعتُ الطريق لما يزيـد عـن الـسّاعة مشيا على الأقدام وسط الحقول، وفي الختام هأنذا بمنزل لينين الذي لاحظتُ أنه قد تمّت إعادة بنائه بدقّة وعناية متناهيتين. وما إن أعلـن حـارس البنايـة عن وصولنا حتّى خرجت سيّدة في مقتبل العمـر لاسـتقبالنا. كـان شـعرها الأشيبُ قصيرا، وكانت هي ذات طريقة سوفيتية فحّة في التعامـل، لدرجـة أنّها بدأت مباشرة في وصف البيت بكلّ فخر واعتزاز، مراقبةً في الوقت ذاته مدى تأثير كلماتها علينا أم لا. فنحن بالنسبة لها سيّاحٌ من نوع خاصّ، مادمنا قد قدمنا إلى هذا المكان البعيد من أجـل الاطـلاع عـلى حيـاة لينـين وبيتـه، وحينما عرفت أننا إيطاليون قالت إنّ لينين كان يملك نسخة من الكوميـديا الإلهية لدانتي، ثمّ أدخلتنا إلى غرفـة المكتـب، حيـث كـان يجتمـع منـدوبو الشّعب، ثم بعد ذلك قادتنا إلى الصّالون الـصّغير، وإلى المطـبخ الـذي كـان خاليا من أيّة زينة أو زخرفة، حتّى أنه لم يكن به سوى بـضعة قـدور مرقّعـة وملحومة لأكثر من مرّة، وبضعة فناجين مكسورة الحـواشي. وبعـد المطـبخ

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

دخلنا إلى غرف النوم الثلاث، أيْ إلى غرفة أخته ماريا، وزوجته ناديا، ثم غرفته هُو، وكانت الأصغر بين الغرف كلّها.

وأذكر من ضمن الأشياء الأخرى التي رأيتُ، كانت هناك آلة البيانو موضوعة أمام الصّالون الصغير، والتي ذكّرتني فورا بإينيسّا التي كانت تعزف لحبيبها ولساعات طوال مقطوعته المفضّلة (سوناتا الشفقة) لبيتهوفن، وإن كان هو ممّن لا يحبّ الموسيقى بشكل عامّ لأنه يعتبرها مجرّد ترف بورجوازي.

كنتُ أعلم أنني أمام هذه المرشدة السياحية الصّارمة يجبُ أن ألتزم بالصّمت، إذ لا يمكنني أن أسألها شيئا عن حكاية لينين وإينيسّا، حتّى بعد أن رأيتُ البيانو، لكن لن يضير في الأمر شيئا لو تحدثتُ إليها بطريقة غير مباشرة دون أن أثير تحفّظها، لذا وجدتني أقول لها: «يبدو أن لينين كان يعزف على آلة البيانو، أليس كذلك؟»، «لا! إنه لم يكن يعرف عزف هذه الآلة على الإطلاق»، أجابت وهي تعتقد بأن سؤالي ذاك كان من علامات البلادة والغباء، فكيف لزعيم مثل لينين أن يضيّع وقته في مثل هذه التفاهات.

سمع زوجي سيردجو الذي رافقني بكل محبّة وصبر في هذا السّفر إجابتها، فأحبّ أن يساعدني لأنه فهم إلى أين كنت أنوي الوصول، فقال معيدا صياغة السؤال دون أن ينتبه إلى ما توخّيته من حذر في التعامل مع هذه المرأة: «ربّما كانت تعزفه إينيسّا أرماند؟»، حينئذ رمقتُه بنظرة حانقة على الرغم من أني كنتُ أن أعرف أنه قد فات الأوان، فما كان وانزلق السؤال، وماعلينا الآن سوى أن ننتظر ردّة فعل هذه المرأة، التي ما إن سمعت كلمات زوجي حتى قالت بوجه محمرّ من شدّة الغضب وهي تنظر

إلينا بنوع من الاشمئزاز: «كلّها تفاهات»، طبعا لم تقل: «تختلقونها أنتم الغربيون الفاسدون»، لكنّني شعرتُ بأنّ ذلك ما كانت تودّ قوله حقيقة.

أمسكتْ بعد ذلك بيدي وقالت متجهّمة: «تعالي معي»، وأخذتني إلى غرفة ناديا كروبسكايا، ثم فتحت خزانة ملابسها وأخرجت فستانا وهي تقول: «انظري كيف كانت فساتين زعيم الثورة، المرأة الأولى في روسيا، هذا الفستان كما ترين مرقّع لأكثر من مرّة!».

كانت كلماتها تلك مقتضبة جدّا لكنها في الوقت مريرة للغاية، أضافت إليها كلمات أخرى أكثر مرارة وقسوة: «لا وجود هنا للعشيقات ولا للفضائح، أنتم الغربيون لا تهتمّون سوى بالشائعات التافهة، وليس لي أمام هذا سوى أن أريك هذا الفستان حتى تعرفي من كانت المرأة الوحيدة التي كان يحبّها لينين، حبّا عمّاليا اشتراكيا، ما لنا نحن وإينيسّا؟!»

لقد كانت حقّا غاضبة، وودّعتني بابتسامة باردة استنتجتُ من خلالها أنه مازال هنا في روسيا بوتين من يشعر بانتمائه وارتباطه بالاتحاد السوفيتي، ويعتبر الحديث عن إينيسّا نوعا من الإساءة إلى سمعة زعيم الثورة، بل ما زال هناك من يعتبر الصّمت وعدم الخوض في مثل هذه الأمور واجبا وطنيّا تجاه الدّولة السوفيتية.

في ذاك البيت الخشبيّ الذي يبعد بثلاثين كيلومترا عن موسكو، والذي يستضيف ما بقي من حياة لينين اليومية، تأكّدت لي أسباب هذا الصّمت والتعتيم المحيطين بصورة إينيسّا وشخصيتها لكلّ هذه السنوات الطوال من تاريخ روسيا، فأب الثورة فلاديمير إيليتش عليه أن يظلّ واقفا أمام الجميع، والتاريخ السوفيتي والستاليني لا يمكنه أبدا أن يسمح بتسرّب صورة مخالفة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تظهره كزعيم خائن لزوجته، ولا يهتم بقضايا الثورة لأنه كان منشغلا بقصصه الغرامية البعيدة كلّ البعد عن الفكر العمّالي والثوري، لدرجة أنه عانى كثيرا بعد وفاة محبوبته ولم يعد يعرف كيف يسيّر شؤون الدّولة، إضافة إلى كلّ هذا، كان من المستحيل أن تقبل الدّولة الستالينية الجديدة بشيء من هذا القبيل، أيْ أن يكون لزعيم الثورة علاقة بامرأة من المجتمع البورجوازيّ الروسيّ معروفة باستقلالها الثقافي، وبأسرتها التقدّمية التي كانت في الوقت نفسه من كبار ملّاك مصانع النسيج الذين ساهموا أيضا في تمويل الحزب البلشفيّ!

حينما تعرّفت إينيسّا على لينين كانت تبلغ من العمر خمسا وثلاثين سنة، أيْ أنها كانت امرأة ناضجة وذات خبرة في الحياة. كانت متزوجة من أليكساندر أرماند وأنجبت منه أربعة أولاد قبل أن تنفصل عنه وتختار العيش مع شقيقه الذي أنجبت منه قبل وفاته ابنها الأصغر أندريه، لكنها على الرغم من كلّ هذه التغيرات في حياتها الزوجية والعاطفية استطاعت أن تحافظ على علاقة طيّبة وجيدة مع زوجها السابق، ولم تنقطع بينهما لا الزيارات ولا المراسلات.

إينيسّا مثل لينين كانت مناضلة بلشفية مستعدّة لبذل أقصى التضحيات من أجل القضية، لأنها كما لينين كانت تؤمن بالثورة العمّالية، وبمستقبل جديد للوطن، إلا أنّ المرض لم يمهلها حتّى ترى كيف تحقّق حلمهما، ثم انهار سريعا وآل إلى تلك النّهاية المريرة. مكتبة الرمحي أحمد

لم تكن إينيسّا امرأة مستقلّة فقط ثقافيا، ولكن اقتصاديا أيضا، ممّا مكّنها من المساهمة في تمويل الحزب، إضافة إلى أنها كانت تعبّر عن رأيها بكامل

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الحرية، وتعارض إذا اقتضى الأمر ذلك بعض قرارات الرئيس الأعلى للحزب. دون أن ننسى أنها كانت أيضا من المساندات للحرّية في الحبّ، ومعارضة لاتفاقية بريست ليتوفسك للسلام. كما كانت تؤيّد مجموعة بوجي التي كانت كثيرا ما تنتقد لينين. وختاما يمكن القول إنها كانت تختلف كثيرا عن الزعيم في مسار حياتها كمناضلة وكمدافعة عن حقوق المرأة.

لكن إذا كانت مميزاتها وسماتها هذه هي التي دفعت بالمسؤولين عن تاريخ الاتحاد السوفيتي إلى حجب صورتها وشخصيتها عن الجميع، إلا أنني لا أستطيع أن أفهم لماذا اعتمد المجتمع الغربي نفس الطريقة التي تعامل بها معظم الروسيين تجاهها؟ لا شك إنه ثمة أسباب أخرى ما زالت غائبة عنّا، فلا أظن أبدا أنه من السّهل الإحاطة بصورة وشخصية إينيسّا وتخليصها بالتالي من كلّ تلك الأحكام الذكورية المسبقة عنها، التي غالبا ما يسقط ضحيتها العديد من رجال التأريخ بمن فيهم الغربيون. فهي هكذا هذه المرأة، يصعب الحديث عنها أو التأريخ لها وهي التي عرفت بتعدّد مواهبها وتجاربها، فلقد كانت المناضلة البلشفية التي خبرت السجن والمنفى، وكانت في الوقت نفسه أمّا حنونة وحاضرة دائما في حياة أبنائها الخمسة. كما كرّست حياتها للعمل مع لينين، ولكنها في الوقت نفسه كانت تحرص كلّ الحرص على حرّيتها الشخصية دون أن تنسى أبدا الاهتمام بقضايا المرأة وحقوقها المهضومة. صحيح أنها عاشت بدايات فشل المشاريع الثورية، لكنها لم تفقد قوة الإيمان بمبادئ الثورة.

كانت ثرية، ولكنها لم تخش الفقر، حتّى أنّها ماتت فقيرة جدّا. كانت زوجة طيّبة، لكنها في الوقت ذاته كانت تدافع عن أهمّية اختيار المرأة لشريك

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حياتها، فحتّى حبّها للينين الذي رافقها حتى أواخر أيام حياتها، لم يمنعها من الحفاظ على صداقة متينة مع زوجته ناديا كروبسكايا. لقد كانت طيّبة مع الجميع، وكانت لها صداقات في مناطق مختلفة من العالم، لكنها كانت أيضا تعرف كيف تنسحب من الساحة في الوقت المناسب للاستمتاع بلحظات تقضيها لوحدها بعيدا عن الناس والجماهير. كانت مثالية وعانقت أيضا أفكار العالم الطوباوي الجديد، دون أن تفرّط في شخصيتها العقلانية، ودورها الدبلوماسيّ الوساطيّ الذي به كانت تسعى إلى حلّ العديد من القضايا والمشاكل المتعلقة بالحزب والثورة.

شخصيتها هذه المعقّدة التّكوين، وكذا المتناقضة في كثير من الأحيان، لحظات حماسها واكتئابها وحزنها، وطبعها الثوري المضحّي لدرجة التفاني ونكران الذات، وقدرتها على الجمع في الحبّ بين السياسة وأبنائها، كلّ هذا جعل منها شخصية قوية صعبة على التصنيف أو التأطير داخل خانة أو صورة واحدة، ولأجل هذا فإنّ الباحث وهو أمام إينيسّا تسقط منه كل الأحكام الجاهزة، ولأجل هذا أحببتُ عن أكتبَ عنها وأروي حكايتها للنّاس.

(٣٢)
كلمة شكر

بأيّ اسم سأبدأ، وأنا قد شارفت على نهاية هذه الرحلة الممتعة، وأيّ شخص سأشكر دونا عن الآخرين، والأصدقاء والأقارب الذين ساندوني في هذا العمل كُثر ولا يتسّع المكان لشكرهم جميعا، ولربّما سيكون الحلّ هو الاكتفاء بذكر بعض الأسماء فقط، وسأبدأ أولا بكلّ من الأصدقاء بْيير لويدجي بَتّيسْتا، وبيبّينو كالْدَرولا، وماركو سابّينو، ثمّ ابنتي مارتا، وكلّهم جميعا كانوا ولم يزالوا يؤمنون بأهمّية كتابي هذا، ولولاهم ما استمرّيتُ في العمل عليه.

ولا أنسى طبعا الصّديق بيتروتشو، الذي عاملني بكرم شديد حينما مدّني بكلّ المصادر النادرة التي يصعب الحصول عليها، والتي لولاها ما نسجتُ العديد من فصول هذا الكتاب.

كما لا يفوتني شُكر صديقيّ النّاشريْن كريستينا بالومْبا، وكريستيانو دي مايو على ما بذلوه من جهد وعناية تجاهي وتجاه إينيسّا.

وشكر خاصّ في الختام أوجّهُهُ للمترجمة إيليُونورا دورانْتي مانْغوني، التي وقفت إلى جانبي بترجماتها من اللغة الروسية لبعض من الكتابات التي لولاها ما استطعت أن أطّلع بشكل أكبر على جوانب كثيرة من ملامح شخصية ظلت لأمد بعيد غامضة ومخفية عن الجميع.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سير ذاتية

ريتانّا أرميني

صحفية وكاتبة إيطالية عُرفت باهتمامها بالقضايا النسوية من خلال عملها في العديد من الجرائد والمجلات بما فيها مجلة نحن النساء «نويْ دونّه» والتي كانت رئيسة التحرير فيها.

وفي إطار عملها بالصحافة المكتوبة تُعدُّ ريتانّا من المؤسسين الأوائل لجريدة البيان «المانيفيستو»، كما عملت أيضا بكل من جريدة العالم «إلموندو»، والنهضة «لا ريناشيتا»، والعرض النقابي «لا راسّينيا سينْدَكالِه»، ومراسل المساء «الكورّييري دي لّا سيرا»، ثم جريدة الوحدة «لونيتا» والتي عملت فيها لمدّة ثمان سنوات (١٩٩٠-١٩٩٨) وهي الفترة نفسها التي أصبحت فيها الناطق الرسمي باسم رئيس مجلس النواب فاوستو بيرتينوتّي.

وفي سنة ٢٠٠٨ قدّمتْ ريتانا مع جوليانو فيرّارا برنامجها التلفزيوني (الثامنة والنصف)، وهي حاليا تعمل في جريدة «إلْريفورميسْتا» والتلفزيون الأحمر.

من مؤلفاتها:

- سنحيا بالعمل: رحلة عند غروب الأسطورة (مع باولا بيفا)، روما، دار العمل، ١٩٨٠؛
- إثم النساء: من الاستفتاء حول الإجهاض إلى التلقيح الاصطناعي؛ قصص ومعارك وتأملات، فلورانسا، منشورات بونتي أليغراتسيه، ٢٠٠٦؛

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- النساء الأوائل: لماذا يُحرم الجنس الثاني من العمل السياسي، فلورانسا، منشورات بونتي أليغراتسيه، ٢٠٠٨؛
- كلمة امرأة: الكلمات المئة التي غيّرت العالم مَرْويةً على لسان ١٠٠ من النساء الرائدات، فلورانسا، منشورات بونتي أليغراتسيه، ٢٠١١؛
- القرش والديناصور: الحياة العمّالية في فيات ماركيونّي، روما، منشورات إيدْييس، ٢٠١٢.

د. أسماء غريب

ناقدة، ومترجمة، وشاعرة مغربيّة، مقيمة في إيطاليا

- مستشارة في هيئة التحرير لدى مجلة السّلام الصادرة من السويد (ستوكهولم)، والتي يرأس تحريرها الأديب السوري صبري يوسف؛
- مديرة الفرع الإيطالي للبيت الثقافي العربي في الهند؛
- عضو رابطة الأدباء العرب؛
- تخرّجت سنة ٢٠٠٦ في جامعة باليرمو (قسم الدراسات الشرقية الإسلامية) بإيطاليا، وقد كانت أطروحة إجازتها باللّغة الإيطالية حول "أسرار الحروف النورانية بالقرآن الكريم"؛
- حصلت سنة ٢٠٠٨ ومن الجامعة ذاتها، على شهادة الماجستير الدولية للدراسات العليا بمرتبة الشرف الأولى، تخصّص: دراسات حول البلدان العربية والإفريقية. وكانت أطروحة الماجستير حول "إسراء ومعراج الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام"؛
- في بدايات سنة ٢٠١٢ حصلت بروما على دبلوم في التحرير الأدبي والصحفي من "ستيلوس" مؤسسة علوم التحرير الأدبي والصحفي باللغة الإيطالية؛
- نالت في يومه الخميس ٨ شعبان ١٤٣٣ الموافق لـ ٢٨ حزيران ٢٠١٢، بروما بجامعة [La Sapienza] قسم الدراسات الشرقية: تخصّص (حضارات وثقافات دول إفريقيا وآسيا) شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وبمرتبة الشرف الأولى عن أطروحتها الموسومة بـ (الحداثة في المغرب، من التاريخ إلى الأدب: محمد بنيس أنموذجا للدراسة والتحليل)؛

- شاركت في العديد من الأنشطة الثقافية الخاصّة بحوار الأديان بأهمّ المؤسسات التعليمية بمدينة إقامتها؛
- نالت جائزة الشعر العالمي بجزيرة سردينيا الإيطالية عن قصيدتها "السلطعون الناسك" عام ٢٠٠٩، وذلك في إطار فعاليات مهرجان أكتوبر للشعر العالمي بمدينة "ساسّري".

إصدارات:

- خرجَ ولمْ يعُد (مجموعة قصصية)، ط١، مطبعة الحقّ، آسفي ـــ المغرب، ٢٠٠٦/ ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- بدونك، (ديوان شعري) باللغتين العربية والإيطالية، كليبسيدرا، إيطاليا، ٢٠٠٩؛
- أربعون قصيدة عن الحرف، ترجمة لديوان شعري من اللغة العربية إلى الإيطالية للشاعر أديب كمال الدين، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١١؛
- مقام الخمس عشرة سجدة (ديوان شعري) باللّغتين العربية والإيطالية، ط١، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١٣ / ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- تجليّات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين، كتاب نقدي، منشورات ضفاف، لبنان، بيروت، ٢٠١٣؛

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- فجر العصافير الطليقة، ترجمة لمجموعة قصصية من اللغة العربية إلى اللغة الإيطالية للكاتب الفلسطيني نضال حمد، منشورات الصفصاف، بولندا، ٢٠١٤؛

- تانغو ولا غير، ديوان مشترك (أسماء غريب وسعد الشلاه)، وقد ترجمته من العربية إلى اللغة الإيطالية، منشورات آريانا، إيطاليا، آذار ٢٠١٤؛
- ٩٩ قصيدةً عنْكَ، ط١ وط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٥/٢٠١٦؛

- الترجمة الإيطالية لـــ"من مذكّرات طفل الحرب"، ديوان الشاعرة العراقية د. وفاء عبد الرزاق، منشورات أريانا، إيطاليا، ٢٠١٦؛
- الترجمة الإيطالية لـ "نشيد المقبرة" ديوان الشاعر المغربي أنس الفيلالي، منشورات (إيديليفر)، باريس، ٢٠١٦؛
- ما لمْ تبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليهِ متون سيّدة، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- الأمانةُ العظمى في الدّفاع عن تراث وتاريخ الأمم: المُحقِّقُ علي عبد الرضا أنموذجا، منشورات العصرية للطباعة والإعلان، العراق ٢٠١٦؛
- أنا رع، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦.

مشاركات في إصدارات وأنطولوجيات:

- صقلّيات، للكاتبة الإيطالية مارينلاّ فيومه، وهو معجم خاص بسير ذاتية لــــ ٣٣٣ امرأة من أهم نساء صقلية وقد ساهمت فيه أسماء غريب بدراستها باللغة الإيطالية حول الأديبة الصقلية الراحلة "آنيي ميسّينا"

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والتي كانت تُقيم بمصر وتُصدر قصصها فيها باسم "جميلة غالي" صدر هذا المعجم عن دار النشر الإيطالية، إيمانويله روميو سنة ٢٠٠٥؛

- حكايات الهواء، التراب، الماء والنار، للكاتبتين الإيطاليّتين سيلفانا فيرناندس وإيليونوراه كيافيتّا، دار روبّتّينو، إيطاليا، ٢٠٠٧ (وهو الكتاب الّذي ساهمت فيه الأديبة بترجمة الجزء الخاص بالمساهمات العربية لأديبات من مناطق مختلفة من العالم العربي)؛

- رؤى نقدية في شعر حسن حجازي، دار أنهار، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٣، وقد شاركت فيه أسماء غريب بدراسة نقدية تحت عنوان: شموع وأبيات تضيء مسيرة الشاعر حسن حجازي؛

- شمعدان النجم، قصيدة شاركت بها في أنطولوجيا الشعر العربي، التي أعدّها الشاعر والروائي منير مزيد؛

- وجهان وامرأة واحدة، نصّ قصصي شاركت به في أنطولوجيا القصة المغربية القصيرة وكانت من إعداد الكاتب والقاص سعيد بوكرامي؛

- نساء حكيمات، دار أريانا للنشر والتوزيع، إيطاليا، آذار ٢٠١٥.

ترجمات إلى اللغة الإيطالية والعربيّة

- السلام أعمق من البحار، للأديب السوري صبري يوسف؛

- مدائن يسكنها البحر، (ديوان شعري) للشاعر والدكتور المغربي محمد نجيب زغلول؛

- الضفة المعاكسة، للشاعر الإيطالي فابيانو ألبورغيتّي (ديوان شعري يتحدث عن تجربة وويلات ومحن الهجرة السرية إلى إيطاليا)؛

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- العودة حق: من شباب فلسطين إلى شباب العالم، والكتاب هو عبارة عن مجموعة من القصص الفائزة في مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠١١ التي أقامتها "جمعية القلم الخيرية" بالمخيمات الفلسطينية في سوريا؛
- سيرة الطائر الوحشي، (ديوان شعري) للشاعر العراقي خالد خشان؛
- همسات من البحر الآخر، وهي ترجمة لـ ١٤ نص شعري لنخبة مختارة من شعراء مجلة نوستالجيا؛
- طينجيتانوس، للفنان والكاتب المسرحي المغربي الزبير بن بوشتى؛
- تحت سماء دافئة، (مجموعة قصصية)، للكاتب والمترجم التونسي: إبراهيم درغوثي؛
- أقدام بيضاء، (عمل مسرحي) للكاتب المسرحي المغربي الزبير بن بوشتى؛
- مدارات الكلمة، مريم نجمة، سوريا/ هولندا.

دراسات نقدية ومقالات متفرّقة:

- أصحاب دانتي المترجمون: من اللقاء والتعارف إلى اشتكال المعاني وغموض الأسرار؛
- في ترجمة ما لا يترجم: تجربة المستشرق الإيطالي أليسّاندرو بوزاني نموذجا (وقد نُشرت هذه الدراسة في العدد الأول من مجلة الثقافة العراقية)؛
- النقطة الجريحة والحرف المتشظّي الباكي في تشكيليات الدكتور عاصم فرمان؛
- الإيروس والثاناتوس في غويرنيكيات سعد الشلاه، وهي دراسة خاصة بمجموعته القصصية الجديدة (الجندي والمجرشة)؛

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- جدليةُ الحاءِ في سرديات وفاء عبد الرزاق "رقصةُ الجديلة والنهر" و"حاموت" كأنموذجيْن للدراسة والبحث؛
- الرجلُ ـ الشمس في رواية (رسائل زمن العاصفة) للروائي المغربي د. عبد النور مزّين؛
- شجرة السّتر النّورانية في ديوان (النجمة والدرويش) للشاعر العراقي سعد الشلاه؛
- إنسانُ السَّلام: مَنْ هُوَ وكيفَ يَتكوّن؟ / تجربة صبري يوسف الإبداعيّة أنموذجاً؛
- حملة العرش في الصحيفة السجادية، الدعاء الثالث نموذجا للبحث والدراسة؛
- العمل وتجليلته اليعقوبية في سرديات سعد الشلاه؛
- إشكالية التحوّل والتطوّر، ونظرية القرارِ المكين في (سبع عيون)، قصيدة سعد الشلاه الجديدة؛
- البناء الزمكاني والهمّ الاجتماعي والسياسي في (أيام غير أليفة): من النظرية إلى التطبيق ((دراسة نقدية في مجموعة نوال هادي الجبوري القصصية الجديدة))؛
- من مذكرات طفل الحرب بين مطرقة الترجمة وسندان النقد:

(دراسة نقدية خاصة بديوان "من مذكرات طفل الحرب" للمبدعة العراقية د. وفاء عبد الرزاق)، ط ١، دار نعمان للثقافة، لبنان،٢٠٠٨/ ط ٢ وط ٣، دار كلمة، مصر، ٢٠٠٩/ ٢٠١٠))؛

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- شجرة الماءِ بيْن ومْضةِ الشّعْرِ وسُؤالِ التّيهِ في ديوان "أغنية الشتاء" لأحمد محمد رمضان؛

- يُوسفيّاتُ سعد الشلاه بين الأَب والأنثروبولوجْيا؛ قراءة نقدية لديوان الشاعر سعد الشلاه، (كفّ أمّي)، المركز الثقافي للطباعة والنشر، بابل، طبعة أولى، ٢٠١٤؛

- إشكالية النص القرآني بين المناهج النقدية ومعايير التفسير والتأويل، قراءة في كتاب أسامة غالي الموسوم (النص القرآني بين معيارية الموروث ومناهج النقد المعاصر)؛

- العبودية والرّق بين الماضي والحاضر، عن جامعة الدّراسات والأبحاث، فرع كلّية العلوم السياسية/ قسم الدراسات التاريخية باللغة الإيطالية؛

- قمر الفرجار وقواربه (مقاربة نقدية) حول ديوان "قمر أم حبّة إسبرين"، للشاعر الفلسطيني محمّد حلمي الرّيشة، نُشرت بجريدة الأيام الجزائرية، الأربعاء ٢٧ نيسان ٢٠١١؛

- قراءة في ديوان "للأزهار رائحة الحزن" للشاعر المغربي إبراهيم القهوايجي؛

- ثنائيّة الغربة والوجد في ديوان خريف طفلة للشّاعرة عواطف عبد اللطيف: د. أسماء غريب؛

- النّوتي المبحر نحو ثدي الكون، دراسة عن ديوان "لا أدري إلى أين يأخذني هذا الأفق؟" للشاعر الإيراني حمزة كوتي؛

- الإمبراطورة والشاعر، دراسة خاصّة بديوان الشاعر أديب كمال الدين "أربعون قصيدة عن الحرف"؛

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- إشارات الألوان: قراءة في ديوان "الحرف والغراب" لأديب كمال الدين؛
- الرّوح القدس أو اليد العالمة في أشعار أديب كمال الدين؛
- عندما ينتصر الشعر قراءة في ديوان "التي في خاطري" للشاعر المصري حسن حجازي؛
- أبروتسو قلب إيطالي ينبض بالفن والفكر والجمال؛
- غوص في بحار الجسد والرّوح؛
- الواقعيّة في الأدب الإيطالي؛
- أبناء الشمس والصّفصاف بين التاريخ والأدب: لمحات من الأدب الكردي.

كتابات ومقالات نقدية عنها

- نزار بهاء الدين الزين، عودي إليّ ياحنين، رواية من ثلاثة أجزاء للأديبة المغربية أسماء غريب، جريدة الرأي، عدد ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٦؛
- فاطمة ناعوت، قصص للمغربية أسماء غريب، أولئك الذين لا يعودون من خيبة أحلامهم، جريدة الحياة، ٢٠٠٨، عدد ١٦٤٣٤؛
- صالح الطائي، الدكتورة أسماء غريب وتجليات أديب كمال الدين، [قراءة في كتاب (تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين) تأليف الدكتورة أسماء غريب، دار ضفاف للنشر، بيروت، ٢٠١٣]، مجلة سطور، عدد ٣٠ تمّوز، ٢٠١٣؛
- إسماعيل إبراهيم عبد، قراءة في كتاب: تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين للدكتورة أسماء غريب، جمال العشق وتجليلتُه الصوفية، جريدة آي ثقافة، عدد ١٧ كانون الأول ٢٠١٣؛

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- أسامة غالي، سيميولوجية العنوان ومعاقد النص في شعر أسماء غريب، قراءة أولى، جريدة دنيا الرأي، عدد، ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٣؛
- د. فاضل عبود التميمي، الحضور الصوفيّ في (مقام الخمس عشرة سجدة) للشاعرة أسماء غريب، جريدة العالم البغدادية، عدد ٣١/ ١٢/ ٢٠١٣؛
- أسامة غالي، سفر الذات في شعر أديب كمال الدين وتداعيات البحث عن المعنى الجمالي، صحيفة المثقف، العدد: ٢٨٩٦ الاحد ١٠-٠٨-٢٠١٣؛
- صباح الأنباري، قراءة في قصيدة الشاعرة د. أسماء غريب (إليكَ شمسي في عيد العشاق)، جريدة بصرياثا، عدد ٢٥ شباط ٢٠١٤؛
- د. عبد الناصر عيسوي، ((ضرورة الحياة الروحية للإنسان المعاصر/ أسماء غريب في مقام الخمس عشرة سجدة))، مجلة "الإذاعة والتلفزيون" عدد السبت ٣ أيار ٢٠١٤/ ركن إبداعات؛
- حيدر علي سلامة، نحو مادية شعرية في قصيدة (ليالي زفافنا السّبْع) للدكتورة أسماء غريب في طقوس الجسد المقدس/ وشعرية النص المُتخَيّل؛ مجلة بصرياثا، عدد ٠١ نيسان ٢٠١٤؛
- علوان السّلمان، سيميائية الألوان في (سبع قبل) للشاعرة د. أسماء غريب، مجلة معارج الفكر، ٢١ أيّار ٢٠١٤؛
- غسان العبيدي، البعد البؤري، قراءة في قصيدة (السمكة والصياد) للدكتورة أسماء غريب، صحيفة الديار اللندنية،٢٧ حزيران، ٢٠١٥؛
- نوال هادي حسن، المرأة ومحاكمة التأريخ بعين الروح في قصيدة (نفرآتون) للشاعرة الناقدة د. أسماء غريب؛

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- د. عواد الغزي، اللغة الثملة والفلسفة المقدسة في قصيدة (حانة العشاق) للشاعرة أسماء غريب؛
- د. عواد الغزي، السوسيولوجيا العقائدية ومركزية الصوت في قصيدة (جرس) للدكتورة أسماء غريب.
- كاظم اللامي، قراءة في كتاب (ميثم السعدي وثنائية العرض المسرحي) تأليف الأديبة د. أسماء غريب.

حوارات واستطلاعات صحفية

- بن رحمون عبد الحق، أسماء غريب تتحدث للزمان عن منابع المعرفة، جريدة الزمان الدولية، عدد ٣٣٤٩ / ١٨/ ٠٧/ ٢٠٠٩؛
- ندى ضمرة، حوار مع الشاعرة المغربية أسماء غريب، العرب اليوم، ٢٠١٠؛
- محمد الكلاف، حوار المبدعات، مجلة روافد عدد ٢٠/ ٢٠١١؛
- بن رحمون عبد الحق، لا ندم في طريق القصائد، جريدة الزمان الدولية، عدد ٢٩ أيلول ٢٠١٢؛
- منى ظاهر وأوس داوود يعقوب، الحصاد الثقافي ٢٠١٣: أين توارى الكاتب العربي في عاصفة التحولات؟ جريدة العرب، عدد ٩٤٢٥، ٣١/ ١٢/ ٢٠١٣؛
- القلب، أرض الإنسان وبيته الحق، حاورها الأديب المسرحي ميثم السعدي، مجلة نسائم الأسترالية، (آب ٢٠١٤)؛

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

- الدكتورة أسماء غريب: الأديبة المغربية التي تغنت شعراً بحب الحسين (ع)/ إنسانة أبدعت فتعددت مواهبها (خاص بوكالة عشتار الإخبارية/ العراق/ حاورها رئيس التحرير فرج الخزاعي)؛
- الدكتورة أسماء غريب في حوار عن الشعر والنقد والتصوف والترجمة، حاورها من الجزائر وليد شموري، (مجلة الشاهد / عدد ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٤)؛
- عن السلام العالمي، حوار مع الأديبة د. أسماء غريب، حاورها رئيس تحرير مجلة السلام المبدع والفنان التشكيلي صبري يوسف (سوريا/ ستوكهولم)، (مجلة السلام/ العدد الثاني ٢٠١٤)؛
- عن الأدب والحداثة في المغرب، حوار مع د. أسماء غريب، (جريدة لوسفويّتّينو)، ٢٠١٥

https://asmaaegherib.wordpress.com/
https://asmagheribblog.wordpress.com/
http://ishtartammuz.wordpress.com
http://www.youtube.com/channel/UCHtad5pA6GyNR0EkV9Ty4sA



كان زعيم البلاشفة يعتقد لوقت قريب أنه يبحث في إينيسّا عن ما قد يكون نافعا وصالحا للحزب والقضية، ولم ينتبه تماما أن الأمر فيه شيء آخر لا علاقة له بالعمل، ولا بالنضال السياسي، وأنّ رفاقه في الحزب وفي مقهى دي مانيّور قد لاحظوا جيّدا أنّه فُتنَ بجمال هذه المرأة، وبلطفها وشخصيتها المرحة والمفعمة بالحيوية والنشاط، وإلّا فما معنى تلك السعادة العارمة التي كان يشعر بها كلّما أبدت لهُ رأيا يدلُّ على إعجابها بما يكتبُ أو بما يلقي أمام الرّفاق من خطابات، وما معنى ألّا يرفع عينيه من عليها، كلّما التقاها صدفة في بعض اجتماعات الحزب؟! إنها تعجبه، لأنها إينيسّا وكفى، وهذا بالضبط ما كان يجعله يشعر أمام نفسه قبل أيّ أحد آخر، بأنه أصبح رجلاً هزمَهُ العشقُ.

ريتانّا أرميني



إينيسّا هنا، ما هي سوى رمز لنساء قياديات عديدات امتهنّ العمل السياسي، وكرّسن حياتهن لقضاياه الحساسة دون أن يحظين بالتقدير الكافي لعملهنّ، ولا بالاعتراف بمدى أهمّيته، ولعلّ الكاتبة ريتانّا تريد من خلال طرح حكاية هذه المرأة مع لينين، التساؤل عن كم من إينيسّا ما زالت حاضرة بيننا، وإن كان يفصلنا عن زمن الثورة البلشفية العديد من السنوات، وكأنّ شيئا لم يتغيّر، وكأنّ الزمنَ مازال واقفا هناك، فمن يدري، لربّما الأزمة الحقيقية للمجتمعات المعاصرة تكمن هنا: الإنسان لليوم لم يعرف كيف يتعامل مع تاء التأنيث، والرّجلُ مازال لمْ يفكّ بعد أسرار حواء وطاقاتها الكامنة، ربّما لو حاول ذلك لتغيّر كلّ هذا الجحيم الذي يعيشه الإنسان المعاصر، إلى ماهو أفضل وأعمق وأقيم، من أجل حياة إنسانية كريمة وعادلة.

د. أسماء غريب





ISBN 978-9933-536-44-2

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf